

الهجاء في الأدب الأندلسي

دكتور

فوزي عيسى

منتدى سورا الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

<https://www.facebook.com/books4all.net>



الهجاء فى الأدب الأندلسى

الهجاء فى الأدب الأندلسى

دكتور

فوزى عيسى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

٢٠٠٧م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

مقدمة :

ازدهرت الدراسات الأندلسية فى السنوات الأخيرة ازدهاراً ملحوظاً ، وتنوعت جهود الباحثين المتخصصين فى هذا الميدان ، فأزِيل غبار النسيان عن كثير من المخطوطات ، وأفردت دراسات تؤرخ للعصور الأدبية فى الأندلس ، وتستنبط الظواهر والسمات ، وتبرز نشاط الشعراء والأدباء ، وأقبل فريق من الباحثين على دراسة الموشحات والأزجال باعتبارهما فنين أندلسيين خالصين ، بينما عكف آخرون على ما كتبه المستشرقون من إسبان وغير إسبان فنقلوه إلى اللغة العربية لتكتمل الصورة ويتحقق التواصل بين الباحثين العرب وغيرهم .

وقد وجد فى الدراسات الأندلسية اتجاه يهدف إلى إفرا د كل غرض من أغراض الشعر الأندلسى بدراسة مستقلة ، فدرس الغزل الأندلسى كما درست الطبيعة والرياء وشعر الغربة والشعر الدينى ... إلخ .

غير أن موضوع الهجاء لم يستأثر بدراسة مستقلة ، وغاية ما كتب عنه لا يتجاوز الإشارات العابرة المتناثرة أو الأحكام العامة ، حتى لقد ظن كثير من الباحثين أن الهجاء لم تقم له سوق رائجة فى الأندلس ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فأنكر وجود الهجاء كغرض من أغراض الشعر الأندلسى معللاً رأيه هذا بأن البيئة الأندلسية المتحضرة تعاف الهجاء وتمجه ، ومما قوى هذا الزعم أن بعض المصادر الأندلسية لم يتسع صدرها لشعر الهجاء فأسقطته وأغفلت ذكر شعرائه ، بيد أن صدور بعض نقاد الأندلس وبعض أصحاب المصادر الأندلسية عن هذا الموقف لدوافع دينية وأخلاقية وسياسية لا ينفى وجود هجاء أندلسى ، بل لا ينفى ازدهاره ، وهذا ما نحاول أن نتتبعه فى هذه الدراسة .

ولا شك فى أن الهجاء باب قديم من أبواب الشعر العربى ، وهو فن عرفته الآداب الأجنبية قديماً وحديثاً ، وإذا استبعدنا هذا الضرب من الهجاء الذى يقوم على البذاءة والفحش والسب والمباشر ، فإن الهجاء بضروبه الأخرى

التي تقوم على التلميح والرمز والإضحاك ورسم الصورة الكاريكاتورية الساخرة يبقى في نظرنا فناً له سماته وملامحه الخاصة ، وهو بهذه الصورة التي أشرنا إليها يبدو فناً عسيراً لا يقدر عليه إلا من منحه الله موهبة خاصة ، ومن زود بمقدرة تتيح له أن يلوح الدقائق والجزئيات ويبرزها بمهارة تستدعي السخرية والإضحاك .

ولست مع أولئك الذين يرون أن الهجاء " صار اليوم في عداد الأغراض الشعرية المنقرضة ، أو التي أشرفت على الانقراض " ^(١) ، فالهجاء لم ينقرض ولم يمت ، ولكنه اتخذ وجهات أخرى ، فلم يعد هو ذلك الهجاء القبلي أو الشخصي أو الذي يعتمد على السب الصريح ، بل تطور بتطور الزمن والحضارة والثقافة ، وأصبح يختفي وراء مسميات أخرى كثيرة .

ولا أتفق مع من ينادون بإسقاط الهجاء أو استبعاده من أبواب الشعر العربي لأن ذلك تراث خلفه أسلافنا فضلاً عن أن الهجاء لا يقوم كله على البذاءة والإفحاش ، بل إن النظر إلى الهجاء من هذا الجانب وحده لا يخلو من قصور وإجحاف ، فالهجاء من زاوية أخرى يمثل روح النقد والمعارضة لكثير من سلبيات الأفراد والمجتمع ، ووسيلة لإظهار أوجه القصور والخلل ، وكشف العابثين والمخادعين ، إنه يسعى إلى تحقيق عالم مثالي عن طريق السلب لا الإيجاب أو بطريقته الخاصة التي لا تتفق مع الطريقة التي تعارف الناس عليها ، وقد سبقنا إلى تقرير هذه الحقيقة أستاذنا الدكتور محمد حسين حين قال : " الواقع أن في الهجاء قوة هجائية بنائية إلى جانب هذا المظهر الهدام ، الذي هو أول ما يطالع المتصفح له ، فهو حين يهاجم شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو نزعة من النزعات ، يتصور في حقيقة الأمر حياة أخرى

^(١) أدب الفقهاء تأليف عبد الله كنون ص ١٦٤ .

بأشخاصها ونظامها وأسلوبها . هي مثله الأعلى الذى يطمح إليه ويدعو له
فالهجاء له فلسفة فى الحياة يريد أن يؤديها إلينا " .^(١)

لهذه الأسباب كلها آثرت أن أفرد الهجاء الأندلسى بدراسة مستقلة ،
ولم تقتصر هذه الدراسة على شعر الهجاء وحده بل جمعت بين الهجاء شعراً
ونثراً ، وهى تشتمل على ثلاثة أبواب فتعرض فى الباب الأول لمعنى الهجاء
ومفهومه ومراحل تطوره . ويختص الباب الثانى بدراسة اتجاهات الهجاء فى
الأندلس ، كالهجاء السياسى ، والاجتماعى ، وهجاء العلماء وأصحاب المهن ،
وهجاء التندر والسخرية ، والمعارك الهجائية بين الشعراء .

أما الباب الأخير فيقف عند الجوانب الفنية للهجاء ويقع فى فصلين ،
أحدهما عن لغة الهجاء وأساليبه ، والآخر عن صور الهجاء الفنية .

ولا أريد أن أشير إلى الصعوبات التى واجهتنى فى التنقيب عن
النصوص خاصة وأن بعض المؤلفين أبوا أن يدرجوا الهجاء فى مؤلفاتهم .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

الباب الأول

(مراحل تطور الهجاء)

- معنى الهجاء
- مراحل تطوره
- العوامل المؤثرة فيه

الهجاء بمعناه اللغوى والأدبى :

تدور مادة (هجو) فى المعاجم العربية حول عدة معان نجم لها فيما يلى :^(١)

- ١- الهجاة : الضفدع .
 - ٢- وهجو يومنا : اشتد حره .
 - ٣- وهجيت عين البعير : غارت .
 - ٤- وهذا على هجاء هذا : على شكله وقدره ومثاله .
 - ٥- والمرأة تهجو زوجها وتهجو صحبتة : أى تذمه وتشكو منه .
 - ٦- وجاء فى الحديث الشريف : " اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر ، فاهجه اللهم والعنه عدد ما هجانى أو مكان ما هجانى " .
 - ٧- والهجاء تقطيع اللفظة بحروفها : أى تعدادها وتفصيلها .
 - ٨- ويقال : هجى البيت هجياً : أى انكشف .
 - ٩- والهجى : الشبع من الطعام .
 - ١٠- ومما هو قريب من المادة : الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب .
 - ١١- والهوج بمعنى الحمق والتسرع .
 - ١٢- والرياح الهوجاء : التى تقتلع البيوت .
- وهذه المعانى كلها تتصل اتصالاً وثيقاً بالمعنى الأدبى لكلمة (هجاء) ، فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبى مأخوذاً من الضفدع ، فهو قبيح الشكل ، بشع الصوت ، وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر ، ففيه معنى التنكيل والتعذيب وقد يكون مأخوذاً من الأصل الهجائى ، فهو يكشف عن سيئات المهجو ...

^(١) انظر لسان العرب المجلد ١٥ ص ٣٥٣ وما بعدها . أساس البلاغة ٢ / ٥٢٥ .

فمعانى الكلمة تدور حول البشاعة والشدة والنكال والكشف . والكلمة مرنة تحتتمل الزيادة ، وليس هناك ما يمنع من توسيع مدلولها الأدبى بحيث يشمل غيرها من المعانى القريبة جداً من المعنى الأول ، وهى وإن كانت قد أخذت شكلاً ثابتاً بهذا المعنى الذى اصطلح عليه القدماء ، فما ينبغى لها أن تجمد على هذا الشكل إن فرض عليها تطور الفنون الأدبية أن تتسع أو تضيق ^(١) .

فالهجاء - بمعناه الأدبى - فن من فنون الشعر " يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء ، وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب " ^(٢) .

والهجاء باب قديم من أبواب الشعر العربى ، وقد أشار النقاد القدماء إلى رسوخ هذا الفن وثباته فى الشعر . فذهب ابن سلام إلى أن الشعر يندرج فى أربعة موضوعات عد الهجاء واحداً منها وهى : الفخر والمديح والنسيب والهجاء ^(٣) وجعل أبو تمام الهجاء واحداً من أغراض الشعر العشرة التى ضمنها حماسه ، ورأى (قدامة) أن الشعر ينحصر فى أربعة موضوعات هى المديح والهجاء والحكمة واللهو ^(٤) وجاء (أبو هلال العسكري) فأحل الهجاء محلاً أثيراً فى (ديوان المعانى) ، فوضعه فى الباب الثالث من أبواب الشعر التى قسمها إلى اثنى عشر باباً ^(٥) وحذا حذو أولئك النقاد المرزبانى فى (موشحه) وابن رشيق فى (عمدته) .

ورأى بعض النقاد أن الهجاء هو نقيض المدح على نحو ما نجد عند قدامه ^(٦) وذهب (أبو هلال) إلى أن أبلغ الهجاء ما كان " بسلب الصفات المستحسنة التى تخص النفس من الحلم والعقل وما يجرى مجرى ذلك . وليس

^(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية تأليف الدكتور محمد حسين ص ١٤ - ١٥ .

^(٢) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ١٢ .

^(٣) طبقات فحول الشعراء ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

^(٤) نقد النثر ص ٨١ .

^(٥) ديوان المعانى ٢ / ٣١ .

^(٦) نقد الشعر ص ٣٥ .

الهجاء بقبح الوجه وضئولة الجسم وقصر القامة وما فى معنى ذلك بليغاً مرضباً^(١) أى أنه يفضل الهجاء الذى يزرى بأخلاق المهجو لا بخلقه .

والواقع أن فن الهجاء مر بمراحل تطور عديدة على مدى عصور الأدب وتغيرت مفاهيمه وأساليبه وصوره من عصر لآخر لاختلاف دوافعه وأسبابه ولتباين أذواق الناس من حقبة لأخرى ، ففى العصر الجاهلى كان هجاء الشعراء يدور فى معظمه حول الانتقاص من نسب المهجو والإزراء بمكانة القبيلة والصاق المخازى بها ، وكان الهجاء يضطلع بدور خطير فى المجتمع الجاهلى حيث كان للكلمة أو للشعر مكانة لا تقل عن مكانة السيف ، وجاء الإسلام فغض من الهجاء وحاربه لأنه يتعارض ومبادئه السمحة التى تنبذ التجريح والتشهير ، ويروى عن الرسول عليه السلام قوله : " من قال فى الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر " ^(٢) .

وقد أكد عمر - فى خلافته - موقف الإسلام من الهجاء حين نهى عن الهجاء المقذع الذى يقوم على الإفحاش وكشف العورات ، كما أمر بسجن الحطيئة عندما علم بهجائه للزبير قان بن بدر فى قصة ذائعة الصيت .

غير أن الهجاء ما لبث أن عاد بصورة قوية فى العصر الأموى بعد أن بعثت العصبية القبلية من جديد وتطور الهجاء الجاهلى إلى فن النقائض غير أنه لم يكن يراد بها الجد كما كان شأن الهجاء فى الجاهلية ، ولكن أريد بها اللهو والإضحاك ، كما كانت أشبه بمناظرات أدبية أوجدتها ظروف الحياة الاجتماعية والعقلية فى العصر الأموى أكثر من كونها أهاجى بالمعنى القديم المعروف فى الجاهلية ^(٣) .

(١) ديوان الممانى ١ / ٢٠٢ .

(٢) العمدة ٢ / ١٢٨ .

(٣) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٢٠٤ .

وطراً على فن الهجاء تطور كبير فى معانيه وأساليبه لدى شعراء النقائض الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل ، وإن تباينت أساليبهم فى تناول هذا الفن " فغلب على الأخطل فنه الشعرى الرصين الذى يعنى بالألفاظ ، ويدقق فى اختيار العبارات ، فكان فى هجائه يرضى فنه الشعرى الرفيع بأكثر مما يستجيب لغضبه ، وللغيظ الذى يأكل نفسه ، فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهماء ، ولكن رصانة ألفاظه ، وجزالتها ، وما تضمنته من معانى شعرية ، أضفت على هجائه كثيراً من الوقار الذى حرمة روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعنيه من الهجاء إلا النكتة المضحكة والسخرية البارة المسلية . وكذلك ظل الأخطل فى هجائه - كما هو فى كل شعره - شاعر خاصة كما يقول قدماء النقاد وأما جرير فقد غلب عليه مرحة ودعابته ، فكان مذهباً فى الهجاء قوله : (إذا هجوت فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس ، ولم يكن يتكلف فى شعره ما يتكلف أصحابه من العناء ، فكان هجاؤه أكثر ذيوماً على السنة العامة . أما الفرزدق فكان معنياً بفنه ، ولكنه لم يكن موهوباً كجرير ، ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدا ، حتى لقد وصفه النقاد بأنه ينحت من صخر " (١) .

وما إن نصل إلى القرن الثانى الهجرى حتى نرى " الهجاء قد تطور تطوراً كبيراً ، تطور فى معانيه وأهدافه وأسلوبه وألفاظه وصوره ، وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال ، وبين الارتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع الذى يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة ، تعتمد على فن أصيل وروح مرحة ضاحكة تترفع عن السب الرخيص والاتهامات الدنيئة ... وهذا التطور كان أمراً لا بد منه خضوعاً للعوامل المختلفة التى أثرت فى تطور المجتمع نفسه واختلاف معاييره وقيمه " (٢) .

(١) الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ص ١٣١ .

(٢) الشعر فى القرن الثانى الهجرى ص ٣١٦ .

والواقع أن التطور الفنى الحقيقى للهجاء بدأ فى القرن الثانى الهجرى كما لاحظ أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة ، وهذا التطور " لا يتضح فى القصائد الزاخرة بالسباب والاتهامات والفحش - وخاصة فى تلك الأهاجى التى كانت تدور بين أفراد عصابة العجان وتزخر بألفاظ وتعابير يندى لها الجبين ولكننا نعتبر أن التطور الفنى الذى حدث أساسه الهجاء الساخر الذى يستهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه ، ولهذا يعتمد على فن أصيل فى رسم شخصية المهجو من ناحية معنوية أو جسمية ، ولكنه ليس رسماً تصويرياً بل هو رسم (كاريكاتيرى) يبعث على الضحك ، ويستعين الشاعر فى هذا النوع الأصيل من الهجاء بكل معارف عصره ، وبجميع عناصر الفكاهة ، والهزل الشائعة بين الناس " (١) .

وهذا الهجاء (الكاريكاتيرى) الساخر هو الفن الذى نماه (ابن الرومى) بعد ذلك ، واعتمده كفن أصيل ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف فقال (٢) : إن الهجاء يعد من أهم الجوانب التى تلفت النظر فى شعر ابن الرومى فقد أعده مزاجه الحاد ، وقدرته البارة فى لمح الدقائق والعيوب الجسمانية لضرب من الهجاء يمكن أن نسميه " الهجاء الساخر " إذ كان يعبث بمهجويه عبثاً لا ذعاً يشبه عبث أصحاب (الصور الكاريكاتورية) ، فهو يقف عند نواحي الضعف ويكبرها ويظهرها فى أوسع صورة لها . وعلى نحو ما كان يلتقط العيوب الجسدية كان يلتقط العيوب الصوتية والمعنوية " .

وقد برع ابن الرومى فى هذا الضرب من الهجاء براعة كبيرة ، وشهر به حتى لقد أصبحت طريقته فى الهجاء نمطاً يحتذى كثير من الشعراء بمن فيهم شعراء الأندلس على نحو ما سيتضح فى حديثنا فيما بعد .

(١) المرجع السابق ص ٣١٣ .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢١٢ - ٢١٣ .

العوامل المؤثرة فى الهجاء الأندلسى :

وعلى نحو ما وجد الهجاء فى الشعر المشرقى ، وجد كذلك فى الشعر الأندلسى ، وقد رشحت لوجوده عوامل شتى ، نجملها فيما يلى :

العوامل السياسية :

إن المتتبع للأحداث التاريخية فى الأندلس يشعر أن الأندلسيين لم يقدر لهم الاستمتاع بحياة سياسية مستقرة ، " فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمينية " (١) .

دأخذت عوامل الضعف والانقسام تدب فى كيان المجتمع الأندلسى ، وفى أواخر حكم الأمويين ابتليت الأندلس بخلفاء ضعفاء ، وسرعان ما أضحت البلاد نهباً لفئنة عاتية قضت على الخلافة الأموية ، ومزقت وحدة الأندلس ، فانقسمت إلى دويلات يستأثر بكل واحدة منها حاكم أو أمير ، وأنفق أمراء الطوائف أموالاً طائلة فى تشييد الحصون لحماية ملكهم ، وانساقوا وراء مصالحهم الذاتية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن يدفعوا صاغرين الجزية للروم ، ودارت رحى الحرب فيما بينهم ، واستعانوا بالروم فى حل خلافاتهم ، بل إن بعضهم تحالف مع الروم ضد جيرانه من المسلمين ، وبعد أن دالت دولة الطوائف خضعت الأندلس لحكم الأفارقة . وأصبحت تابعة لا متبوعة ، وفى أواخر عصر الموحدين أخذت المدن الأندلسية تتهاوى فى يد الإسبان مدينة إثر أخرى ولم يبق سوى غرناطة وبعض الحصون التى ظلت تقاوم ردهاً من الزمن إلى أن سقطت فى آخر الأمر مؤذنة بأفول شمس الإسلام عن الأندلس .

ولد يقف شعراء الأندلس موقفاً سلبياً إزاء هذه الأحداث ، وإنما ارتفعت أصوتهم تندد بسياسة حكام الأندلس . وتنتقد تصرفاتهم . وتصمم بالخزى

(١) فى الأدب الأندلسى ، الركابى ، ص ١٤ .

والمهانة ، كما عبر الشعر عن الصراعات القبلية والدعاوى الشعبوية كما سنرى
فى حديثنا عن الهجاء السياسى .

العوامل الاجتماعية :

إذا قرأت ما نظمه الأندلسيون من أشعار فى الزهد والتصوف ، أو وقفت
على جهودهم فى الفقه والعلوم الدينية ، خيل إليك أن المجتمع الأندلسى
مجتمع زهد وتقى ، وإذا قرأت ما قالوه من شعر فى الخمر والغزل والمجون
ترأى لك أن الأندلسيين لم يعرفوا غير المجون واللهو ، وأنت فى كلا القولين
محق ، فقد اتصف الأندلسيون بالحدة والتطرف فى نظرتهم للأشياء فقد
وجدت بيئات الفقهاء والزهاد الذين كانوا يأخذون بالأشد فى كل حكم من
الأحكام المتصلة بأمور الدين ، كما وجدت معها بيئات أخرى مالت إلى
التساهل والتحرر فصار فيها المحظور مباحاً ، وأصبح غير المألوف مألوفاً ،
وأسرف كثير من الناس فى سلوكهم الاجتماعى ، وعاش بعضهم حياة لاهية
صاخبة وانساق كثير من الحكام وراء هذا التيار العابث ، فوصف أحدهم بأنه
كان " ينغمس فى لذاته ويقيم فى ذلك مصطبحاً ومغتبطاً " (١) ووصف آخر بأنه
كان " يركن إلى ملذاته ولا يعنيه شئ من أمور مملكته " (٢) وظهرت منابر كثيرة
فى المجتمع الأندلسى ، وفى " نفح الطيب " إشارات كثيرة إلى ضروب التحلل
والفساد ولا سيما ما كان يحدث فى وادى اشبيلية ، " فقد سعد هذا الوادى
بكونه لا يخلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير
منكر ، لانه عن ذلك ولا منتقد " (٣) .

وقد أفاض الشعراء فى وصف ما كان يدور فى مجالس الخمر من تهتك
وعبث ، وانتشر تيار المجون ، وكثرت عصب المجان من الشعراء الذين كانوا
يتحللون فى حياتهم من كل قيد ، فيرتكبون المآثم فى غير مواربة ، ويدعون

(١) روض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) نفسه ص ١٦٠ .

(٣) نفح الطيب ٢ / ص ٥ .

إلى اللذة والمجون جهراً ، وينادون بالزندقة ، ويدعون إلى اعتناق الخمر وتقديسها " (١) .

وتمتعت المرأة الأندلسية بحرية كبيرة حتى لقد لهجت بعض شوارع الأندلس مثل نزهون الغرناطية ، وولادة بأشعار فى الهجاء بالغة البذاءة والفحش . وكان من الطبيعى أن يفرخ الهجاء ويزدهر فى هذا المناخ الاجتماعى ، فكثر السباب والملاحاة وانتقاد بعض المظاهر الاجتماعية الفاسدة .

أثر البيئة المتحضرة :

قد يتوهم بعض الباحثين أن البيئة المتحضرة تعاف الهجاء وتمجه فلا تقوم له قائمة فيها ، وهذا - فى ظنى - رأى خاطئ ، فالتحضر يرقى بالعقول والأذهان والأذواق ، وكلما ارتقى العقل صار أكثر قدرة على لمح الدقائق والعيوب ، وجلبت أمامه أوجه الخلل والقصور . وقد تختلف طريقة تناول هذه العيوب من بيئة لأخرى ولكن الموضوع نفسه يظل ثابتاً ، فالشعراء الذين هاشوا فى بيئة بدوية خشنة يقتلون هجاؤهم بما طبعوا عليه من بدابة وغلظة . أما الشعراء الذين وجدوا فى بيئة متحضرة فهم يتناولون ما وقعت عليه أعينهم من نقائص وعيوب بصورة مغايرة تتميز بالسخرية والتهكم وتناسب الذوق المتحضر . وربما ساهمت البيئة المتحضرة فى تهيئة الجو الملائم للهجاء بما تنطوى عليه من تعقيد وعلاقات متشابكة وبما يشيع فيها من فراغ وجدة ، وهى - فى جملتها - أسباب تدعو إلى الهجاء وتحفز الشعراء إليه .

التكسب بالهجاء :

ومما أعان على شيوع الهجاء فى الأندلس وجود طبقة من الشعراء الذين احترفوا الهجاء واتخذوه وسيلة للكسب والارتزاق ، وقد وجد هؤلاء الشعراء رواجاً لبضاعتهن فى المجتمع الأندلسى . فقد ذكر المقرئ أن أهل الأندلس

(١) الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٢١٠ - ٢١١ .

” كان لهم فى الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد “ (١) .

ولم تكن الرهبة من الهجاء وقفاً على أهل الأندلس وحدهم ، بل تجاوزتهم إلى الحكام أنفسهم ، فمنهم من كان يتقرب إلى شعراء الهجاء ويداريهم خوفاً من حدة أسنتهم ، بل لقد لجأ بعضهم إلى حيل طريفة لصرف الشعراء عن الهجاء على نحو ما فعل إبراهيم بن حجاج حاكم اشبيلية مع الشاعر محمد بن يحيى القلقاط (ت ٣٠٢) ، إذ أمعن هذا الشاعر فى هجاء أهل بلده ، وأفحش فى ذكر كبرائها وعظماء دولتها ، وهجا إبراهيم بن حجاج نفسه لأنه لم يجزل له العطاء فقال :

أبغى نوال الأكرمين معاولا أبغى نوال البومة التكباء

وبلغت القصيدة مسامع ابن حجاج فغضب ولكنه احتال لصرفه عن الهجاء إذ دس إليه من يخبره بأنه سيرسل إليه من يأخذ رأسه على فراشه ، فخاف القلقاط على نفسه وكف عن الهجاء ، فحمد الناس لابن حجاج هذا التصرف لشدة ما كان يلحقهم من هجاء القلقاط (٢) .

وكان سراة القوم من الأندلسيين أشد الناس خوفاً من الهجاء وتذكر الروايات أنهم كانوا يمتلقون شعراء الهجاء ويخصونهم بالأموال والهدايا اتقاء لأسنتهم . ويمكن أن نعد الأعمى المخزومي (ت ٥٤١هـ) زعيم شعراء هذه الطبقة المتكسبة بالهجاء ، وقد وصفه الحجارى فى المسهب بأنه ” بشار الأندلس انطباعاً ولسناً وأداة ، وهو الذى أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمقت ، وكان لا يسلم من هجوه أحد ، ولا يزال يخطب الآفاق بعصاه ، ويقع فيمن أطاعه أو عصاه ، وأصله من المدور ، وقرأ بقرطبة ثم جال على البلدان وأكثر الإقامة فى

(١) نفح الطيب ١ / ١٩٠ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ١٩٣ .

غرناطة^(١) وقال عنه ابن الخطيب في الإحاطة ^(٢) " كان أعمى ، شديد القحة والشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً على الأعراض ، سريع الجواب ذكى الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً في ديوان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره " ووصف في (خريدة القصص) بالإجادة في الهجاء ، والإغارة على الأعراض ، والإصابة فيها إلى الأفراض ، وكان مهيب الصولة ، مرهوب الجولة ، مخصوصاً بالتحايا والتحف والهدايا والطرف " ^(٣) .

ومن أبرز شعراء هذه الطبقة أيضاً (على بن حزمون) أحد شعراء الهجاء في عصر الموحدين ، ويشير المراكشي إلى أن ابن حزمون نال عند قضاة المغرب وعماله جاهاً عظيماً وثروة ، كل ذلك خوفاً من لسانه ، وحذراً من هجائه ^(٤) . وكان لهذه الطبقة من الشعراء أثر في شيوع ضرب من الهجاء المقذع الصريح فهم لم يتورعوا عن شيء ، ولم يراعوا حرمة ولا ذمة ، ولم يبالوا بما تقذفه ألسنتهم من بذاءة وفحش .

نقاد الأندلس والهجاء :

سيطرت النزعة الخلقية والاتجاه المحافظ على النقد الأندلسي ، فخضع النقاد لهذه النزعة حين أبوا أن يدرجوا الموشحات في مؤلفاتهم وهي نبت بهشتهم ، ولبتكار قرائحهم ، كما نفروا من الهجاء ، فصانوا كتبهم عنه ، ولم يستجيزوا روايته مما حجب عنا كثيراً مما قيل فيه . وقد صدر ابن حزم في آرائه النقدية عن هذه النزعة فلم يستجز عن رواية الشعر إلا ما تضمن الحكم والخير مجدداً دعوة ابن قتيبة التي نادى بها من قبل ويرى ابن حزم أنه ينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

^(١) المغرب ١ / ٢٢٨

^(٢) الإحاطة ١ / ٤٣٢ .

^(٣) خريدة القصص ٢ / ٢٥٥

^(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

أحدها : الأغزال والرقيق . فإنها تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة وتحض على الفتوة ، وتصرف الناس إلى الخلاعة واللذات وتسهل الانهماك فى الشطارة والعشق وتنهى عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد فى الدين وتبذير المال فى الوجوه الذميمة وإخلات العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات ، ويرى أن سماع شعر رقيق ينتقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة ، لاسيما ما كان يعنى بالذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق . ويهون المعاصى . ويردى جملة ^(١).

والضرب الثانى : الأشعار المقولة فى التصعلك وذكر الحروب كشعر عنقرة وعروة بين الورد وسعد بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه الأشعار تثير النفوس ، وتهيج الطبيعة ، وتسهل على المرء موارد التلف فى غير حق وإلى خسارة الآخرة مع إثارة الفتنة وتهوين الجنايات والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

والضرب الثالث : أشعار التغرب وصفات المفاوز والبيد والمهامه ، فإنها تسهل التحول والتغرب ، وتنشئ المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .

والضرب الرابع : الهجاء ، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فإنه يهون على المرء الكون فى حالة أهل السفه من كناسى الحشوش والمعاناة لصناعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأميات . وفى هذا حلول الدمار فى الدنيا والآخرة .
وهناك ضربان من الشعر يعتبرهما ابن حزم من المباح المكروء وهما : المدح والرثاء .

^(١) رسائل بن حزم رسالة (مراتب العلوم) ص ٦٥ ٦٧ .

فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والمدوح ، وهذا يقتضى للراوى ذلك الشعر الرغبة فى مثل ذلك الحال ، وأما كراحتنا لهما فإن أكثر ما فى هذين النوعين من الكذب ولا خير فى الكذب ^(١) .

ولا يستغرب رأى ابن حزم فى الهجاء بالنظر إلى نظرتة لأغراض الشعر الأخرى ، فهو يخضع الشعر لمقياس خلقى صارم ، ويصدر فى أحكامه عن نزعة فقهية متشددة تزدرى الشعر وتناصبه العدا ولا ترى ما فيه من فن وجمال .

موقف ابن بسام :

وتحكمت هذه النزعة المحافظة فى نظرة ابن بسام للهجاء ، فهو يصرح بأنه صان كتابه عن شين الهجاء ، وأكبره أن يكون ميداناً للسفاه ^(٢) .

ويقسم ابن بسام الهجاء إلى قسمين :

" قسم يسمى (هجو الأشراف) ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ، ولا هجواً مستبشعاً ، وهو طأطأ قديماً من الأوائل ، وثل عرش القبائل ، إنما هو توبيخ وتعبير ، وتقديم وتأخير " ، ويمثل لهذا النوع من الهجاء بقول النجاشى فى هجاء بنى العجلان :

قبيا ته لا يغدرون بدمية	ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية	إذا صدر الورد عن كل منهل
وما سمي العجلان إلا لقولهم	خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

ومن أمثله هجاء الحطيثة للزبرقان بن بدر ، وهو قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

^(١) رسائل ابن حزم ص ٦٥ - ٦٧ .

^(٢) الدحيرة ١ / ١ ص ٥٤٤ .

أما القسم الثانى من الهجاء عند ابن بسام فهو " هجو السباب الذى أحدثه جرير وطبقته ، وكان يقول : إذا هجوتهم فأضحكوا " ، وهذا النوع هو الذى صنا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فإن أبا منصور الثعالبي كتب فى يقيمه ما شأنه وسمه ، وبقي عليه إثمه ^(١) .

ويفهم من كلام ابن بسام أنه يؤثر الهجاء الذى يميل إلى التعريض والتلميح بدليل أنه يورد أبياتاً يصفها بأنها " من مليح التعريض " كقول أحد الأندلسيين فى غلام كان يصحب رجلاً يسمى بالبعوضة ^(٢) :

أقول لشادتكم قولاً	ولكنها رمزة غامضة
للسزوم البعوض له دائماً	بدل على أنها حامضة

وهو يعجب أيضاً بقول القائل :

يبنى وبينك سر لا أبوح به الكل يعلمه والله غافره

وفى ظنى أن نظرة ابن بسام للهجاء لا تقوم على أساس دينى أو أخلاقى ، وما يقوى هذا الظن عندى قوله فى ترجمة ابن صارة الشنترينى : " ولقد رأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء تربى على حصى الدهناء ، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم ، طويت عليه كشحاً ، وأضربت عن ذكره صفحاً ، وربما ألمعت منه بالأقل ، لترى فتستدل ، ولو استجزت أن أثبت فى هذا الكتاب ، بعض ماله فى هذا الباب لتحققت أنه بالجملة بائقة محاجة ، وصاعقة مهاجمة وقد كتبت من ذلك فى كتابى المترجم " ذخيرة الذخيرة " جملة موفورة له ، ولطوائف كثيرة .. " ^(٣) .

وهذه العبارة الأخيرة توضح أن ابن بسام لم يلتزم بموقفه المتشدد من الهجاء إلا فى كتاب " الذخيرة " - وإن كان قد أخلّ أحياناً بهذا الالتزام فى بعض ما

^(١) الذخيرة ١ / ١ ٥٤٦

^(٢) المصدر نفسه ١ / ١ ص ٥٤٦ - ٥٤٧

^(٣) الذخيرة ٢ / ٢ ص ٨٣٥

ذكره من روايات وأشعار - ويمكن أن نرجع إقصاء الهجاء عن كتاب الذخيرة إلى عامل آخر يتمثل في " حرص ابن بسام على المواضع والعلاقات الاجتماعية وهو يؤرخ للأحياء من معاصريه ^(١) .

وكان " عبد الواحد المراكشي " ممن أقصوا الهجاء عن مؤلفاتهم ، وقد صرح برأيه هذا في ترجمته لابن حزمون فقال : " ولعلى بن حزمون هذا قدم في الآداب ، واتسع في أنواع الشعر ، .. وله مع هذا في الهجاء يد لا تطاول غير أنه يفحش في كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة ، ابتدأ فيها بهجو نفسه " ^(٢) ويعتقب على أبيات ابن حزمون بقوله " وله في هذا المعنى أحسن من هذا بكثير إلا أنه أقذع فيه ، فلذلك لم أودعه هذه الأوراق لأنى لا أستجيز أن ينتقل مثل هذا عنى " ^(٣) .

وقد ابتعد بعض الشعراء عن الهجاء تأثراً بهذه النزعة ، فصدق عنه ابن حمديس - لا عجزاً منه عن مزاولته - ولكن لأن السب ليس من شيمه ولأن الإسلام يأبى أن يجرح المسلم أخاه - ويتضح هذا في قوله : ^(٤)

يقولون لى : لا تجيد الهجاء	فقلت : ومالى أجيد المديح
فقالوا لأنك نرجو الثواب	وهذا القياس لعمري صحيح
فقلت : صفاتى ، فقالوا : حان	فقلت نسبي ، فقالوا : مليح
فقلت : إلسيكم ، فلى حجة	وللحق فيها مجال فسيح
عفاف اللسان مقال الجميل	وفسق اللسان مقال القبيح
ومالى ومالا مريء مسلم	بروح بسيف لسانى جريح

^(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - للدكتور إحسان عباس ص ١٠٠ .

^(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

^(٣) المصدر نفسه ص ٣٧٤ .

^(٤) ديوان ابن حمديس ص ٩٤ .

وقد التزم ابن حمديس بهذا المبدأ طوال حياته ، فلم يعرف عنه أنه هجا أحداً أو انزلق في معارك هجائية مع أحد ، بالرغم من أنه كان يتعرض للهجاء من قبل بعض الحاقدين ^(١) وقد أشار إلى ذلك فقال ^(٢) :

وما أنا ممن يرتضى الهجو خطه على أن بعض الناس أصبح يهجوني
ولو شئت يوماً لانتصرت بمقول يحيل على الأعراض حد السكاكين

ويتكرر موقف ابن حمديس من الهجاء عند الأعمى التطيلي كما في قوله ^(٣)

وساقط نال من عرضي فقلت له إليك عنى فليس السب من شيمى
أعرضت عنه ولو أنى عرضت له سقيته حمة الأفعى من الكلم

ويصدر الرصافي عن الموقف نفسه فيقول ^(٤) :

عفا الله عنى فإني امرؤ أتيت الصناعة من بابها
على أن عندي لمن هاجني كنائن عضت بنشابها
ولو كنت أرمى بها مسلماً لكان (السهيلي) أولى بها

غير أن هذه النزعة كانت محدودة ولذلك فهي لم تمنع من رواج شعر الهجاء ، كما أن العوامل التي أدت إلى ذبوع الهجاء كانت أقوى من هذه النزعة ، فالمجتمع الأندلسي - بتكوينه السياسي والاجتماعي والحضاري - كان مهياً لتقبل الهجاء ، وليس أدل على ذلك مما ذكره المراكشي من أن أهاجي ابن حزمون على ما فيها من إقذاع وفحش - كانت تحفظ وتدرس في جميع بلاد المغرب والأندلس ^(٥) ، وقد أشرنا من قبل إلى ما روى عن بعض شواعر الأندلس من هجاء مقذع ، ومن الطريف أن نجد الحكام أنفسهم

^(١) الشعر العربي في صقلية ص ٤٠٧ .

^(٢) ديوان ابن حمديس ص ٥١٥ .

^(٣) قلاند العقيان ص ٢٨٢ .

^(٤) قلاند العقيان ص ٢٨٢ .

^(٥) المعجب ص ٣٧٤ .

يشاركون فى الهجاء ، فتمة رواية تقول إن مجاهد العامرى كتب إلى المنصور
ابن أبى عامر رقعة لم يضمنها غير قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيثها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فرد عليه المنصور برقعة جاء فيها :

شتمت موالىها عبید نزار شيم العبيد شتيمة الأحرار^(١)

ويذكر المقرئ أن الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على امتحن الشعراء بهجو
وزيره أبى جعفر بن عطية^(٢) .

(١) المغرب ١ / ٣٣٢ .

(٢) نفح الطيب ٥ / ١٨٦ .

الباب الثاني

(اتجاهات الهجاء الأندلسي)

درج النقد على تقسيم الهجاء تقسيمات مختلفة وإن كانت تنحصر في ثلاثة موضوعات هي الهجاء السياسى والهجاء الاجتماعى والهجاء الشخصى . ولكن هذا التقسيم قد يضيق أو يتسع تبعاً لظروف كل عصر من العصور ، فالهجاء الجاهلى كان ينحصر فى هجاء الأشخاص والقبائل ، ثم اتسعت موضوعات الهجاء بعد ذلك فأصبحت تشمل الأفراد والجماعات والأخلاق والمذاهب ، وتطرق الهجاء إلى كل أمر من أمور الحياة ، حتى ليقول الجاحظ وهو محق فى ذلك - " إن الشعراء يهجون بكل شيء ، ويهجون كل شيء " ^(١) وعبرة الجاحظ تصدق كل الصدق على الهجاء الأندلسى ، فقد اتسعت مجالاته ، وتعددت اتجاهاته ، فوجد الهجاء السياسى ، والهجاء الاجتماعى وهجاء أصحاب الوظائف الرسمية ، وهجاء العلماء وأصحاب المهن ، وهجاء المدن ، وهجاء التطرف والسخرية ، كما نشبت بين الشعراء معارك هجائية .

وسنؤثر كل موضوع من هذه الموضوعات بفصل مستقل .

^(١) الحيوان ١ / ٢٥٦

الفصل الأول

الهجاء السياسى

- هجاء الملوك والحكام
- الهجاء القبلى
- هجاء البربر
- هجاء اليهود
- هجاء الشعوبية

الهجاء السياسى هو كل ما يتصل بشئون الحكم وأمور السياسة ، وفيه يصدر الشاعر عن عصبية للوطن أو الإقليم أو القبيلة أو الحزب أو الدين .
والشاعر - فى هذا اللون من الهجاء - " يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس بشخصيته إلا فى حدود هذه المجموعة التى يرتبط مصيره بها كل الارتباط ، فهو يفنى فيها وجوده ، ويتجرد من نزعاته وأهوائه ، ليحس بإحساسهم ، ويرى بأعينهم ، ف شخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة ، لا تكاد تحس لها أثراً ، والدولة أو الوطن شئ حى له وجود قوى وكيان ظاهر وملموس ^(١) " .

وقد جاء الهجاء السياسى فى الشعر الجاهلى ولكن بمفهوم ضيق إذ انحصر فى تصوير ما شجر بين القبائل من خلافات ومنازعات ، فاقصر على لون واحد من ألوان الهجاء السياسى هو " الهجاء القبلى " ولم يتجاوز هذا اللون إذ " لم يكن الوطن عند الجاهليين يصور حدوداً جغرافية معينة كما نتصور اليوم من هذه الكلمة ولكنه يصور جماعة من الناس تربطهم أواصر النسب ، فكان الوطن هو العصبية " ^(٢) .

واتسع مفهوم الهجاء السياسى بعد العصر الجاهلى بتطور الظروف السياسية وتعددت ألوانه ، فبرزت فيه عصبية الوطن والتعصب للدين أو الجنس ، واتجه جانب منه إلى تصوير الميول الحزبية ، وانصب بعضه على نقد سياسة الملوك والحكام .

(وباستقراء ما خلفه الأندلسيون من شعر فى الهجاء يتضح أن الهجاء السياسى هو أكثر اتجاهات الهجاء رواجاً . وذلك نتيجة للعوامل السياسية التى أشرنا إليها من قبل ، وقد تباينت صور الهجاء السياسى فى الأندلس ، وتوزعت بين هجاء الملوك والحكام ، والهجاء القبلى ، وهجاء الشعبوية . وهجاء البربر والروم واليهود .

^(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ١١٤ .

^(٢) المرجع السابق ص ١١٤ .

هجاء الملوك والحكام :

راج هذا اللون من الهجاء فى الأندلس بصورة كبيرة وذلك لأسباب كثيرة من أهمها تقلب الأحوال السياسية واضطرابها ، واستبداد بعض الحكام بالسلطة وإهمالهم شئون الرعية ، وتقاعسهم عن الجهاد ، ومن هذه الأسباب أيضاً ما يرد إلى عوامل ذاتية أو شخصية تتمثل فى فساد العلاقة بين الشاعر والحاكم كأن يبعده الحاكم عن دائرة اهتمامه أو يضمن عليه بالعطاء .

ونلاحظ أن أغلب قصائد هذا الضرب من الهجاء لا تنسب إلى قائل بعينه وذلك لخشية الشعراء من بطش الحكام ، وتحفل مصادر الأدب بروايات تشير إلى مواقف بعض الحكام الصارمة إزاء شعراء الهجاء ، حتى أن بعضهم كان يأخذ الشعراء بالمظنة والشبهة ، كما فعل المستنصر المروانى مع ابن فرج الجيانى - صاحب كتاب الحقائق - وكان ابن فرج صديقاً للمستنصر وقريباً منه ، وألف له كتاب " الحقائق " ومع هذا فقد رفع له أنه هجاه ، فسجنه حتى مات فى سجنه ^(١) كما تذكر الروايات أن هشاماً المؤيد قطع لسان انشاعر أبى المخش عاصم بن زايد لأنه كان جسوراً على الأعراض ^(٢) وكان يوسف بن هارون الرمادى (ت ٤٠٣ هـ) أحد الشعراء الذين تعرضوا لضرر الحكام وبطشهم ، فقد اتهم فى أيام الحكم مع جماعة من الشعراء بشعر قيل فى ذم السلطان ، ومنه هذا البيت :

يولى ويعزل من يومه فلا ذا يتم ولا ذا يتم

ويقول ابن خاقان ^(٣) : " وشاعت عنه أشعار فى دولة الخليفة وأهلها . سدد إليهم صائبات نبلها . وسقاهم كؤوس مهلها ، أو غرت عليه الصدور

^(١) المغرب ٢ / ٥٦ .

^(٢) نفسه ٢ / ١٢٣ .

^(٣) مثنى الأنفس ص ٧٢ .

وفغرت عليه المنايا ، ولكن لم يساعدها المقدور ، فسجنه الخليفة دهرأً وأسلكه من النكبات وعراً " .

ويوضح ابن حيان فى المقتبس قصة الإيقاع بالرمادى ونفر من رفاقه فيقوا فى حوادث سنة ٣٦١هـ : " وفى يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخر منها أوقع صاحب المدينة بالزهرأ محمد بن أفلح عن عهد الخليفة بالعصب البطراء من أهل قرطبة ، المستخفين بالطاعة ، العاملين بذرب الألسنة أنبههم عيسى بن قرمان الملقب بالزبرأكة ، الكاتب الشاعر ، ومؤنس الكاتب مولى الأـ المنذر بن الناصر ، وأحمد بن الأسعد الملقب بصدام الكاتب ، وجماعة إليهم رموا بالاستخفاف والتعطيل والغمص للخليفة والوقوف فى أعراض الناس ونش مثالبهم ، فى أشعار يجتمعون على صوغها ، ويتبارون فيها ، فرأى أميد المؤمنين دفع أذاهم وقطع مضرتهم بنفيهم من الأرض وإيداعهم السجن والإبلا فى إهانتهم جزاء بما كسبت أيديهم ومازورت ألسنتهم ، فكان ممن ألسر الطلب له والبحث عنه من مستخفيهم يوسف بن هارون البطليوسى الشاء المعروف بأبى جنيش زعيمهم ، غاب مدة والطالب له حثيث ، والنداء عليه متصل ، فلما أيقن أن البقاع لا تليقه ، والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعب مستبسلاً لحتفه ، فأقبل مغيراً طلعتة ، شاداً حيازيمه ، واضعاً لبدأً له فؤؤ رأسه كيما يتوطأه فى السجن فلم يؤبه له حتى انتهى إلى باب السجر بالزهرأ... " (١) .

ويذكر صاحب المعجب أن الرمادى نكب مرة أخرى فى خلافة المنصور ابر أبى عامر ، لأن الرمادى - كما زعم - كان مشايعاً للمصحفى وأغراه هذ بهجاء المنصور ، فلما حدثت نكبة المصحفى ، واستصفيت أمواله ، التفد المنصور إلى الرمادى وأوسعه عقوبة ونكالا ، وأمر بتغريبه ثم شفع له عنده فقبل الشفاعة فيه ولكنه أمر الناس ألا يكلموه ، وطاف بذلك مناد فى جميع جهات

(١) المقتبس ص ٧٢ وما بعدها (ط . بيروت)

قرطبة ، فأقام الرمادى كالميت إلى أن توفى فى أواخر حكم المنصور بن أبى عامر ^(١) .

وهذه الروايات صادقة الدلالة على ما كان يلقاه الشعراء من عنت الحكام وقسوتهم مما دفع كثيراً منهم إلى إخفاء أسمائهم خشية ورهبة " ولا شك أن صدور شعر الهجاء الموجه للسلطة من أناس مجهولين ، يجعلنا نقرر مطمئنين ، وجود المعارضة ، وهذه المعارضة لا تتمكن من إبداء آرائها ، فهى تتخفى وتتستر وتسلك سبلاً مختلفة لإظهار وجهة نظرها تجاه الحكومة ، فقد تستغل ما يحدث بين الملك وأحد وزرائه من خلاف أو فتور لتنطق بهجاء الملك ، والتشهير بالحكم والحكام .. وقد تلتصق أهاجيتها بأحد الشعراء البعيدين عن سطوة الحكم ، أو تترك أهاجيتها من غير قائل معين " ^(٢)

ومهما يكن من أمر ، فإن تشدد الحكام مع شعراء الهجاء لم يؤد إلى تكميم أفواههم أو إسكات ألسنتهم عن المجاهرة بمساوئهم ومطالبهم ، ، فعبروا عن ضيقهم بهم ، وكشفوا عن أوجه الفساد فى سياستهم ، وتحدثوا عن انغماسهم فى الترف والملذات ، وتشبثهم بكرسى الخلافة على حساب مصالح الرعية وتظاهرهم بالنسك والورع ، وتضليل عقول الناس ، وإيثارهم الخمول والدعة ، والتخلى عن أداء الجهاد ، ولم يخل عصر من عصور الأندلس من شعراء يهاجمون سياسة الحكم وينتقدون تصرفاتهم ، فكان الهجاء السياسى " من الموضوعات الشعرية التى برزت فى فترة الحجابة ، وقد كان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع السياسى فى نظر كثير من الأندلسيين ، حيث يوجد خليفة شرعى معطل ، وإلى جانبه مستبد مسيطر ، هذا إلى جانب نفوذ أم الخليفة المسماة (صبح) ، ووصول المنصور عن طريقها إلى كثير مما أراد ، ووضع كهذا

^(١) المعجب ص ٢٠ - ٢١ .

^(٢) الشرفى ظل بنى عباد ص ٢٠١ .

من شأنه أن يثير بعض الشعراء ، وينطقهم بما يعبر عن سخط الساخطين وتبرؤ المتبرمين ^(١) .

ونجد أحد الشعراء المجهولين يصم دولة المنصور بن أبى عامر كلها بالفساد ويقذف المنصور نفسه بأفظع التهم فيقول : ^(٢)

اقترب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب فى مكتب وأمه جلى وقاض ^(٣)

والشاعر فى هذا الهجاء الموجه يعنى بالخليفة (هشاماً المؤيد) لأنه كان صغير السن آنذاك ، ويعرض بأمه (صبح البشكنسية) وكان الأعداء يتهمون بها المنصور ، ولم ينج القاضى من لسان الشاعر ، فرماه هو الآخر بهذه التهمة الشنيعة .

ويشير المقرئ إلى بعض تصرفات المنصور بن أبى عامر التى أثارت النقد والسخط فيذكر أن المنصور حجر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ول الحجابة ، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً ، وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهم ، ويأمر أن ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى المؤيد إلى موضع تنزهه ثم يعود ، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة فى بعض الأيام لغرض له ، وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بنى أمية من الأندلس ، وأخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفاً أن يثوروا به ، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ثم فرق باقيهم فى البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد ، وربما سكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة : ^(٤)

^(١) الأدب الأندلسى . من الفتح إلى سقوط الخلافة تأليف الدكتور أحمد هيكى ص ٢١٢ .

^(٢) نفح الطيب ١ / ٦٠٢ ، البيان المغرب ٢ / ٤١٨ .

^(٣) حددنا هذه الكلمة لقبها وهى واضحة من السياق والقافية .

^(٤) نفح الطيب ١ / ٥٩١ .

أبني أمية ابن أقمار الدجى منكم؟ وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غايها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ويشير ابن عذارى إلى ما جرت عليه سياسة بعض ملوك بنى أمية من سوء وفساد فينقل عن ابن حيان قوله عن المستعين بالله : " كان ملكه بقرطبة وغيرها أولاً وآخرأ ست سنين وعشرة أيام كلها شداد نكرات كريهات المبدأ والفتاحة لم يعدم فيها حيف ولا أمن فيها خوف لتغير السيرة واشتعال الفتنة . دولة كفاها ذماً أن أنشأها شانجة ووزرها دب فتمخضت عن الفاقة الكبرى " ^(١) ويصف ابن عذارى هشام بن عبد الجبار بأبشع الصفات فيذكر أنه أظهر من الخلاعة والضعف ما لم يظهره أحد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ، واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب ، واشترى له صقلبي كان يتعشقه عند ابن الزيات العطار ، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية أبى القاسم المصرى الخيالى ، التى يقال لها (بستان) وامرأة ابن الشرح التى اسمها (واجد) ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المتهتكين فيها ، فكان هذا من أسباب القيام عليه وإشعال الفتنة لديه ، ولم يزل طول مدته مشتهراً بالفسق ، مظهراً للخلاعة ، لا يفيق من سكر، ولا يرع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهى ، حتى قال بعضهم فيه : ^(٢)

أمير الناس سخنة كل عين يبيت الليل بين مخنثين
يجشم ذا ويلثم خد هذا ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولوا خلافتهم سفيهاً ضعيف العقل شيناً غير زين
وقيل فيه أيضاً : ^(٣)

أشام خلق على العباد والناس من حاضر وباد
أبو الوليد الذى اقشعرت لنحسه شعرة البلاد

^(١) البيان المغرب ص ١١٨ .

^(٢) البيان المغرب ص ٧٩ - ٨٠ .

^(٣) نفسه ص ٨٠ .

كان على قومه جميعاً مزار عاد لقوم عاد

ويفهم من كلام ابن عذارى أن هشاماً كان أكثر ملوك بني أمية عرضة لهجاء الشعراء وانتقادهم لتصرفاته فيعقب على الأبيات السابقة بقوله :
" وقيل فيه كثير من هذا يطول الكتاب به " (١) .

وفى عصر الطوائف لم يضعف هذا اللون من الهجاء خلافاً لما يراه " غرسيه غومس " إذ يظن أن استبداد طواغيت الحكام بالناس أيام الطوائف أدى إلى زوال هذه الفن (٢) . وقد مال إلى هذا الرأي أيضاً الدكتور إحسان عباس فرأى أن صوت النقد الموجه ضد الحكام لم يكن قوياً جهيراً في أيام الطوائف (٣) وكرر الرأي نفسه فى موضع آخر فقال (٤) : " وقد نقدر أن حرية التعبير فى عصر الطوائف كانت ضيقة الحدود ، وأن الخوف ألجم الناقمين والمتذمرين عن الإفصاح بما كانوا يحسونه " .

وفى تقديرى أن اختلال الأحوال السياسية كان من أكبر العوامل التى وجهت الشعراء إلى هجاء ملوك الطوائف ، فقد غضب الشعراء لما أصاب الأندلس من تمزق ، ولما رأوه من تنازع الحكام وانصرافهم عن مصالح الرعية وانشغالهم بإرضاء أهوائهم وإشباع غرائزهم ونزواتهم ، فكان الشعر لهم بالمرصاد ، يفصح تصرفاتهم ويكشف زيفهم وخداعهم ، ومما يدل على رواج الهجاء السياسى فى عصر الطوائف - أن أحداً من الحكام لم يسلم من هجاء الشعراء حتى بنى عباد حكام اشبيلية الذين عرفوا بالفضل وتشجيع الأدب فقد قيل فى ذمهم شعر كثير ، غير أن هذا لا يعنى أن كل ما صوب إلى ملوك الطوائف من أسهم الهجاء كان لدوافع سياسية أو لأسباب تتصل بالعصبية للوطن أو للدين ، فهناك جانب من هجاء الشعراء للحكام قيل لدوافع ذاتية ،

(١) البيان المغرب ص ٨٠ .

(٢) الشعر الأندلسى ص ٦١ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤٩ .

كان يخيب رجاء الشاعر في عطائهم فينقلب عليهم من المدح إلى الهجاء كقول
أبي الحسن جعفر بن إبراهيم اللوردي الذي ارتحل إلى اشبيلية للظفر بعتاء بنى
عباد ولكنه لم يظفر منهم بطائل فهاهم بقوله ^(١) :

تعز عن الدنيا ومعروف أهلها إذا عدم المعروف في آل عباد
حللت بهم ضيفاً ثلاثة أشهر بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

ومن هذا الضرب قول الحصري يعرض بهم عندما أرسل غلامه - وهو في
طنجة - يبنى عطاء المعتمد فلم يجبه : ^(٢)

نـبـه الـركـب الـهـجـوعـا ولم الدهر الفجوعا
حمـص الجـنـة قـالـت لغـامـسـى لا رجوعا
رحـم الله غـلامـى مات فى الجنة جوعا

ويعرض ابن شرف بالمعتضد بن عباد ، ويندد بما قيل عن بطشه بكثير من
وزرائه وندمائته حتى لقد خاف أن يفد إليه لئلا يتعرض لما تعرض له غيره من
مصير مؤلم فيقول في أسلوب لاذع ^(٣) :

أإن تصيدت غيرى صيد طائفة أوسعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبنتى فرصة أخرى ظفرت بها هيهات ما كل حين تمكن الفرص
لك الموالد للقصاد مترعة تروى وتشبع لكن بعدها غصص
ولست أعجب من قوم بها انتشبا لكنما عجبى من معشر خلصوا
ولم يطب قط لى من لا يلد ولا سلوى إذا كان فى عقابهما مغص

ولم يقف الشعراء فى هجائهم لبنى عباد عند هذا الجانب من هجائهم بل
أكثرُوا من ذمهم ونقد سياستهم ووصفهم بالجور والطغيان ويبدو أن المعتضد كان
أكثر بنى عباد تعرضاً لهجاء الشعراء ، فهو لم يسلم من هجائهم حتى بعد

^١ نفح الطيب ٢٢٦ / ٤ .

^(٢) وفيات الأعيان ٢٠ / ٣ .

^(٣) الدخيرة ١٤٢ / ١ / ٤ .

وفاته على نحو ما نجد في قول ابن زيدون يعبر عن شماتته عندما نعاه الناعى
ويصفه بالطاغية ، فيقول : ^(١)

لقد سرنا أن السنى موكل بطاغية قد حم منه حمام
تجانف صوب الغيث عن ذلك الصدى ومر عليه البرق وهو جهام

ومما ينسب إلى ابن رشيق قوله في هجاء بنى عباد : ^(٢)

مما يزهدنى فى أرض أندلس تلقىب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

ولم يسلم المعتمد من هجاء الشعراء برغم ما عرف عنه من صفات طيبة وثمة
رواية - إن صحت - فهي بالغة الدلالة على حساسية المعتمد تجاه الهجاء ،
فقد ذكر المقرئ نقلاً عن الحجارى أن يوسف بن تاشفين أهدى المعتمد جارية
مغنية قد نشأت بالعدوة وجاء بها إلى إشبيلية ، فخرج إلى قصر الزاهر على نهر
إشبيلية وقعد على الراح ، فخطر لها أن غنت - عندما انتشى - هذه
الآبيات :

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ولووا عما نهمهم على الأعمار
وتقلدوا يوم الوغى هندية أمضى - إذا انتضيت - من الأقدار
إن خوفوك لقبى كل كربة أو أمنوك حللت دار قرار

وتقول الرواية أن المعتمد عندما سمع أبيات الجارية وقع فى قلبه أنها
عرضت بساداتها فلم يملك غضبه ورمى بها فى النهر فهلكت ^(٣) .

ويذكر ابن بسام أنه نسب إلى ابن عمار شعر كثير فيه قدح فى المعتمد وآله
وذويه وعياله ، منه هذه القصيدة التى عرض فيها بأمر بنيه المعروفة بالرميكية ،
وفيها يقول : ^(٤)

^(١) ديوان ابن زيدون ص ٥٩٢ .

^(٢) اشمال الاعلام (ط . بيروت) . ص ١٤٤ .

^(٣) نفح العليب ٤ / ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

^(٤) ديوان ابن عمار ص ٢٩١ .

ألا حى بالغرب حياً حالاً
وعرج بسيومين أم القرى
لتسأل عن ساكنيها الرماد
أيافارس الخيل يازيدها
أراك توري بحب النساء ،
تخيرتها من بنات الهجان
فجاءت بكل قصير العذار
بصفر الوجوه كان استها
قصار القدود ولكنهم
أتذكر أيامنا فى الصبا
أعانق منك القضيبي الرطيب
واقنع منك بدون الحرام
سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً

أناخوا جمالا وحازوا جمالا
ونم فعسى أن تسراها خيالا
ولم تر للنار فيها اشتعالا
حميت الحمى وأبحت العيالا
وقدماً عهدتك تهوى الرجالا
رمكية ما تساوى عقالا
لنيم النجارين عملاً وخالا
رماهم فجاءوا حيارى كسالى
أقاموا عليها قروناً طوالا
وأنت إذا لحت كنت الهلالا
وأرشف من فيك ماء زلالا
فتقسم جهدك أن لا حالاً
وأهتك سترك حالاً فحالاً

ويقول صاحب الخريدة إن هذه القصيدة كانت من أقوى الأسباب التى جعلت المعتمد يأمر بقتل ابن عمار ^(١) ولكن أحد الباحثين يتشكك فى نسبتها ابن عمار الذى كان له حساد ومنافسون كثيرون لا يستبعد صدورها عنهم ، ويرجح أن تكون هذه الأبيات " نظمت بتحريض من ابن عبد العزيز أمير بلنسية وعدو ابن عمار اللدود الذى هجاه ابن عمار قبل هذا " ويبنى تشككه أيضاً على " أن الأفكار والمعانى التى تقوم عليها القصيدة من فحش بذيء ، وإقذاع مقرز ، وتشهير شنيع ، لا تسمح بنسبتها إليه ، مهما تصاعد الحقد والكراهية بينهما ، بالإضافة إلى عدم انسجامها مع أفكاره ومعانيه ، لأنه حتى فى هجائه لابن عبد العزيز وهو من أشد أعدائه لم يقذع ، ولم يصل إلى ما وصل إليه فى هجائه لصديقه الحميم المعتمد من إسفاف وانحطاط " ^(٢)

^١ حريدة القصر ٧١ / ٢ .

نشر فى مثل بى تباد ص ١٩٩ - ٢٠٠

وفى رأى أن الفهم الدقيق لشخصية ابن عمار يؤكد نسبة هذه القصيدة إليه ، فقد عاش هذا الشاعر فى مجتمع يخضع للمصالح والأهواء " وفى هذا الجو المتقلب المتموج ، برزت شخصية الرجل القلق المغامر الذى يتجول من بلد إلى بلد عارضاً مهارته على من يقدرها حق قدرها ، يستوى فى هذا مختلف ذوى المهارات المطلوبة من جندى وكاتب وشاعر ومعماري وصاحب أى حرفة أخرى ، ولم يكن اختلاف الدين حاجزاً فى هذه الأمور ، فكان السيد القنبيطور يخدم المصلحة ، فتارة يحارب من أجل أمير مسلم ، وتارة من أجل أمير نصرانى ، ولما سقطت طليطلة فى يد النصارى حلق الفقيه أبو القاسم بن الخياط وسط رأسه وشد الزنار وأخذ يعمل كاتباً عند الأذفونش ^(١) وأنموذج هذه الشخصية من الجانب الإسلامى - فى مقابل القنبيطور - شخصية الشاعر ابن عمار ؛ فقد نشأ فقيراً محروماً ، ولكنه كان مشرباً بالطموح ، انتهازياً . مكياً فيلياً ، مستعداً لأن يركب إلى غايته كل واسطة ، مؤمناً بالصدقة بمقدار ما تبلغ أهدافه " ^(٢) .

ويكاد الدارسون لابن عمار يتفقون على ما عهد فيه من طباع أقرب إلى التدنى . يقول باحث آخر ^(٣) " كان ابن عمار وصولياً - إذا صح التعبير - مع أخلص أصدقائه ، فقد خان المعتمد صديقه وولى نعمته ، واستغل ضعف ابن طاهر ، رغم ما بينهما من علاقات وثيقة ليوقع به ، كما لم يسلم من لسان السليط ، أمير بلنسية ، عبد العزيز بن أبى عامر ، والمعتصم بن صمادح أمير دانية الذى كانت تربطه بالشاعر أوثق الصلات " .

وفى إطار هذا الفهم لطبيعة ابن عمار تبدو نسبة هذه القصيدة إليه أمر طبيعياً ، وحتى إذا كانت هذه القصيدة محل شك - وهو ما لا نميل إليه

^(١) المغرب ٢ / ٢٢ .

^(٢) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٤ .

^(٣) محمد بن عمار الأندلسى تأليف الدكتور صلاح خالص ص ٨١ .

فماذا نقول فيما ذكره ابن بسام من أن لابن عمار شعراً كثيراً نسب إليه في ذم
المعتمد وآله وبنيه ؟

وعلى أية حال ، فلم يكن بنو عباد هم وحدهم المستهدفين لأهاجي ابن
عمار ، فقد هجا أيضاً بنى عبد العزيز أمراء بلنسية في عصر الطوائف ، ويقول
ابن بسام ^(١) : " وكانت حال ابن عمار ، حين تردد بتلك الأقطار من بلد بنى
هود ، قد تمكن منهم بالمؤتمن ، إلا أن بنى عبد العزيز كانوا يشرقونه بريقه ،
ويوعرون عليه السهل من طريقه ، ويبلغه عنهم ما تتوقد له ضلوعه ، وتنسكب
منه دموعه ، بلغه عنه - يعنى ابن عبد العزيز - وعن ابن طاهر أنهما ندرا
فيه بسبب خاتمين كان المؤتمن ختمه بأحدهما ، والآخر أذفونش ابن فرذلند ،
فكتب ابن عمار إلى ابن عبد العزيز : ^(٢)

قال للوزير وليس رأى وزير	أن يتبع التندير بالتندير
إن الوزارة مدبست رداءها	وقف على التغيير والتزوير
وأرى الفكاهة جل ما تأتي به	رحمك في التعجيز والتصدير
بلغت دعابتك التي أهديتها	في خاتم التامين والتامير
وأظنها للظاهري ، فإن تكن	فجديرة التقديس والتطهير
فرسا رهان أنتما فتجاريا	بالقول في التقديم والتأخير
وإذا سلكت سبيله فحقيقة	كى يتبع التصغير بالتصغير
وأرى بلنسية وأنت قدارها	سينالها التدمير من تدمير

وكان ابن عمار شديد التنقص للوزير أبى بكر أحمد بن محمد بن عبد
العزيز ، أمير بلنسية ، وأكثر من هجائه وهجاء أسرته ، فمن ذلك قوله يغرى
أهل بلنسية بهم ^(٣) :

^(١) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٤١٠ .

^(٢) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٤١٠ .

^(٣) نفسه ١ / ٢ / ص ٤١١ - ٤١٢ ، الحلة السراء ٢ / ص ١٥٥ .

أن قد تدلت في سواء النار
جسروا إليكم أسوأ الأقدار
ملكاً يقوم على العدو بئار
وكلاهما أهل لتلك الدار
عن سوءة سوى وعار عار
ودهاة خذلان من الأنصار
وقضى على الإقبال بالإدبار
فرماكم من طاهر بقدار

بشر بلنسية وكانت جنة
جازوا بني عبد العزيز فإنهم
ثوروا بهم متأولين وقلدوا
هذا محمد أو فهذا أحمد
جاء الوزير بها يكشف ذيله
وأوى لينصر من بنا المثنوى به
نكت اليمين وحاد عن سنن التقى
ما كنتم إلا كأمة صالح

وعلى نحو ما هجى بنو عباد ، وبنو عبد العزيز ، هجى أيضاً غيرهم من
أمرء الطوائف ، فقال عبد الملك بن حصن يهجو المأمون بن ذى النون : ^(١)

لآمن كلباً حيث لست مؤمنه
وأما الندى فاندب هنالك مدفنه
بحجابه للقاصدين معنونه

تلقبت بالمأمون ظلماً وإننى
حرام عليه أن يجود ببشره
سطور المخازى دون أبواب قصره

ويتألق المنفلت فى هجائه لصاحب (لبلة) مصوراً إياه تصويراً مزريه
فيقول : ^(٢)

واذكر به خدام نار جهنم
كالكلب أسقط شعره لعق الدم

إن ابن يحيى ضحكة فتوسم
أكل الخبيث فشعره متساقط

ويسخط ابن عبدون على الملوك جميعاً لأسباب ذاتية تتعلق بإهمالهم ل
وعدم الاكتراث به عندما عرض عليهم بضاعته ، يقول : ^(٣)

سوى ذا الحظ من أيدي الزماع
ووجه الموت محذور القناع
كما مرق الهلال من الشعاع
خبيراً فاقض حق الإستماع

ساطلب لا بالسنة اليراع
وأخبط بالسرى ورق الدياجي
وأمرق من أساير المواضى
فسلنى عن ملوك الأرض تسال

^(١) نفح الطيب ٣ / ٣٦٣ .

^(٢) الدخيرة ١ / ٢ ص ٧٦١ .

^(٣) الدخيرة ٢ / ٢ ص ٧١٢ - ٧١٣ .

عرضت عليهم نفسى ونفسى
فما اتبعوا دليلاً فى اجتنابى
كأعضاء بها ألم فقلب
ومن عصب إذا سنلت حراكاً
ويمنى لا تجود على شمال
وعين لا تغمض عن قبيح
فما أبقوا ولا هموا ببقيا
فلوسقت السماء الشرى أربا
فبعثتهم بتاتاً لا بثناً
ولم أجعل قرابى غير بيتى

لأوضح غبنهم عند البيع
ولا سلكوا سبيلاً فى اصطناعى
على ضمد ورأس فى صداع
شكت بسكونها نحل النخاع
ولا تصفى المودة للذراع
وأذن لا تألم من قذاع
ونقل الطبع ليس بمستطاع
لما احلوت مراعى لراع
ولا شرط ولا درك ارتجاع
فحسبى ما تقدم من قراع

ولعل أجمل ألوان الهجاء هو ما يتجاوز فيه الشاعر رغباته ومصالحه الذاتية إلى أحاسيس الناس عامة ، فيصور مشاعر الغضب والسخط التى تختلج فى نفوسهم إزاء حاكم خائن أو ملك ظالم مستبد ، وكلما مال الشاعر إلى التعمية والتعميم كان هجاؤه أوقع وأقرب إلى الخلود ، فمن ذلك هذه الأبيات لأحد الشعراء ينحى فيها باللائمة على أولئك الحكام الذين عميت أبصارهم ، وافتقدوا الحزم فى تدبير شئونهم ، وتصاغروا أمام أعدائهم ، وقد نظمها صاحبها بعد خراب قرطبة ، وفيها يقول : ^(١)

أضعتم الحزم فى تدبير أمركم
فلورأيتم بعين الفكر حالكم
لكن سبل العمى أعمت بصائركم
يا أمة هتكت مستور سوءتها
فى سورة الحشر آيات مفصلة
نعم وفى الكهف فى العشرين خاتمة
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت

ستعلمون معاً عقبى البوار غدا
بكيتم بدم إن دمتم بددا
فالبستكم ثياباً للبلى جددا
ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا
فى شأنكم أنزلت لم تعدكم عددا
تقضى عليكم بأن لا تفلحوا أبدا
جميعكم محنة لا تنقضى أبدا

^(١) البيان المنرب ص ١١٠ .

ويعد (السميسر) أحد الشعراء الذين يمثلون هذا الاتجاه تمثيلاً صادقاً واسمه خلف بن فرج . من أعلام شعراء البيرة . وهو من أبرز شعراء الهجاء في الأندلس عامة . قال عنه ابن بسام : " كان باقة عصره . وأعجوبة دهره ، له طبع حسن ، وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات ، وخاصة إذا هجا وقـدح .. وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح في أهل عصره " ^(١) ووصفه المقرئ بأنه " كان كثير الهجاء " ، وذكر أنه ألف كتاباً سماه (شفاء الأمراض في أخذ الأغراض) ^(٢) .

والظاهرة التي نلاحظها في هجاء السميسر أنه ليس هجاء فردياً يعبر عن عن حقد ذاتي أو يستهدف تحقيق منفعة خاصة ، ولكنه هجاء " تعميمي المنزع يدل على قلق وعدم ارتياح لبعض ما يراه من أوضاع " ^(٣) ، فهو لا يوجه هجاءه إلى حاكم بعينه ، وإنما يهاجم ملوك الطوائف عامة ، معبراً عن تسخطه وتسخط الناس جميعاً إزاء أولئك الحكام الذين شغلوا عن مصالح المسلمين بالجرى وراء مصالحهم الخاصة ، وأصبح اهتمام كل واحد منهم موزعاً بين شراب يعكف عليه ، وجارية يتعشقها ، وقينة يلذع لسماع صوتها ، وحرب يشنها على جيرانه ، وتخاذل أولئك الملوك أمام أعداء الإسلام ، وتقاعسوا عن أداء فريضة الجهاد ، فسقطت طليطلة ، وتهاوت القلاع والحصون ، وانحسر المد الإسلامي عن بعض بقاع الأندلس ، ويرتفع صوت السميسر الشاعر الغاضب داعياً إلى الثورة على أولئك الحكام المتخاذلين الذين شقوا عصا طاعة النبي وأصابوا الإسلام في صميمه ، يقول : ^(٤)

نَادِ الْمُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ	مَاذَا الْعَدَى أَحْدَثَتْ
أَسْلَمْتُمْ الْإِسْلَامَ فِى	أَسْرَ الْعَدَى وَقَعْدَتْ

^(١) الذخيرة ٢ / ١ ص ٨٨٢ - ٨٨٣ .

^(٢) نفع الغيب ١٠٨ / ٤ .

^(٣) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٤١ .

^(٤) الذخيرة ٢ / ١ ص ٨٨٥ .

وجب القيام عليكم
لا تسنكروا شق العصا
إذ بالنصارى فمستم
فصصا النبي شسققتم

وفى أبيات أخرى يتهم السميسر أولئك الحكام بالخيانة ، ويشير إلى
تضاؤل مكانتهم ، واهتزاز صورهم فى أعين الناس ^(١) .

خنتم فهنتم فكم أهنتم
فأنتم تحت كل تحت
زمان كنتم بلا عيون
وأنتم دون كل دون
سكنتم يا رياح عاد
وكل ريح إلى سكون

ويكثر السميسر من توجيه انتقاداته اللاذعة إلى أمراء الطوائف ، ملوحاً بما
ينتظرهم من مصير مؤلم ، كقوله : ^(٢)

رجوناكم فما أنصفتمونا
سنصبر والزمان له انقلاب
وأملناكم فخذلستمونا
وأنتم بالإشارة تفهمونا
ويقول أيضاً : ^(٣)

وليتم فما أحسنتم مدوليتم
وكنتم سماء لا ينال منالها
ولا صنتم عمن يصونكم عرضا
فصرتم لدى من لا يسائلكم أرضا
ستسترجع الأيام ما أقرضتكم
ألا إنها تسترجع الدين والقرضا

وما نقرؤه من هجاء السميسر يدل على أنه كان من أكثر شعراء الأندلس
غيرة على الوطن الأندلسى ، فهو يصدر فى هجائه عن دافع وطنى أصيل ،
ويتعدى هجاؤه النظرة الذاتية أو الإقليمية إلى وجهات أعم وأشمل ، وأشد ما
كان يؤلم السميسر أن يرى بعض حكام زمانه يصانعون أعداء الإسلام ، وتشير
إحدى الروايات إلى موقف للسميسر اتسم بالجرأة والجسارة إزاء (باديس
ابن حبوس) أمير غرناطة عندما استوزر وزيراً يهودياً ، ولما هلك استوزر بعده

^١ نفح العليب ٤ / ص ١٨٠ .

^٢ الذخيرة ١ / ١ / ٣٧٨ .

^٣ نفح العليب ٤ / ١٠٨ .

وزيراً نصرانياً فنظم السميسر أبياتاً كتب بها نسخاً عدة ورمهاها في شوارع البلد والطرق وسار من ساعته إلى المرية معتصماً بالمعتصم ابن صمادح ، وطارت الأبيات في أقطار الأندلس ، ولما وقف عليها باديس أرسل وراءه أصحاب الخيل فقاتهم ولم يلحقوه ، يقول السميسر في هذه الأبيات : ^(١)

صاحب غرناطة سفيه	وأعلم الناس بالأمور
صانع أذفونش والنصاري	فانظر إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافا	لطاوعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاهاً	كأنه دودة الحريـر
دعوه يبني فسوف يدري	إذا أتت دورة القديـر

إن السميسر في اتجاهه هذا يذكرنا بالشاعر الإنجليزي (Pope) الذي تصور الهجاء تصوراً حسناً حين قال : ^(٢)

استمعوا إلى هذا وارعدوا أيها الهاربون من القانون
فلن يستطيع الأغنياء والمخادعون من النبلاء ما دبت في الحياة
أن يقطعوا حياتهم إلى القبر في ثقة واطمئنان
للفضيلة وحدها ولأصدقائها أناساً صديق
ما أبالي ضج الناس من حولي ساخطين ، أو ثنوا مادحين

لقد لفت السميسر بمقطعاته الهجائية اللاذعة أنظار بعض الباحثين فرأى أحدهم أنه يعد أكثر شعراء عصر ملوك الطوائف جرأة وجسارة ، وأنه عبر بحق عن ضمير الأمة ، وكان صوته الغاضب هو صوت الشعب بأسره ^(٣) ويقول عنه الدكتور الطاهر مكي " وله من زمنه موقف رافض حين رأى اختلال القيم . وزهوة الباطل ، وغلبة الصغار . وعجزه عن التغيير . فأدار ظهره لكل ما حوله ، وجاء شعره رافضاً بكل ما تعنيه الكلمة في عصرنا الحديث ، سخر مما

^(١) معجم السفر للسلفي (مخطوط) الورقة ٢٦٥ .

^(٢) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ١٢ .

^(٣) مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني عشر - العدد الأول . مقال للطرابسي أحمد أعراب بعنوان (الأصوات العالية والإنهزامية في الشعر الأندلسي) ص ١٣٥ .

يعظم الناس ، وهجا من يمدحون ، واحتقر ما يحبرون ، وجاء هجوه لهم
مفحشاً ، ونقده قاسياً ، فأهمله المؤرخون خوفاً ممن هجاهم .. كان داعية ثوره
حين استطاب الناس المتع واللذة ، وخلدوا إلى الدعة والراحة وآثروا الأمن
والسلامة^(١).

ويرى الدكتور إحسان عباس أن مقطعات السميسر فى الهجاء تشبه أن
تكون نوعاً مما يسمى فى اللاتينية " الإبجرام " *Epigram* اللاذع المستدير
سواء أقصد بها قصد الهجاء العام أو التعبير عن نظرة فلسفية^(٢).

ولم يكن هجاء السميسر لأمر الطوائف يمثل موقفاً فردياً ، ولكنه كان
تجسيداً لموقف عام صدر عنه كثير من شعراء الأندلس ، وإن كان السميسر يعد
أبرزهم تمثيلاً لهذا الموقف - فهناك شعراء آخرون شاركوا السميسر ثورته على
أمراء الطوائف المتخاذلين ، فانطلقوا يتوعدونهم ، ويلوحون بتخاذلهم
وخيانتهم للمسلمين ولاسيما بعد سقوط طليطلة بسبب مصانعة أولئك الأمراء
للمنصارى واتفاقهم فيما بينهم على التخاذل وإيثار القعود ، وتواطئهم على خطة
زائفة عجلت بسقوط هذه المدينة العظيمة ، وإلى ذلك يشير أحد الشعراء
بقوله :^(٣)

وقيل تجمعوا لفراق شكل	طلـيطلة تملكها الكفور
فقل فى خطة فيها صغار	يشيب لكربها الطفل الصغير
لقد صم السميع فلم يعول	على نبا كما عمى البصير

وحين سقط ملوك الطوائف تشفى فيهم الشعراء ، وارتفعت أصواتهم معبرة
عن أحاسيس الشماتة إزاء أولئك الملوك الذين طالما استمروا أو الفساد . وشغلوا
أنفسهم بالقصف واللهو والغناء عن الجهاد ، ولم يفكروا فيما ينتظرهم من نهاية

^(١) دراسة أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ص ٧٤ .

^(٢) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٢٩ .

^(٣) نفتح العليب ٦ / ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

أليمة ، ويعبر أبو الحسن بن الجند عن هذه المعاني مصوراً ملوك الطوائف
تصويراً مزرياً ، فيقول ^(١)

نلقاه أو يلتقانا به خبر	فى كل يوم غريب فيه معتبر
دوائر السوء لا تبقى ولا تدر	أرى الملوك أصابتهم باندلسي
هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا	ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر
يحدو به ملهياه : الناي والوتر	وكيف يشعر من فى كفه قدح
فما تمر به الآيات والصور	صمت مسامعه فى غير نعمته
له خوار ولكن حشوه خور	تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه

وعندما جاء المرابطون لم يتعاطف معهم الأندلسيون ، ونظروا إليهم على اعتبار أنهم دخلاء اقتحموا بلادهم واستمتعوا بخيراتهما ، وخلق حكمهم الأندلس أوضاعاً جديدة أثارت غضب الأندلسيين وتمثلت هذه الأوضاع فى استئثار المرابطين بالوظائف والمناصب الهامة ، وافتئاتهم على السكان ، وتمتعهم بنفوذ خاص ، حتى بات من العسير أن يحاسب المرابطى فى عمله ، أو ينكر عليه شىء فى الخطة التى وليها ^(٢) . كما اشترط المرابطون أن كل من يلثم يجب أن يكون صنهاجياً أو لتونياً أو لمطياً ، أما من هم من الحشم والعبيد فإنهم حين يلثمون يهيبون على الناس ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام وهماً ^(٣) . واضطربت أحوال الأندلس فى أواخر حكم المرابطين ، وأشار إلى ذلك المراكشى فقال ^(٤) : " فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا فى أعينهم . واجترأ عليهم العدو " .

^(١) أعمال الاعلام ص ٢٤١ .

^(٢) ثلاث رسائل أندلسية فى الحبة لابن عبدون التجيبى ص ١٦ .

^(٣) نفسه ص ٢٨ .

^(٤) المعجب ص ٢٧٧ .

يضاف إلى بواعث هجاء المرابطين باعث آخر على جانب كبير من الأهمية ،
ونعنى به موقف المرابطين من الشعر ، فقد تقهقرت مكانة الشاعر فى عهدهم "
وأصبح التصريح بكساد الشعر أشد وأوضح - ذلك أن الشاعر حتى فى أسمى ما
غدا يستطيع بلوغه من مكانه لم يعد فى طوقه منافسة رجل السيف (وهو من
الملثمين) والفقيه والكاتب ، ولعل الأعمى التطيلي قد عبر فى بعض لحظات
الإحساس بالتعاسة عن هذا المعنى بأجلى عبارة حين قال " إن قال مالك " قد
طردت " قام زيد " أى أن الفقه قد أبعد الأدب واللغة ، وأصبحت الكلمة العليا
للفقهاء ^(١) يقول التطيلي معبراً عن هذه الأحاسيس : ^(٢)

أيأرحمتا للشعر أقوت ربوعه	على أنها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثلث عروشهم	فلا الفخر مختال ولا العز نامك
إذا ابتدر الناس الحظوظ وأشرفت	مطالب قوم وهى سود حوالك
رأيتهم لو كان عندك مدفع	كما كسدت خلف الرئال التراك
فيأدولة الضيم أجملى أو تجاملى	فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
وبا " قام زيد " أعرضى أو تعارضى	فقد حال من دون المنى " قال مالك "

ويعبر ابن بقی عن هذا الإحساس بالخمول وضالة الشأن مصرحاً بكساد
العلم والشعر فى دولة المرابطين فيقول : ^(٣)

أقمت فيكم على الإقتار والعدم	لو كنت حراً أبى النفس لم أقم
فلا حديقتم يجنى لها ثمر	ولا سماؤكم تسهلُ بسالديم
أنا امرؤ إن نبت بى أرض أندلس	جنت العراق فقامت بى على قدم
ما العيش بالعلم إلا حيلة ضعفت	وحرفة وكلت بالقعدد البرم

وقد اشتهر بهجاء المرابطين شاعران هما ابن سهل اليكى والأبيض . أما
اليكى فقد حمل عليهم حملة شديدة ، فوصفهم بالدناءة والخسة . ورماهم
بأبشع الصفات كقوله : ^(٤)

^(١) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين - ص ٩٠ .

^(٢) المرجع السابق ص ٩٠ .

^(٣) نصح الغلب ٤ / ٤١٠ .

^(٤) المعرب ٢ - ٢٦٧ .

لوانه يعلو على كيان	فى كل من ربط اللثام دناءة
من بطن زانية لظهر حصان	ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا
وضعوا القرون مواضع التيجان	المنتمون لحمير لكنهم
واطلب شعاع النار فى الغدران	لا تطلبين مرابطاً ذا عفة

وفى قصيدة أخرى يعرض اليكى ببخل المرابطين ويتندر باستخدامهم اللثام فيرى أنهم اضطروا إلى ذلك لإخفاء وجوههم مما يرتكبون من أفعال قبيحة ^(١) .

لكنه بعـياله يستكرم	إن المرابط ياخذ بنواله
بأنه فهو من أجله يتلثم	الوجه منه مخلوق بقبيح ما

ويصفهم اليكى بالجبن ويعرض بهم فيقول : ^(٢)

حتى تراه إذا تراه جباناً	إن المرابط لا يكون مرابطاً
لجلائه إذ يلتقى الأقراناً	تجلو الرعية من مخافة جوره
يجنى الرجال فناخذ النسواناً	إن تظلمونا نتصف لنفوسنا

ويهاجم أحد حكام المرابطين واصفاً إياه بالعجز عن تسيير دفة الحكم وبالضعف فى مواجهة الثوار والمنشقين فيقول : ^(٣)

وما أنت للملك بالسائس	على حمى الملك من ساسة
وقد جاءك النحاس من بادس	من السوس أصبحت تخش النفاق

أما أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى المعروف بالأبيض ، فقد وقف هجاء على الزبير بن عمر اللمتونى أمير قرطبة وغرناطة على عهد المرابطين ، وولع بهجائه حسبما يقول ابن سعيد ^(٤) ويبدو أن عداً الأبيض لهذا الأمير كان ناجماً عن بعض التصرفات السلوكية التى لم تعجبه فى شخصه فهو يتهمه

^(١) نفح الخليب ٢٠٥ / ٣ . ٢٠٦ .

^(٢) المغرب ٢ / ٢٦٨ .

^(٣) نفسه ٢ / ٢٦٨ .

^(٤) المغرب ٢ / ١٢٧ .

بالغى والعكوف على اللهو والانهماك فى الخلعة والمجون ، كما يبدو فى قوله : ^(١)

عكف الزبير على الضلالة جاهداً	ووزيره المشهور كلب النار
مازال يأخذ سجدة فى سجدة	بين القيان ونغمة الأوتار
فإذا اعتراه السهو سبح خلفه	صوت القيان ورنه المزمار

وتتكرر هذه المعانى فى قصيدة أخرى مشيراً إلى أن انغماسه فى الخمر والقصف أضاع الجيش وأودى ببيت المال ^(٢)

يا سائلى عن زبير أين مسكنه	هيهات تطلب شمساً ما لها وضح
لا تطلبين زبيراً فى مساكنه	واسأل عرابة عنه حين يصطحب
نشوان يكرع فى فرج وفى قدح	والملك تحت لبان العود مطرح
يا ضيعة الجيش لن يبقى لهم سبد	أودى السماع ببيت المال والقدح

ويقول أيضاً فى هجائه : ^(٣)

أما زبير فقد أودى باندلس	ما كان من حرمة فيها وصدى
وصده عن قراع الدارعين بها	قزع القواكير أفواه الأباريق

ويفحش الأبيض فى هجائه للزبير مركزاً على عيب خلقى فيه إذ كان مصاباً بالبرص ، فيقول : ^(٤)

قالوا الزبير مبرص فأجبتهم	لا تعدلوه ، فداؤه من عنده
رضعت مباعره الأيور فأكثرت	حتى بدا وسم المنى بجلده

وهذه الصورة القاتمة التى رسمها الأبيض للزبير تتعارض مع صورته فى نظر المؤرخين ، فصاحب الإحاطة يصفه بأنه " ندرة الزمان كريماً وبسالة وحزماً

^(١) نفع الطيب ٣ / ٤٨٩ .

^(٢) حريدة القصر ٢ / ٢٥٩ .

راد المسافر ص ١١٢ .

^(٣) نسد ص ١١٢ .

وأصالة " ^(١) وتشير إحدى الروايات إلى مشاركته فى المعارك حتى قيل إنه قتل فى إحدى هذه المعارك سنة ٥٣٧هـ فى موضع يقال له " وادى الدروع " . ^(٢) ونستبعد إرجاع هجاء الأبيض للزبير إلى الدوافع المادية لأن ثمة رواية يعزو فيها الأبيض هجاءه إلى ما رآه فى شخص الزبير من تصرفات شائنة ، فيقال إن الزبير لما بلغه هجاء الأبيض له أمر بإحضاره ، فقرعه ، وقال : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنى لم أر أحق بالهجو منك ، ولو علمت ما أنت عليه من المخازى لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلها إلى أحد ، فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته وأمر بقتله ^(٣) .

وهذه الرواية تنفى الدافع المادى أو المصلحة الذاتية وإن ظل التناقض قائماً بين رأى الأبيض فى الزبير ورأى المؤرخين الآخرين فيه .

وقد شارك النثر فى هجاء المرابطين ، ويحتفظ المراكشى بجزء من رسالة لأبى مروان بن أبى الخصال يذم فيها المرابطين لتقاعسهم عن قتال الأعداء فمن ذلك قوله : " أى بنى اللثيمة وأعيار الهزيمة ، إلام يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ، فليت لكم بارتباط الخيول ، ضأناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونظهر الجزيرة من رحضائكم " ^(٤) .

وإذا تركنا عصر المرابطين إلى عصر الموحدين ، فإن أكثر الظواهر وضوحاً هى خضوع الهجاء السياسى للتوجيه الرسمى ، فالخليفة عبد المؤمن بن على يمتحن شعراءه بهجاء أحد الوزراء عندما أمر بسجنه ^(٥) ، وعندما ثار المأمون الموحدى على فكرة الإمامة التى قامت عليها الدولة ، وسخر من دعوة المهدي

(١) الإحاطة ١ / ٤٥٠ .

(٢) خريدة القصر ٢ / ٢٥٩ .

(٣) نفح الطيب ٣ / ٤٩٠ .

(٤) المعجب ص ١١٤ .

(٥) نفح الطيب ٥ / ١٨٦ .

ابن تومرت المؤسس الروحي للدولة ، الذى زعم أنه المهدي الذى يملأ الأرض
قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، نجد بعض الشعراء يسخرون من هذه
الدعوة وينكرونها ويعرضون بصاحبها خضوعاً لرغبة المأمون مع أنهم طالما
امتدحوا المهدي وأشادوا بدعوته حين كان الخلفاء السابقون يميلون إلى ذلك ،
فمن أمثلة التعريض بالمهدي ودعوته قول أحد الشعراء : ^(١)

وجد النبوة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثالها
فأسر حسوا في ارتقاء يستغنى بمحاله نسجاً على منوالها

وعندما نشبت الفتن بين أمراء البيت الموحدى فى أواخر خلافة الموحدين
اتجه كل منهم إلى تكليف من يشايه من الشعراء بهجاء منافسيه ، ففي الفتنة
التي تشبت بين المأمون وأخيه يحيى الناصر انقسم الشعراء فريقين ، فانضم
فريق منهم إلى جانب المأمون ، وانحاز الفريق الآخر إلى جانب يحيى الناصر
ودارت معركة هجائية بين الطرفين ، وعندما نظم أحد شعراء المشايعين للمأمون
قصيدة يؤيد فيها بيعته ويعرض بأخيه أمر يحيى شعراءه أن يردوا عليها ، فرد
عليها ابن الصفار بقصيدة يعرض فيها بالمأمون الذى صانع النصارى واستعان
بهم فى حربه ضد أخيه ، وفيها يقول : ^(٢)

يحيى خليفة رب العالمين ومن يجهله يعلمه حظ السمر والقضب
نال الخلافة عن خبر وعن خبر محقق وبإرث عن أخ وأب
لم ينتصر بالنصارى والبغاة على مطهرين من الأدناس والريب

وعلى هذا النحو خضع شعراء الموحدين فى هجائهم لتوجيه الحكام ، ولم
نسمع فى ذلك العصر أصواتاً غاضبة تهاجم أمراء الموحدين وتندد بسياستهم
على النحو الذى رأيناه فى عصر المرابطين ، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى
اختلاف طبيعة حكم المرابطين عن الموحدين ، فبينما ضيق المرابطون على

^(١) أزهار الرياض ٢ / ٣٢٩ .

^(٢) البيان المغرب ٣ / ٢٦٢ (ط . قطوان) .

الشعراء وأهملوا قدرهم ، جاء الموحدون فأعلوا منزلتهم ، وتنافسوا فى تقريبهم ، وكان يهتزون للشعر ويثيبن عليه ^(١) وظهر من بينهم شعراء مثل الأمير أبى الربيع سليمان بن عبد المؤمن ، وفى ولايته جمع حوله أهل الأدب ، وكان جواداً لمن يتعلق به بأدنى سبب يجب رعيه . ^(٢) فانتفت بذلك البواعث المادية التى حفزت بعض الشعراء إلى هجاء الحكام ومن جهة أخرى ، فإن الروايات التاريخية تشير إلى أن الموحدين " كانوا يبذلون اهتماماً كبيراً بالأندلس باعتباره دار جهاد ، ولذلك فلعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن المجتمع الأندلسي تمتع فى هذا العصر إلى حد ما بالاستقرار والأمن ، ونستطيع أن نرى فى الرسائل الموحدية الرسمية شيئاً من هذا الاهتمام فكانت الكتب تنفذ بانتظام إلى ولاية الأندلس ، وفيها يوصى الخلفاء بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وألا يقضى الولاة فى أحكام القتل من تلقاء أنفسهم إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل وكذلك فى سائر المعاملات والأموال ، فلا يبت فى أمرها إلا بعد التثبت والمطالعة ، وتعرف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة ^(٣) وتشير رواية أخرى إلى أن أحد خلفاء الموحدين انتصر لأحد الشعراء على بعض عماله ، فمن الطبيعي إذاً أن ينكمش هجاء الحكام فى عصر الموحدين .

وقد تضائل هجاء الملوك والحكام أيضاً فى العصر الغرناطى وذلك بسبب الظروف التى طرأت على الأندلس ولاسيما بعد أن تساقطت المدن الأندلسية خلا غرناطة وبعض الحصون ، وشغل الأندلسيون بالتأقلم مع هذه الأوضاع الجديدة ، ولم يعد المناخ مهياً لاستمرار هذا اللون من الهجاء .

(١) المعجب ص ٢٩٣ .

(٢) النصوص الهائلة ص ١٣١ .

(٣) الشعر الأندلسي فى عصر الموحدين ص ٤١ .

الهجاء القبلي :

كان العنصر العربي الذي استقر في الأندلس بعد الفتح ينتمي إلى قبائل عربية عديدة ، وانتشر النازحون من هذه القبائل في شتى بقاع الأندلس ، فاستقرت لخم في الجزيرة الخضراء وإشبيلية وكان منهم بنو عباد ، وأقام بنو صخر من غطفان بناحية قرمونة ، وبنو مرة بالبيرة ، وبنو منذر بن الحارث من ثقيف بهاجة ، وبنو عقيل بجيان ووادي آش ، وختعم وهمدان بالبيرة وعنس بجهة قلعة يحصب ، وخولان بقرطبة ، والمعافر ببليسية وجيان وجذام بشذونة وتدمير ، وهوازن بالقرب من إشبيلية ، وبلى في شمال قرطبة ، وبنو عذرة بجيان وسرقسطة .^(١)

وانتقلت العصبية القبلية إلى الأندلس مع طلائع العرب الفاتحين الذين وفدوا من المشرق ، وظهر النزاع من جديد بين القيسية واليمينية .

يقول لين بول *Lane - Poole* " ما كادت موجات الفتوحات العربية تهدأ ويستقر سلطان المسلمين بالأندلس حتى تيقظت فيهم روح العصبية القبلية عاتية مدمرة مما أسلم البلاد إلى طوفان من الفوضى والانحلال " ^(٢) وبلغت هذه العصبية ذروتها في عصر الولاة ، وكان كل وال يتعصب لبنى جلدته ، فحين تولى أبو الخطار الحكم انحاز لقومه اليمينيين ضد القيسيين لاسيما وقد كانت له ترات قديمة " منها أنه كان هو ذاته ضحية ظلمهم في إفريقية ومنها قتلهم واحداً من أعظم رجال قبيلته في الأندلس وهو سعيد بن حواس .^(٣)

وقد أغلظ الخطار في معاملة القيسية لاسيما بعد مقتل ابن حواس الذي يقول عنه .^(٤)

فليت ابن حواس يخبر أننى سعت به سعى امرئ غير غافل

^(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيطرة قرطبة ص ١٤ .

^(٢) The Moors in Spain By Stanly Lann - Pool, 51, London, 1920 .

^(٣) تاريخ مسلمي أسبانيا - الحرب الأهلية - ص ١٦٨ .

^(٤) تاريخ مسلمي أسبانيا ص ١٦٨ .

قتلت به تسعين يحسب أنهم جدوع نخيل صرعت بالمسائل

وأمن الخطار في إهانة القيسيين حتى لقد طرد الصميل بن حاتم أحد شيوخ القيسية من قصره فانصرف الصميل غاضباً وغادر القصر ماثلاً العمامة فلقيه رجل عند الباب فسأله " يا أبا جوشن ما بال عمامتك مائلة " فأجابه الشيخ القيسى : " إن كان لي قوم فسيقيمونها " ^(١)

وجمعت القيسية جموعها بعد أن تحالفت مع الجذاميين واللخميين وتقابلوا مع الكلبيين في " وادي لكة " سنة ١٢٧هـ وانتهت المعركة بهزيمة الكلبيين ووقوع ابن الخطار في الأسر . ^(٢)

ودارت رحى الحرب مرة أخرى بين الفريقين حين حاول الكلبيون الثأر من القيسية وأمروا عليهم يحيى بن حريث الذي كان يكره الشاميين كرهاً شديداً وكان يقول " لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها حتى الثمالة " ولكن الكلبيين منوا بالهزيمة مرة أخرى ، وقال الصميل ليحيى بن حريث معرضاً به - وقد سيق إلى الموت بعد هزيمته : " يا ابن السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربه ؟ ! " ^(٣)

وظلت العصبية القبلية محتدمة في الأندلس حتى جاء عبد الرحمن الداخل فانتهج سياسة جديدة للقضاء على هذه العصبية وذلك بالإكثار من شراء عبيد وإلحاقهم بديوان الجند ، كما جلب من إفريقية أعداداً كبيرة من البربر .

ومن هذا العرض يتضح أن العصبية القبلية لم تشتعل إلا في العصور الأولى في الأندلس ثم خمدت بعد ذلك لانصهار عناصر السكان من العرب في بوتقة

^(١) تاريخ مسلمي أسبانيا ص ١٦٨ .

^(٢) نفس ص ١٧٢ .

^(٣) أخبار مجموعة ص ٥٩ - ٦٠ .

واحدة ولظهور الإحساس بالانتماء إلى الوطن الأندلس ، وتأصل النزعة الأندلسية الأصلية في نفوس الأندلسيين .

و برغم ندرة شعر الهجاء الذى يصور هذه العصبية القبلية إلا أن هذا لا يمنع من افتراض ازدهار الهجاء القبلى فى تلك العصور الأولى ، لا سيما وأن الروايات تشير إلى أن كل شيخ من شيوخ العرب فى الأندلس كان له شاعره الخاص ^(١) . كما كان بعض شيوخ العرب وقادتهم ينظمون الشعر ، وثمة رواية تقول إن الصميل نظم قصيدة يعبر فيها عن غضبه من اليمنيين ورغبته فى الانتقام منهم ولكن لم يصلنا منها غير هذا البيت : ^(٢)

ألا إن مالى عند طى ودبعة ولا بد يوماً أن ترد الودائع

واشتهر بالهجاء القبلى فى عهد الولاة أبو الأجرى جعونة بن الصمة الكلابى وكان من الطارئين الأوائل ، كما كان فارساً شجاعاً ، ولم يكن يقيم فى مكان معين وإنما كان ينتقل فى النواحي ويحل أكناف قرطبة ، وقد هجا الصميل بن حاتم القيسى ، ويشير ابن حزم إلى أن منزلته فى الهجاء لم تقل عن منزلة جرير والفردق . ^(٣)

ويعكس الهجاء القبلى بعض الصراعات والفتن التى احتدمت من أجل الاستئثار بالحكم أو الخلافة ، وفى عهد المستنصر بالله خرج حسن بن قنون القرشى عن الدعوة ، وزعم بأحقية فى الخلافة لانتسابه لقريش ، وقد هجاه محمد بن شخيص شاعر المستنصر فقال : ^(٤)

حقها وهو من قريش نقى	كيف يرجى بأن يوفى قريشاً
حسنى وليته حسنى	قدمته الطغام أن قال جدى
حسن الفاضل السقى الرضى	فيرى فى أمية ما رآه

^(١) تاريخ مسلمى أسبانيا ص ١٦٩ .

^(٢) تاريخ الفتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٢ .

^(٣) تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة - ص ٤٤ .

^(٤) المقتبس ، (تحقيق عبد الرحمن حجي) ص ٨٥ .

كما هجاه وأشيعه بقصيدة أخرى قال فيها : ^(١)

عصابة تدعى فى هاشم نسباً	وما يصح لها فى معشر نسب
عمى البصائر لم يسلس معاففها	إلى مساعى التقى دين ولا حسب
وزادها فى عماها أن أولها	ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب
نشت مع الوحش فى دهماء ليس لها	فى غير حسو الحسى رأى ولا أرب
ولو غدت من قریش فى ذوائبها	لأوجبت نفيها الأحداث والريب
وكل ملتهب يطفأ وشرهم	من بعد عثمان يطفأ ثم يلهب
إذا غدا حسن فى الآل من حسن	رأساً فياليت شعرى أيما الدنب

وهذه الأمثلة التى عرضناها تشير إلى أن الهجاء القبلى كان قريب الشبه من الهجاء المشرقى فى معانيه وأساليبه وصوره .

^(١) نفد ص ١٥٩ ١٦٠

هجرة البربر :

كان البربر يشكلون عنصراً رئيسياً من عناصر السكان في الأندلس بعد أن شاركوا مشاركة فعلية في فتح الأندلس ، بل إن الحملة الأولى كانت مؤلفة من البربر فقط كما يذكر ليفي بروفنسال ^(١) ، ولم يدخل العنصر العربي الأندلس إلا عندما قدم إليها موسى بن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية ^(٢) . ولكن البربر أخذوا يتدفقون من المغرب نحو جزيرة الأندلس في موجات كبيرة حتى صاروا يشكلون طبقة كبيرة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن عبد الرحمن الداخل استقدم أعداداً كبيرة من البربر لتثبيت دعائم ملكه وإخضاع العناصر العربية المتصارعة ، غير أن وجود البربر بجانب العرب في الأندلس أدى إلى نشوب فتن كثيرة بين الفريقين لاسيما في عصر الولاة ، وكان كل فريق يؤمن بأحقية في السيادة على الأندلس ، فالبربر يفخرون بأن طارق ابن زياد فاتح الأندلس ينتمي إلى جنسهم ، ويتباهون بأن الفتح لم يتحقق إلا على أيديهم بينما يؤمن العرب بأنهم هم الفاتحون الحقيقيون للأندلس .

وكانت الفتن بين العرب والبربر تهدأ أحيانا ثم تعود للظهور من جديد واستفحل خطر البربر في فترات كثيرة ، حتى لقد وجدت بيئات بربرية بأكملها ، ففي عصر ملوك الطوائف استأثر البربر بحكم غرناطة فتحوّلت في عهد بني زيري (٤٠٣ هـ - ٤٨٣ هـ) إلى جزيرة بربرية تطوّقها بحار من العداوة العربية على حد تعبير جارثيا جومث ^(٣) .

ولم يترك ملوك البربر الذين حكموا غرناطة أثراً طيباً في نفوس المؤرخين أو الأدباء ، فهم " لم يشيدوا ، فيما يبدو ، غير سور متين ، لا يزال باقياً حتى أيامنا هذه كهيكل عظمى للمدينة ، وآثروا أن يكسوا الأموال التي استولى

^(١) Levi - Provençal : Histoire de l'Espagne mustmane Pairs 1950 - 1953. P 40

(نقل عن الركابي ، في الأدب الأندلسي ص ٣٤) .

^(٢) في الأدب الأندلسي للركابي ص ٣٤ .

^(٣) مع شعراء الأندلس والمتنبي ص ١١٨ .

عليها المرابطون فيما بعد ، وامتد الجذب إلى الحياة الأدبية نفسها ، فعلى امتداد نصف قرن ، وفى بلد يرتوى بالشعر ويتغذى بالغناء ، بقيت غرناطة طوال القرن الحادى عشر الميلادى ، خارج المهابط التى يتردد عليها الشعراء ولم يحدث أبداً أن أياً من كبار الشعراء خارجها ، فكر أن يرتحل إليها ليمدح عبثاً أمراءها البربر أو وزراءها اليهود " (١) .

وقد أكثر الشعراء من هجاء البربر ، فرمؤهم بكل منقصة ، وعيروهم بمثالب الجنس ، فمن ذلك قول السميسر : (٢)

رأيت آدم فى نومى فقلت له أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك قال إذا حواء طالقة إن كان ما زعموا

ويقول شاعر آخر معبراً عما يضره فى قلبه من كراهية وحقد إزاء البربر (٣) .

هم البرابر لا ترجوا نوالهم وسل من الله تعجيل النوى لهم
لا بلغ الله قلباً منهم أملاً وبلغ الله قلبى ما نوى لهم

ويعرض هذا الشاعر بما يجرى على ألسنة البربر من مخاطبة الله سبحانه بقولهم (أبابا ربى) فيقول : (٤)

فلو كنت فى الفردوس جاراً لبربر لحولت رحلى من نعيم إلى سقر
يقولون للرحمن (بابا) بجهلهم ومن قال للرحمن (بابا) فقد كفر

وقد ردّ عليه أحد شعراء البربر بقصيدة قال فيها : (٥)

كفى بك جهلاً أن تحن إلى سقر بديلاً عن الفردوس فى شر مستقر
وتجهل معنى مستبيناً مجازه لدى كل ذى فهم سليم وذى نظر
فإن أبا الإنسان يدعو أنه كفيل وقيوم رحيم به وبر

(١) المرجع السابق ص ١١٩ .

(٢) نفح الطيب ٤١٢ / ٣ .

(٣) أدب الفتى ص ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٥) أدب الفتى ص ١٧٤ .

ومن قال للرحمن (بابا) فقد عني به ذلك المعنى المجاز وما كفر
وقد قال عيسى إننى ذاهب إلى أبى وأبيكم جاء ذلك فى الأثر

وفى هجاء البربر صدر كثير من الشعراء عن موقف سياسى على نحو ما نرى عند (ابن حربون) شاعر الخلافة الموحدية ، الذى يصفهم بـ " الرعاع " ويشيد بموقف الموحدين منهم عندما قادوا حركة عصيان ، وأشعلوا فتنة فى جهة جبل (تاسررت) سنة ٥٦٣هـ فتصدى لهم الموحدون وأخمدوا فتنتهم ، وقتلوا منهم كثيرين ، وأجلوهم عن تلك الأماكن ، وفى ذلك يقول ابن حربون :^(١)

ومإذا تؤمل هذى الرعاع وأنسى لها عنكم مهرب
ستبرأ منهم إليك الشعب ويسلمها البازل الأصهب
لقد ركبوا مركب الجاهلين وذلك من شر ما يركب
فمزقتم شملهم فى البلاد كأنهم جمل أجرب

وهجا ابن حربون البربر مرة أخرى عندما أضرموا فتنة أخرى فى جبال غمارة المتصلة بسبته فى عهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٢هـ ، وتزعم هذه الفتنة ثائر بربرى يدعى (سعد بن منعفاد) انشق عن طاعة الموحدين ، وأخذ يقطع الطرق ويبث الرعب فى قلوب الناس واستفحل أمره حتى تحرك الخليفة إليه بنفسه وتمكن من قتله وإخماد فتنته ، وفى ذلك يقول ابن حربون .^(٢)

ضرب الشقاء وجوههم بضلالة تاهت بهم فى جور ليل أليل
واستعجلوا أمر الإله فجاءهم والويل كل الويل للمستعجل
فغدا غوييم برأس منيفة يهوى إلى درك الجحيم الأسفل

ويتكىء ابن أغلب الخولانى المعروف بالزوالى فى هجائه لأحد البرابرة المنشقين بقفصة على المعانى الدينية ملوحاً بما جاء فى سورة (المسد) من

^(١) المن بالإمامة ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

^(٢) البيان المغرب (ط . تطوان) ٢ / ٢٠ وما بعدها .

تصوير لأبى لهب وامراته رابطاً بين هذه الصورة من ناحية وبين ما كان عليه هذا الشقى ومدينته (قصة) من غواية فيقول : ^(١)

سائل بقفصة هل كان الشقى لها	بعلا فكانت له حمالة الحطب
تبت يدا كافر بالله أهبها	فكان كالكافر الأشقى أبى لهب
لما زنت وهى تحت الأمر محصنة	رجمتوها اتباع الشرع بالحصب

وربما كان ابن سهل اليكى أكثر شعراء الأندلس هجاء للبربر ، وإن كان قد صدر فى هجائه لهم عن بواعث ذاتية ، فقد أفرط فى هجاء أهل فاس لما لقيه فيها من جفوة وخشونة وسوء معاملة ، ولذلك فقد وصمهم بكل منقصة ، ورماهم بالكذب والسرقة والزنا واللواط ، وأفحش فى هجائهم كقوله : ^(٢)

يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم	فاصبحت فيكم الآراء متفقة
كل امرئ منكم قد حاز منقصة	بها أحاط كدور العين بالحدقة
وربما اجتمعت فى بعض سادتكم	نقائص أصبحت فى الناس مفترقة
كالقرن والقود المشهور والكذب الـ	معروف والخلة الشنعاء والسرقة
فلا تهابن فاسياً مررت به	وإن تقل فيه خيراً حول الورقة
والعنه شيخاً وكهلاً واجفه حدثاً	و(....) ^(٣) طفلاً ولو ألفيته علقه
فلا سقى الله فاساً صوب غادية	نعم ولا اخضر فى أرجائها ورقة

ولم ينج أحد من أهل فاس من لسان اليكى - حتى الطفل الصغير - ^(٤) :
إذا الطفل منهم مس دائرة استه درى أنها مخلوقة للفياشل

ويهجو ابن ملجوم أحد أعيان فاس وأصلانها فيقول : ^(٥)

وما سمي الملجوم إلا لعله وهل تلجم الأفراس إلا لتركبا

^(١) زاد المسافر ص ١٣٥ .

^(٢) نفسه ص ١٢١ .

^(٣) حذفنا الكلمة الصريحة وهى بصيغة فعل الأمر .

^(٤) زاد المسافر ص ١٢١ .

^(٥) المغرب ٢ / ٢٦٧ .

ويعرض اليكى ببخل أثرياء فاس وتقتيرهم فيقول ^(١)

قصدت جلة فاس أسترزق الله فـيهم
فما نسر منهم دفعته لبـيهم

ويذكر المقرئ أن اليكى عندما أفرط فى هجاء أهل فاس تعسفوا عليه وساعدهم واليهم مظفر الخصى من قبل على بن يوسف ، والقائد عبد الله بن خيار الجياني ، فقدموا رجلا ادعى عليه بدين وشهد عليه رجل فقيه يعرف بالزناتى ، ورجل آخر يكنى بأبى الحسين من مشايخ البلد ، فأثبت الحق عليه وأمر به إلى السجن ، فرفع إليه . وسيق سوقاً عنيفاً ، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه وكتب فيها : ^(٢)

أرشو الزناتى الفقيه ببيضة يشهد بأن مظفراً ذو بيضتين
واهدوا إليه دجاجة يحلف لكم ما ^(٣) عبد الله عرس أبى الحسين

ومن الطريف أن بعض شعراء البربر شاركوا شعراء الأندلس فى هجاء البربر ، على شاكلة أبى العباس الجراوى - وهو من أكبر شعراء المغرب - فقد هجا قبيلته - بنى غفجوم - واستطرد إلى هجاء أهل فاس وقاضيه ابن ملجوم على نحو ما صنع اليكى فقال : ^(٤)

يا ابن السبيل إذا نزلت بتادلا ^(٥) لا تنزلن على بنى غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى إلا مجاوبة الصدى للجوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم
لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصياح بدعوة المظلوم
لاحظ فى أموالهم ونوالهم للسائل العافى ولا المحروم
يا ليتنى من غيرهم ولو أننى من أرض فاس من بنى الملجوم

^(١) زاد المالر ص ١٢٢ .

^(٢) فتح الطيب ٣ / ٣٢٤ .

^(٣) حذفنا الكلمة الصريحة وهى بصيغة الماضى المفرد

^(٤) أزهار الرياض ٢ / ٣٦٥ .

^(٥) تادلا : من جبال البربر تقع قرب فاس وتلمسان .

فأبو العباس الجراوى - وهو شاعر بربرى - لم يتصد للدفاع عن قومه ولم يرد هجاء الأندلسيين لهم وهو ما كانت تفرضه طبيعة انتمائه وعصبية لقومه ، ولكنه شارك الأندلسيين فى الهجوم على قومه ، ورماهم كما فعل شعراء الأندلس بالبخل والجبن ولؤم الطباع وغير ذلك من الصفات القبيحة ، وركب الجراوى طريقة الجاهليين فى الهجاء من إحكام النسج ، وإتقان الصنعة ، وترديد المعانى القديمة - كالعجز عن حماية الذمار والنساء ، والصياح بدعوة المظلوم - فجاء هجاؤه أقرب إلى الهجاء الجاهلى .

ويمكن أن نفسر موقف الجراوى من زاويتين : الأولى هى خفة حدة التعصب القبلى عنده . أما الثانية فربما تتصل بدوافع ذاتية نجمت عما رآه الجراوى من صفات مستهجنة فى بعض أبناء قومه .

ومهما يكن من أمر ، فإن هجاء الأندلسيين للبربر سار فى اتجاهين ، كان أحدهما انطلاقاً من دوافع ذاتية ، أما الآخر فكان تعبيراً عن موقف سياسى ونتاجاً لعصبية قبلية تأصلت فى نفوس بعض الشعراء .

رسالة الشقندى :

تعد رسالة الشقندى فى الدفاع عن الأندلس انعكاساً لنزعة العصبية والتنافس بين الأندلسيين والمغاربة أو بين الأندلس وبر العدو ، وقد كتب الشقندى رسالته إثر معركة كلامية حامية نشبت بينه وبين أبى يحيى ابن المعلم الطنجى حول المفاضلة بين بلديهما فكانت رسالة الشقندى التى أشاد فيها بمآثر الأندلس وعرض فيها بأبى يحيى فقال (١) : " أما بعد ، فإن حرك منى ساكناً وملاً منى فارغاً ، فخرجت عن سجيتى فى الإغضاء ، مكرهاً إلى الحمية والإباء ، منازع فى فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع ، ويأتى بما لا تقبله النواظر والأسماع . إذ من رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك ، ولا يضل من تاه فى تلك المسالك ، رام أن يفضل بر العدو على بر الأندلس ، فرام أن يفضل على اليمين اليسار ، ويقول الليل أضوأ من النهار ، فيأعجباً كيف قابل العوالى بالزجاج ، وصادم الصفاة بالزجاج ، فيا من نفخ فى غير ضرم ورام صيد البزاة بالرخم ، كيف تتكثر بما جعله الله قليلاً ، وتتعرز بما حكم الله أن يكون ذليلاً ، ما هذه المباهة التى لا تجوز ؟ وكيف تبدى أمام الفتاة العجوز . سل العيون إلى وجه من تميل ؟ واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغى ؟

لشتان ما بين اليزيديين فى الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم

وتأخذ الرسالة شكل المناظرة ، ويشعر الشقندى فى الرد على أقوال أبى يحيى مظهراً تفوق الأندلسيين على المغاربة فى شتى المجالات ، ويبدأ بالرد على ما ذهب إليه أبو يحيى من الفخر بملوك المغرب فيقول : " أما قولك الملوك منا " فقد كان الملوك منا أيضاً ، وما نحن إلا كما قال الشاعر :

فـيـومـ عـلـيـنـا وـيـومـ لـنـا وـيـومـ نـسـاء وـيـومـ نـسـر

١ سج العليب ٣ / ١٨٦ .

” إن كان الآن كرسى جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بنى عبد المؤمن ،
أدامها الله تعالى ، فقد كان عندنا بخلافة القرشيين ” . ويتباهى الشقندى
بمآثر ملوك الأندلس ، كالمنصور ابن أبى عامر ” الذى بلغ فى بلاد النصارى
غازياً إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيراً فى بلادهم من المسلمين ، ولم يبرح
فى جيش الهرقل وعزمة الإسكندر ” ، ويفخر بملوك الطوائف الذين ” نفقوا
سوق العلوم ، وتباروا فى المثوبة على المنثور والمنظوم ويخص منهم بنى عباد ”
فإن الأيام لم تزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الحنو على الأدب ، ما لم يقيم به
بنو حمدان فى حلب ” ، ويعرض الشقندى بملوك البربر السابقين على ملوك
الموحدين فيقول : ” وبالله إلا سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ،
أبسطون الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطى ، أم بيوسف بن تاشفين الذى لولا
توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه
قدراً ؟

ويسخر الشقندى من جهل يوسف بن تاشفين باللغة وافتقاده إلى فهم الشعر
والإحساس به فيشير إلى أن المعتمد قال له وقد أنشده الشعراء : ” أيعلم أمير
المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبر ، ولما انصرف عن
المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا	شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت	سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : يطلب منا جوارى سوداً
وبيضاً؟ قال : لا يا مولانا . ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً
لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأن أيام الحزن ليال سود ،
فقال : والله جيد ، اكتب له فى جوابه : إن دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا
توجعنا من بعده ! ” ^(١)

^(١) فتح العليب ٣ ١٩١ ١٩٢ .

وينتقل الشقندى إلى المفاخرة بعلماء الأندلس الذين برعوا فى الفقه واللغة والأدب وعلم النجوم والفلسفة وغيرها جاريًا على طريقته فى الحوار والمناظرة كقوله : " وإنك إن تعرضت للمفاضلة بالعلماء فأخبرنى : هل لكم فى الفقه مثل عبد الملك بن حبيب .. ومثل أبى الوليد الباجى ؟ "

" وهل لكم فى النحو مثل أبى محمد بن السيد وتصانيفه .. وهل لكم فى علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالقندر بن هود صاحب سرقسطة ، وهل لكم فى الطب مثل ابن طفيل .. ومثل بنى زهر .. وهل لكم فى علم التاريخ كابن حيان صاحب " المتين " و " المقتبس " .. وهل لكم فى الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمية ، والاجتهاد فى حشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب " الذخيرة " ؟ وهب أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكيسة فى البيت الفارغ . "

ويكثر الشقندى من الوقوف عند شعراء الأندلس مفتخرًا بإجادتهم فى فنون الشعر ، ومدللًا على براعتهم فى الوصف والتخيل ، ويقول مخاطبًا أبا يحيى مشيرًا إلى ضالة منزلة شعراء المغرب بالقياس إلى شعراء الأندلس :

" وقد أطلت عنان النظم ، على أنى اكتفيت عن الاستدلال على النهار بالصباح فبالله ! لا ما أخبرتنى : من شاعركم الذى تقابلون به شاعرًا ممن ذكرت ؟ لا أعرف لكم أشهر ذكرًا ، وأضخم شعراء ، من أبى العباس الجراوى ، وأولى لكم أن تجمدا فخره ، وتنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم فى قوله من قصيدة يمدح بها الخليفة :

إذا كان أملاك الزمان أراقمًا فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان

فما أقبح " ثعبان " وما أضعف ما جاء " دائم الدهر " . ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت ، فقال . لا ينكر هذا على مثل الجراوى فسبحان من جعل نسبه وروحه وشعره تتناسب فى الثقاله . ^(١)

^(١) نصح العليّ ٣ - ٢٠٩ - ٢١٠ .

وعلى هذا النحو يمدى الشقندى فى رسالته ، فيتفاخر بـ لفرسان والشجعان من أهل بلده ، ويسوق حكايات تدل على كرم النفس وشماثل الرئاسة ، ويأخذ فى تعداد محاسن المدن الأندلسية ، فيشيد بمزايا إشبيلية وقرطبة ومرسية وغرناطة وغيرها ، ولا ينسى فى ذلك كله أن يعرض بالمغاربة ، فإذا تحدث عن أصناف أدوات الطرب المنتشرة فى مدن الأندلس " كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون .. إلخ " أشار إلى أنه " ليس فى بر العدو من هذا شىء إلا ما جلب إليه من الأندلس ، وحسبهم الدف وأقوال وليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحمقى البربر " (١) وحين يتحدث عن شهرة بليش إحدى قرى مالقة بشجر التين يقول : " وتين بليش هو الذى قيل فيه للبربرى : كيف رأيت ؟ قال : لا تسألنى عنه ، وصب فى حلقى بالقفة ؛ وهو لعمر الله معذور لأنه نعمة حرمت بلاده منها " (٢)

ورسالة الشقندى ليست هى الرسالة الوحيدة فى موضوعها ، فقد سبقتها رسالة لابن حزم (٣) ، وأخرى لصفوان بن إدريس (٤) فى تفضيل الأندلس وهذه الرسائل تعبير واضح عن اعتزاز الأندلسيين بوطنهم ، وتعصبهم له ، وفى مقابل ذلك نجد رسائل أخرى تتحدث عن (مفاخر البربر) (٥) مما يشير إلى أن راية النثر كان أكثر وضوحاً من الشعر فى إظهار تعصب البربر لقومهم .

(١) نفح العليب ٣ ٢١٢ .

(٢) نفسه ٣ - ٢١٩ .

(٣) نفسه ٣ ١٥٦ .

(٤) زاد السافر ص ١٣ .

(٥) مخطوطة الرباط ، ك . ١٢٧٥ .

هجاء اليهود :

تسلل اليهود إلى المجتمع الأندلسي قبل الفتح العربي وباتوا يؤلفون عنصراً من عناصر سكانه وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن النورمان كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب ، . . وفي القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتهنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة ، وقد تقلب بعضهم في مناصب الدولة ولاسيما في عهد الناصر ^(١) .

وقد أشاد (جوستاف لوبون) بما لقيه اليهود من معاملة حسنة في الأندلس فذكر أن أسبانيا العربية كانت هي البلد الأوربي الوحيد الذي كان اليهود يقيمون فيه بحماية الدولة ورعايتها ^(٢) .

وقد ارتفع شأن اليهود في بعض الفترات ، وتقلد بعضهم مناصب الوزارة وقويت شوكتهم في غرناطة في عصر ملوك الطوائف ، فاستوزرهم بنو زيري وسيطروا على مقاليد الأمور ، فنشأ تيار مناهض لنفوذ اليهود ، وارتفعت أصوات الشعراء تعبر عن سخط الأندلسيين وغضبهم لتحكم اليهود في شئون المسلمين واستئثارهم بخبراتهم وقد عبر عن ذلك أبو الحسين يوسف بن الجدد فقال : ^(٣)

وتاهت بالبغال وبالسروج	تحكمت اليهود على الفروج
وصار الحكم فينا للعلوج	وقامت دولة الأندال فينا
زمانك إن عزمت على الخروج	فقل للأعور الدجال هذا

وكان أبو إسحاق الإلبيري أبرز شعراء الأندلس الذين عبروا عن مشاعرهم المناهضة لليهود ، فقد عاش حياة قلق في غرناطة ، وهاله استبداد اليهود بأمورها . ولم يكن راضياً عن إيثار حكام غرناطة لهم ، فقد اختصوا بني

^(١) في الادب الأندلسي للركابي ص ٤١ .

حصارة العرب ص ٢٩٦ .

^(٢) الذخيرة ٢ - ٢ - ٥٦٢ .

النغريلة بمناصب الوزارة ، وتركوهم يصرفون الأمور حسب أهوائهم مقابل الجبايات الضخمة التي كانوا يجمعونها من الناس ويقتسمونها معهم ، فتحكم هؤلاء الوزراء ومعهم المتصرفون اليهود في مقدرات المسلمين ، يقول ابن عذارى مشيراً إلى تسلط اليهود في تلك الفترة : " ودامت رياسة حبوس إلى أن هلك سنة ٤٢٨هـ ، فولى بعده ابنه باديس بن حبوس .. فأمضى باديس وزيراً له وكتائباً وزير أبيه اسماعيل بن نغرلة اليهود على وزارته وكتابته وسائر أعماله ورفعهم فوق كل منزلة ، فأتخذ هذا اليهودي عمالاً ومتصرفين في الأشغال واكتسبوا الجاه والمال في أيامه واستطالوا على المسلمين ، وكان هذا اليهودي من أهل الأدب والشعر ، فدام أمره كذلك إلى أن هلك ، وترك ابناً له اسمه (يوسف) لم يعرف ذلة الذمة ولا قدر اليهودية ، وكان جميل الوجه ، حاد الذهن ، فأخذ نفسه بالاجتهاد في الأحوال ، واستخرج الأموال ، واستعمل اليهود إخوانه على الأعمال فزادت منزلته عند أميره باديس ، وكانت له عيون عليه في قصره من نساء وفتيات شغلهم الملعون بالإحسان إليهم والإنعام عليهم فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس من كل ما يجرى في منزله من شراب ولهو وجد وهزل إلا ويعلمه ويعلم اليهود به ، فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهود ذلك .. وصارت لليهود صولة على المسلمين في دولته ^(١) وتصاعدت مشاعر الغضب تجاه اليهود ، ونظم أبو اسحاق الإلبيري قصيدته الشهيرة في هجاء اليهود وتحريض البربر للثورة عليهم . ووضع حد لنفوذهم الذي استشرى وأعضل داؤه المسلمين .

ويمكن أن نقسم القصيدة إلى أربعة أقسام ؛ ففي القسم الأول يستثير الإلبيري قبائل صنهاجة ، ويحفزهم لتدارك هذه السقطة الشنيعة التي وقع فيها باديس بن حبوس حين استوزر يوسف بن النغرلة ، فعز به اليهود ، وتسلطوا على المسلمين ، وملأوا خزائنهم بالأموال ، وتجاوزوا المقدار في بغيتهم ، ويدعو الإلبيري باديس والصنهاجيين إلى أن يأخذوا القدوة من السلف

^(١) البيان المغرب ص ٢٦٤ " ط ليفي برنتال " .

الصالح الذين أدركوا حقيقة اليهود وضربوا عليهم الذلة والمسكنة . يقول أبو إسحاق ^(١) .

ألا قل لصلهاجة أجمعين	بدور السندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة	تقرُّ بها أعين الشامتين
تحير كاتبه كافراً	ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا منهاهم وجازوا المدى	فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلم فاضل قانت	لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم	ولكن منّا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالألى	من القادة الخيرة المستقين
وأنزلهم حيث يستأهلون	وردُّهم أسفل السافلين

وفى القسم الثانى من القصيدة يستثير أبو إسحاق حمية باديس ويهيج مشاعره للغضب على أولئك اليهود الذين بغضوه إلى الناس ، وهدموا ما شيد من صروح وينعتهم بأقبح الأوصاف ، فهم " فراخ الزنا " وهم أهل الفسق وأرباب الفساد ويلوح بالمعانى القرآنية التى وردت فى شأنهم فيقول : ^(٢)

أباديس أنت امرؤ حادق	تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم	وفى الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا	وهم بنضوك إلى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى	إذا كنت تبنى وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق	وقارنته وهو بنس القرين
وقد أنزل الله فى وحيه	يحذر عن صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادماً	وذرههم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم	وكادت تميد بنا أجمعين
نأمل بعينيك أقطارها	تجدهم كلاباً بها خاسنين

^(١) ديوان أبى إسحق الألبيرى ص ٩٦ - ٩٧ .

^(٢) ديوان الألبيرى ص ٩٧ .

وفى القسم الثالث يشير أبو إسحاق إلى واقع غرناطة الأليم بعد أن استحالَت فى عهد باديس إلى بيئة يهودية ، وبعد أن آلت خيرات المدينة إلى اليهود ، ويتكىء أبو إسحاق على عنصر " المقابلة " فيقارن بين ما انصرف إليه اليهود من ثراء وترف ، وبين أحوال البؤس التى صار إليها أهل غرناطة ، يقول أبو إسحاق : ^(١)

وإنى احتللت بـغرناطة	فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها	فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها	وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا	وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم يدبحون بأسواقها	وأنتم لأطرافها آكلون

وفى القسم الأخير من القصيدة يُسخرُ الإلبيرى كل ما يمتلكه من أدوات لإثارة باديس والصنهاجيين للتنكيل بابن النغيلة وقومه ، فيتحدث عن النعيم الذى يرتع فيه ، ويشير إلى سخريته واستهزائه بمعتقدات المسلمين ويدعو صراحة إلى قتل هذا الوزير وقومه الذين نكثوا العهد ، يقول : ^(٢)

ورخم قـردهم داره	وأجرى إليها نمير العيون
فصارت حوانجنا عنده	ونحن على بابـه قائمون
وبضحك منا ومن ديننا	فإننا إلى ربنا راجعون
فبادر إلى ذبحه قـربة	وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه	فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرّق عداهم وخذ مالهم	فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غـدرة	بل الغدر فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم	فكيف نلام على الناكثين

^(١) نفسه ص ٩٨ - ٩٩ .

^(٢) ديوان الإلبيرى ص ٩٩ ، ١٠٠ .

وقد أحدثت قصيدة الإلبيرى أثراً هائلاً فى نفوس الصنهاجيين ، فاستثارت همهم ، واستنهضت عزائمهم ، فاندفعوا فى ثورة عارمة ، فتكوا خلالها بابن النغريلة وبمن وقع تحت أيديهم من اليهود .

ولم يتكلف الإلبيرى فى قصيدته ، ولم يغرب فى صوره ومعانيه وألفاظه بل اختار هذا الأسلوب السهل المباشر الذى يقترب من أسلوب النثر إلى حد بعيد لأنه أدرك بحاسته الفنية الدقيقة أن حظ أولئك البربر من الثقافة العربية ضئيل ، وأن نصيبهم من تذوق الشعر والوقوف على أسرار محدود ، فصاغ أفكاره بلغة سهلة ، وعمد إلى استخدام صيغ وتراكيب معينة أخذ يرددها بكثرة كقوله " وهم يقبضون .. وهم يخضمون .. وهم يليسون وهم يذبحون .. إلخ " ومن هذه التراكيب المألوفة التى كررها كثيراً قوله : فكيف اختفت عنك أعيانهم ، وكيف تحب .. وكيف يتم لك المرتقى .. إلخ وجنح إلى الصور البسيطة التى يألها الذوق العادى والتى لا تخلو فى الوقت نفسه من التهمك والسخرية كقوله : " ورخم قردهم داره ... " وقوله : " وضع به فهو كبش سمين " . واتكأ أبو إسحاق على العاطفة الدينية ، وعزف على هذا الوتر بمهارة حتى استطاع أن يثير مشاعر المسلمين وأحاسيسهم ، يقول جارثيا جومث عن قصيدة أبى اسحق : " والحق أن هذه القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا فى القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً فى التاريخ السياسى لأمة من الأمم فكهربت العزائم ، ودفعت بها فى سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف للقتل ، كالدور الذى لعبته هذه القصيدة ... إن ما تعرض له الشعراء فى الأندلس من إشارات سياسية كان يأتى عابراً كوخز الإبر الناعمة ، أو مخبأ كالطعوم المسمومة فى مهارة ، لكن هذا الشيخ لا يهدأ ، إنه برعم وفى لدم عربى ، ما أكثر ما أشعل بالهجاء البدوى الفاحش روح الصراع بين القبائل .. ولعل الشعر الأندلسى لم يعرف أبداً البساطة عارية كما عرفها فى هذه القصيدة ، وفى الوقت نفسه لم

ير قصيدة مثلها ، يلفها مثل هذا الإعصار من المشاعر . لقد اجتاحت أنغامها ،
حية ، متوهجة ، أعماق المدينة ، مع زفير النيران ، وحشجة الموتى ! ^(١)
لقد وضع بنو النغيلة نهايتهم بأيديهم ليس فقط لأنهم استأثروا بالمناصب
الهامة وتحكموا فى مقدرات المسلمين ، بل لأنهم أظهروا عداؤهم للإسلام
وتطاولوا عليه بشكل سافر على نحو ما صنع يوسف بن النغيلة حين ألف
كتاباً زعم أنه ثمة تناقضاً فى كلام الله فى القرآن الكريم ، كما نقل عنه أنه
كان ينظم القرآن شعراً وموشحات ، وقد ألح أبو إسحاق الإلبيرى إلى صنيعة
هذا عندما قال :

ويضحك منا ومن ديننا فإننا إلى ربنا راجعون

وكان هذا السبب وحده كفيلاً باستثارة مشاعر المسلمين وحنقهم على
اليهود ، وقد تصدى ابن حزم للرد على مزاعم ابن النغيلة فى رسالة طويلة
عرض فيها لتلك المزاعم ورد عليها واحدة فواحدة ، وكان يشفع رده بانتقاد
بعض المسائل التى وردت فى التوراة لافتاً ابن النغيلة إلى أن بيته من زجاج ^(٢)
وقد عرض ابن حزم فى رسالته بابن النغيلة وأشار إلى ما حققه من ثروات على
حساب المسلمين ، وما أظهره من عداؤهم للإسلام واستخفاف بأهله فقال ^(٣)
" إن بعض من تلقى قلبه العداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببعضه للرسول
صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل ، وأرذل النحل
من اليهود التى استمرت لعنة الله على الموسمين بها ، واستقر غضبه عز وجل
على المنتمين إليها ، أطلق الأشر لسانه ، وأرخصى البطر عنانة ، واستشمخت
لكثرة الأموال لديه ، نفسه انهينة ، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده ، همته
الحقيرة ، فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل

^(١) مع شعراء الأندلس والمنتبى ص ١٣٤ وما بعدها .

^(٢) الرد على ابن النغيلة اليهودى ورسائل أخرى لابن حزم تحقيق د. إحسان عباس ص ١٩ .

^(٣) المرجع السابق ٤٦ - ٤٧ .

فى القرآن ، اغتراراً بالله تعالى أولاً ، ثم بملك ضعفه ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرئاسة فى مجانية عوداً ، فلما اتصل بى أمر هذا اللعين لم أزل باحثاً عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرنى الله عز وجل من نصر دينه بلسانى وفهمى ، والذب عن ملته ببيانى وعملى .. فأظفرننى القدر بنسخة رد فيها عليه رجل من المسلمين . فانتسخت الفصول التى ذكرها ذلك الراد عن هذا الرذل الجاهل ، وبادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة . بحول الله تعالى وقوته ” .

وفهم من كلام ابن حزم أنه لم ينفرد وحده بالرد على ابن النغيلة بل شاركه فى ذلك آخرون .

وقد أكثر حزم فى رسالته من ذم ابن النغيلة ونعته بأقبح الأوصاف ، فرماه بالزندقة والنذالة والوضاعة وسوء الخلق على نحو ما يبدو فى قوله ^(١) وما أرى هذا الزنديق الأنوك إذ اعترض بهذا الاعتراض كان إلا سكران سكر الخمر ، وسكر عجب الصغير إذ كبر ، والخسيس إذا أسر ، والذليل الجائع إذا عز وشبع ، والسفلى إذا مر وشط ، والكلب إذا دبك ونشط .. وكيف بخلق سوء متكرر فى الخساسة والهجنة والرذالة والنذالة واللعنة والمهابة ؟
ولله در القائل :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ويصوب ابن حزم سهامه إلى اليهود جميعاً فيصفهم بأنهم ” عصابة لا تحسن إلا الخبث مع ميانة الظاهر . فيأنس المغتر إلى الضعف البادى ، وتحت ذاك الختل والختر والكيد والمكر ، كاليهود . الذين لا يحسنون شيئاً من الحيل ، ولا آتاهم الله شيئاً من أسباب القوة ، وإنما شأنهم الغش والتخابث والسرقة على التناول والخضوع ، مع شدة العداوة لله ولرسوله صلى

^(١) الرد على ابن النغيلة ص ٤٩ .

الله عليه وسلم " (١) ويختم ابن حزم رسالته بدعوة المسلمين إلى اجتناب اليهود ومقاطعتهم .

" فليتق الله تعالى ابرؤ آتاه الله نعمة من نعمه . ومنحه عزة ، وليجتنب هؤلاء الأنجاس الأنتان الأقذار الذين أحاق الله تعالى بهم من الغضب واللعنة والذلة والقلّة والمهانة والسخط والخساسة والوسخ مالم يحق بأمة من الأمم قط وليعلم أن هذه الكبى التى كساهم الله تعالى إياها أعدى من الجرب ، وأسرع تعلقاً من الجذام " (٢) .

فابن حزم وأبو إسحاق الإلبيرى - وكلاهما فقيه - هما اللذان قادا حملة المعارضة ضد اليهود ، والتصدى لهم ، وإن كان ثمة فارق بين طبيعة المعارضة عند كل منهما ، فقد كان الإلبيرى أكثر جرأة حين دعا - صراحة إلى الثورة على اليهود واستئصال شأفتهم بينما اكتفى ابن حزم بالدعوة إلى تحاشيهم وفرض العزلة عليهم .

(١) نفسه ص ٤٦ .

(٢) الرد على ابن النفريلة ص ٨١ .

هـجاء الشعوبية

كانت مشكلة الشعوبية إحدى المشكلات الخطيرة التي عانى منها المجتمع العربى لاسيما فى العصر العباسى . ويشخص أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام بواعث هذه المشكلة فيقول ^(١) : " وقد أدت إلى قيام هذه المشكلة أسباب عدة منها عصبية العرب لعروبتهم ، وتمسكهم بأنسابهم ، واعتبارهم كل من لا يمت بنسب أو من لا يمتد نسبه ويعرق دعياً .. وشعر المولدون أو الموالى باحتقار العرب لهم ، فأحسوا فى نفوسهم بالضيق ، وشعروا أنهم لا يقلون عن العرب استحقاقاً ورعاية من الناس والدولة ، فهم أكفاء للعرب لا يقلون عنهم من حيث الثقافة والاستعداد والحضارة والتاريخ القديم . بل لعلمهم يفوقونهم فى التاريخ القديم . ومن هنا نشأت مشكلة الشعوبية التى أثرت تأثيراً كبيراً فى الأدب والعلم والحياة ، وظلت أصدائها تتجاوب فى أنحاء الأمة الإسلامية مدة مديدة من الزمن " .

وقد وجدت مشكلة الشعوبية أصداء لها فى المجتمع الأندلسى ، وكانت بواعث وجودها فى الأندلس هى نفس البواعث التى أدت إلى وجودها فى المشرق ، ونعنى بذلك وجود طبقة من المولدين تشعر بالغبن والازدراء ، فى مقابل طبقة أخرى من العرب تشعر بالتفوق والزهو " ويميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التى جاءت فحلت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التى اعتنقت الإسلام . وهذه العناصر الإسبانية المسلمة تسمى عند المؤرخين العرب بالمسالمة أو بالمولدين . فاسم (المسالمة) يطلق على الإشبانيين الذين اعتنقوا الإسلام . واسم (المولدين) على نسلهم وكان المولدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية لقد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب . بعد عدة أجيال مضت . تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم فى الازدياد منذ حكم عبد الرحمن

^(١) دراسات فى الأدب العربى - العصر العباسى - ص ١٦ - ١٧ .

الثانى إذ اعتنق فى عهده أعداد كثيرة من الإسبانيين الدين الإسلامى ، وكان بينهم من دخل فى خدمة المسلمين وأصبحوا موالى لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الأسباني .. وكان من عادة مؤلفى التراجم عندما يذكرون ترجمة رجل عربى أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجد الأول الذى جاء إلى الأندلس ^(١) .

وبجانب طبقة المولدين وجدت طبقة اجتماعية أخرى كان لها تأثيرها فى المجتمع الأندلسى ، ونعنى بذلك " الصقالبة " وهذه التسمية تتسحب على السلافيين بوجه خاص ، وعلى أسارى الحرب والأرقاء من مختلف الشعوب الشمالية بوجه عام ^(٢) .

وبمرور الوقت أصبح الصقالبة يشكلون طبقة هامة فى المجتمع الأندلسى " واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً فى الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضى غنياً ، وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين .. وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم ، وقاموا يلعبون دوراً سياسياً هاماً ، وقد بدءوا فى عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية فى الدولة حتى إنهم قد قلدوا مناصب القيادة العسكرية وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرستقراطية العربية ويحاربها . وقد أظهر خليفة الناصر ، الحكم الثانى كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه السياسى لاسيما بعد أن أخذوا يمعنون فى التكبر والوقاحة .. " ^(٣)

وقد أدى وجود المولدين والصقالبة إلى ظهور النزعة الشعبوية فى الأندلس ويبدو أن ظهورها يرجع إلى وقت مبكر ، فنقرأ أن أحد الصقالبة . ويدعى

^(١) فى الأدب الأندلسى . ص ٣٥ - ٣٦ .

^(٢) انظر موجز بحث جولد تسيهر عن (الشعبوية عند مسلمى اسبانيا) أورده الأستاذ عبد السلام هارون فى (نوادر المخطوطات) ج ١ ص ٢٤١ .

^(٣) فى الأدب الأندلسى للركابى ص ٣٨ وما بعدها .

حبيباً — يؤلف كتاباً يشيد فيه بمآثر قومه فيسميه (كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) ^(١) . ولعل هذا الكتاب أول محاولة للكتابة فى دائرة الشعوبية ، وإن لم يكن فى صميمها ، لأن مؤلفه دافع عن عنصره ولم يهاجم غيره . ^(٢)

وظهرت بوادر الشعوبية فى الشعر الأندلسى منذ وقت مبكر ، وفى عصر الخلافة ، عبر الشعر عن الصراع الأدبى بين العرب والمولدين ، " وكان يمثل صورة من النقائض الشرقية ، وفيه فى الجانب العربى الفخر بالقبلىة ، وكان العرب لهم قادتهم مثل سوار بن حمدون القيسى الثائر بناحية البراجلة ، وقد انضمت إليه بيوتات العرب من كورة وجيان ورية وغيرها ، فتغلب على المولدين ، وافتخر بنصره . وامتداد سلطانه وبقومه قيس فى قصيدة طويلة ثم وجه سوار همته إلى محاربة ابن حفصون وأتباعه وانتصر عليهم فى وقعة (المدينة) وكان صاحبه سعيد بن جودى أحد الشعراء الذين تمدحوا بذلك الانتصار فقال : ^(٣)

يقول بنو الحمراء لو أن جنحنا يطير لغشاكم بشؤبوب وابل

وكان من مظاهر احتدام الصراع الأدبى بين المولدين والعرب فى عصر الخلافة ظهور لون من المناقضات الشعرية بين الفريقين ، " وكان للمولدين شاعرهم المحامى عنهم ، ويعرف بالعبلى ، واسمه عبد الرحمن أحمد وينسب إلى قرية عبلة ، وينظره الشاعر الأسدى واسمه محمد بن سعيد مخارق الأسدى أسد بنى خزيمة ، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل عن مذهبه . ويصف ما يجرى لقومه على أصدادهم من الوقائع المخزية " ^(٤) . فمن أمثلة هذه المناقضات قول العبلى يشيد بأحد انتصارات قومه على العرب : ^(٥)

^(١) نفح العليب ٣ - ٨٢ .

^(٢) (الشعوبية عند مسلمى أسبانيا) بحث جولد تسيهر ، نوادر المخلوطات ص ٢٤١ .

^(٣) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة ص ٩٧ وما بعدها .

^(٤) فى الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - ص ٩٨ .

^(٥) المرجع نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .

قد انقضت قناتهم وذلوا وزعزع ركن عزهم الأذل

ورد عليه الاسدى شاعر العرب بقصيدة من نفس البحر والروى يعتمد فيها طريقة القدماء فى النسيج والصياغة ، منها قوله : ^(١)

قد احتمل الأحبة واستقلوا لطيتهم بليل واحزألوا
فظل الدمع من جزع عليهم إذا احتملوا يسح ويستهل
سأصرف همتي عنهم وأسلو بهجوى معشراً كفروا وضلوا

وكانت منطقة البيرة من أظهر مناطق الصراع بين العرب والمولدين فى عصر الخلافة ، فقد أحدث فيها المولدون فتناً كثيرة مثل فتنة عمر بن حفصون زعيم العجم التى استمرت أكثر من نصف قرن حتى تم القضاء عليه فى خلافة عبد الرحمن الناصر ، وقد تغنى ابن عبد ربه بهزيمة ابن حفصون فقال : ^(٢)

رام ابن حفصون النجاة فلم يسر والسيف طالبه فليس بناج
مازال يلقح كل حرب حائل فالآن أنتجها بشر نجاج
ركبوا الفرار بعصبة قد جربوا غب السرى وخوافت الإدلاج
وإذا سألتهم موالى من هم قالوا : موالى كل ليل داج

وبسقوط الخلافة الأموية وانقسام الأندلس إلى دويلات أتيح للنزعة الشعوبية أن تقوى وتحتدم ، وكان من أهم الأسباب التى أدت إلى احتدامها ضعف النفوذ العربى ووصول بعض أبناء الصقالبة والمولدين إلى الحكم على شاكلة أبى الجيش مجاهد العامرى - وهو أحد الموالى الصقالبة - الذى استأثر بحكم مملكة (دانية) ، وقد أضحى بلاط مجاهد ملاذاً للشعوبية ، فقد لاذ بكنفه اللغوى (ابن سيدة) صاحب (المخصص) الذى قال عنه صاحب سير النبلاء : " كان شعوبياً يفضل العجم على العرب .. وكان منقطعاً إلى الأمير مجاهد العامرى ^(٣) وقد نشأ فى بلاط مجاهد أبو عامر بن غرسية أقوى صوت شعوبى

^(١) المرجع نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .

^(٢) نفسه ص ٩٧ .

^(٣) سير النبلاء القسم الثانى ١١ - ٨٠ مصورة دار الكتب .

ظهر في الأندلس ، فقد ألف رسالة مشهورة في تفضيل العجم على العرب ، وهى كما وصفها ابن بسام " رسالة زميمة ، أغرب فى تسليطها وذم فيها العرب ، وفخر بقومه العجم " .^(١)

وقد ترجم ابن سعيد لأبى عامر بن غرسية فوصفه بأنه " من عجائب دهره ، وغرائب عصره ، وإن كان نصابه فى العجمية ، فقد شهدت له رسالته المشهورة بالتمكن من أعنة العربية ، وهو من أبناء نصارى البشكنس ، سبى صغيراً ، وأدبه مجاهد مولاه ، ملك الجزر ودانية ، وكان بينه وبين أبى جعفر ابن الجزار صحبة أوجبت له أن استدعاه من خدمة المعتصم بن صمادح ملك النرية . ناقداً عليه ملازمة مدحه وتركه ملك بلاده " .^(٢)

فالباعث على كتابة رسالة ابن غرسية هو ذلك الخلاف الذى نشب بينه وبين الأديب أبى جعفر بن الجزار ، وقد تفاقم الخلاف بين الرجلين مما دعا ابن غرسية إلى هجائه بمثل قوله :^(٣)

بطرنة تعلم أصله	عزبت فسلها فماتنكر
ومثل بها وضماً مائلاً	وشفرة جزر ولا أكثر
تجر ذبول العلى تانها	وجدكم الجازر الأكبر

وقد بدأ ابن غرسية رسالته بالسخرية من ابن الجزار الذى وقف شعره على مدح أمراء العرب والإشادة بمآثرهم كأنه لا يوجد فى الأرض سواهم فقال^(٤) " سلام عليك ذا الروى المروى ، الموقوف قريضه على حللة بجانة أرش اليمن ، بزهد الثمن ، كأن ما فى الأرض إنسان ، إلا من غسان ، أو من آل حسان .. " وينتقل ابن غرسية إلى الفخر بقومه العجم والتعريض بالعرب فيقول : " أحسبك أزريت ، وبهذا الجيل ازدريت ، وما دريت ، أنهم الصهب الشهب

^(١) الذخيرة ٣ - ٢ - ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .

^(٢) المغرب ٢ - ٤٠٦ وما بعدها .

^(٣) نفسه ٢ / ٣٥٦ .

^(٤) نوادر المخطوطات ج ١ ص ٢٤٦ وما بعدها .

ليسوا بعرب ذوى أينق جرب ، أساورة ، أكاسرة ، مجد ، نجد ، بهم ، لا
رعاة شويهاات ولا بهم ، شغلوا بالماذى والمران ، عن رعى البعران ، وبجلب
العز عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع
المروع ، حماة الروح ، نمة الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة
الخرصان ، لكنهم خطبة بالخرصان :

ما ضرهم أن شهدوا أمجادا أو كافحوا يوم الوغى الأندادا

ألا يكون لونهم سوادا

وفى مقام الفخر بقومه يلتفت ابن غرسية إلى التاريخ فيشير إلى أن هاجر أم
العرب كانت أمة لسارة أم العجم ويحمل على العرب بشدة فيقول : " أرومة
رومية ، وجرثومة أصغرية .. حسب جرى ، ونسب سرى ، أمكم لأمنا كانت
أمة ، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة ، ولا تهایل فى التكايل ، فما سنساقط
قروداً ، ولا حكنا بروداً ، ولا لكنا عروداً ، فلا تهاجر ، بنى هاجر أنتم أرقاؤنا
وعبدتنا ، وعتقاؤنا وحفدتنا ، مننا عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق ،
والحقناكم بالأحرار ، فغمطتم النعمة ، فصفعناكم صفعاً ، يشارك سفعاً ،
اضطركم إلى سكنى الحجاز ، وألجاكم إلى ذات المجاز " .

وعلى هذا النحو تمضى رسالة ابن غرسية ، فما من فضيلة يراها إلا
وينسبها لقومه ، وما من منقصة إلا ويلصقها بالعرب ، فقومه من العجم
ضراغمة الأجم ، لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبجحت عليهم سارة الجمال
ربه الإياة .. دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب ..
شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج عن الكلب
والفروج ، وبالنفير عن النكير ، وبالجناثب عن الحباثب ، وبالحب عن
الخب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر . عن معاقرة الخمر والزمر
وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان "

ويعود ابن غرسية إلى أحداث التاريخ مرة أخرى مفتخراً بأمجاد قومه السياسية ومزرياً بالعرب فيقول : " أما علمتم أن الدولة النوشروانية ، والمملكة الأرديسية بقروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة بعد الحيرة ، قللاً ذللاً ، تتخيرون البنات ، عند البيات ، مبهورات لا مبهورات ، فبرم من ذلك غسانكم ونعمانكم " .

ويتبأهى ابن غرسية بأمجاد العجم فى شتى مجالات العلوم فيقول : " حلم ، علم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ، كحلمة الأسترلوميقي والموسيقى ، والعلمة بالأرتماطيقي والجو مطريقي ، والقومة بالأنوطيقي والبوطيقي ، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع ، والمهرة فى علوم الأديان ، والأبدان ... " .

ولكى ينأى ابن غرسية بنفسه عن مظنة الطعن فى العقيدة الدينية يفتخر بالنبى عليه السلام وإن ظلت روح كراهية العرب تسيطر عليه فيقول : " ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، ففى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بعسك العزال .. " .

ويختم رسالته بذي ابن الجزار قائلاً : " فاذهب يا غث المذهب . وابتغ فى الأرض نفقاً ، أو فى السماء مرتقى ، فهذه ألية ، جلبت عليك بلية ، أوحك من البسيط والمديد ، ما تستجيز به من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالى ، إلا من هو لعظيمنا موالى " .

وبواضح من رسالة ابن غرسية أنه يردد كثيراً من المثالب التى اتكأ عليها دعاة الشعوبية فى المشرق كوصف العرب بالغلظة والجلافة وامتهان المهن الحقيرة ، والانغماس فى الشهوات ومعاقرة الخمر ، والتعريض بطريقتهم فى المأكول والمشرب والملبس وما إلى ذلك من صور الطعن والزراية غير أن ثمة اختلافاً بين مفهوم ابن غرسية لكلمة (عجم) ومفهوم شعوبية المشرق لها . فبينهم يعنون بهذه الكلمة (الفرس) على حين يتسع مدلول هذه الكلمة عند ابن

غرسية فيعنى كل ما هو عجمي ، ومن هنا كان إشادته بالأكاسرة والقياصرة والروم وبنى الأصفر ويقارن " جولد تسيهر " بين الشعوبية المشرقية والشعبوية الأندلسية فيرى " أن الميل الحقيقي للشعبوية في الأندلس يمتاز بحرصه على أن ينسجم مع العقيدة الإسلامية ، على حين نجد شعوبية المشرق على النقيض من ذلك ، إذ نرى ممثلي الشعبوية فيه من الملاحدة والزنادقة في أكثر الأمر"^(١) كما يرى أن " جدل الشعبوية بالشرق من جهة الأسلوب كان أبعد عن الصناعة الفنية ، ومن جهة المبدأ أقرب إلى الموضوعية العلمية منه إلى الذاتية الشخصية ، على حين نجد كتابة ابن غرسية رسالة شخصية يستعمل فيها كل التعبيرات الفنية من ترادف وطباق ، وتلاعب بالألفاظ ، وتعريض وتضمين ، واقتباس ، ورمز إلى حوادث أدبية وحقائق تاريخية ، مما يطبع الرسالة الفنية بالطابع المطلوب . كما أن نمو وسائل الأسلوب الفني وتنوعها على الصورة التي يستخدمها كتاب القرن الخامس قد أعارت قلمه أحياناً لون التهكم والفكاهة الذي استغنى عنه جدل الشعبوية في المشرق " ^(٢)

ومهما يكن من أمر ، فإن رسالة ابن غرسية كان لها أصداء واسعة المدى في الأندلس ، سواء في عصرها ، أو فيما تلاه من عصور ، ورغم أن ابن غرسية وجه رسالته أصلاً إلى أبي جعفر بن الجزار إلا أن المصادر لم تشر إلى أنه رد على رسالة ابن غرسية ، ومع ذلك فقد انبرى كثير من الكتاب للرد على رسالة ابن غرسية ، وقد وصلت إلينا بعض هذه الردود ، بينما ضاعت ردود أخرى لم يبق منها غير أسمائها وأسماء أصحابها ، نذكر منها : ^(٣)

١- رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسى الذي سمي رسالته :
"رسالة الاستدلال بالحق ، في تفضيل العرب على جميع الخلق ،

^(١) انظر بحث جولد تسيهر عن (الشعبوية عند مسلمي أسبانيا) في نوادر المخطوطات ١ / ٢٤١ .

^(٢) المرجع السابق ١ / ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

^(٣) نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٩ .

والذب والانتصار لصفوة الله المهاجرين والأنصار " وقد أشار إليها
البلوى وصاحب كشف الظنون .

٢- رد الكاتب ذى الوزارتين أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الغافقى
(ت سنة ٥٤٠هـ) وسماه : " خطف البارق وقذف المارق ، فى الرد
على ابن غرسية الفاسق ، فى تفضيله العجم على العرب ، وقرعه
النبع بالغرب " وقد أشار إليها البلوى فقال : " فأما ابن أبو الخصال ،
فأخنى عليه وصال ، بحجاج أمضى من النصال ، ماله عنها
انفصال " .^(١)

٣- رد أبى محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجى الغرناطى
وكان يعرف بابن الفرس .

٤- رد عبد الحق بن خلف بن مفرج ، وقد أشار إليه صاحب (تكملة
التكملة) .^(٢)

أما الردود التى وصلت إلينا فهى :^(٣)

١- رد أبى جعفر بن الدودين البلبسى ، كان معاصراً لابن بسام الذى قال
عنه^(٤) : " هو أحد من لاقيته وشافهته ، وأملى على نظمه ونثره
بأشبونة سنة سبع وسبعين وأربعمائة وأخبرنى برسالته التى رد فيها
على أبى عامر بن غرسية " .

٢- رد أبى الطيب بن من الله القروى (ت سنة ٤٩٣ هـ) وقد سمي
رسالته " حديقة البلاغة . ودوحة البراعة . المورقة أفنانها ، المثمرة

^(١) ألف باء للبلوى ١ / ٣٥١ نقلاً عن نوادر المخطوطات .

^(٢) تكملة التكملة ص ٤٢٢ .

^(٣) نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٦ وما بعدها .

الدخيرة . القسم الثالث . المجلد الثانى ص ٧٠٣ - ٧٠٤ (تحقيق د . احسان عباس) .

أغصانها ، بذور المآثر العربية ، ونشر المفاخر الإسلامية ، والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم العجمية ”

٣- رد أبي يحيى بن مسعدة الذى عاش فى عصر الموحدين .

٤- رد لمجهول وعنوانه ” رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسية ” ويرجع الأستاذ عبد السلام عارون أن تكون هذه الرسالة أيضاً ليحيى بن مسعدة ، وذلك للتشابه الواضح بين أسلوبى الرسالتين ، ولتقارب بعض العبارات فيهما ^(١) .

رد ابن الدودين البلنسى على ابن غرسية :

استهل ابن الدودين رسالته بدم ابن غرسية فرماه بالخسة والنفاق ووصمه بالنذالة وخطل رأى ، : فقال : ^(٢) ” اخساً أيها الجهول المارق ، والمرذول المنافق ، أين أمك ، ثكلتك أمك ، أو ما علمت أنك سحبت من عقالك لعقالك ، وقدمت أول قدمك ، لسفك دمك ، وبسطت مكفوف كفك ، لسلطان حتفك ، وقلمت شبا أقلامك ، لاصطلامك ، وحبرت بحبرك ، لذهاب خبرك ، مشقت فى قرطاسك ، لشق راسك ، فما حقيقة جوابك على خطك خطابك ، إلا سلبك عن إهابك ، وصلبك على بابك ” .

ويمضى ابن الدودين فى تهديد ابن غرسية ، ويشرع بعد ذلك فى تعداد الصفات التى أسبغها ابن غرسية على قومه ، فينقلها من معنى المدح الذى وضعت له إلى معنى الثلب والهجاء كقوله ” الصهب السبال ، من ولغ الدم وشرب الأبوال . أكلة الجيف ، وحللة الكنف ” ، ” والوضوح ، الرجح ” رجح الأكفال ، وضح كذوات الأحجال ، ” علم ، حلم ” علم بالتداوى من القرم ، ومنافع القلم ، حلم عن كل مجاوز الحلم ، ” جمح طمح ” الآن

^(١) نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٧ .

^(٢) المرجع السابق ١ / ٣٠٢ وما بعدها .

صدقت ، وغلطك استدركت ، جمع فى الإحجام : عن الإقدام ، طلب الفرار ،
يوم الانتصار ، وإدراك الثار ، طمح إلى كل رموح طموح "

وحين وصف ابن غرسية قومه بأنهم " حماة السروح نماة الصروح " رد
عليه ابن الدودين بقوله : " هل يصح فى التحصيل ، أو يجوز فى العقول ،
أن يحمى قومك سروح شائهم ، وقد أباحوا فروج نسايمهم ، أليس هذا عين
المحال ومغالطة الجهال ؟ " .

ويكثر ابن الدودين من التعريض بابن غرسية وقومه كقوله : " ملس الأدم
ما حاكوا قط بروداً ، ولا لأكوا عروداً " هذا وأبيك من التعريض الرقيق فى
مقالك ، وآلك ، وذلك أنك وصفتهم بأملاس الجلود ، وقضيت بنفى لوك العرود
وإيجاب ذلك ، لا يليق إلا ببالك . فهذا لعمرك من بديع التحقيق ، فافخر ،
فهاتان صفتان سلمتاكم . وأما لوك العرود ، فإن ذلك أوضح من السراج
الوهاج ، فى الليل الداغ . قد تحدث أن ولدانكم عطلوا فى وقت سوق نسايمكم ،
فنى ذلك إلى مليكمكم ، فحكم ، أكرم به من حكم ، أن يبيع النسوان ، من
أنفسهن ما أباح الولدان ، وامتلن ذلك فاتسقت الحالات ، ونفقت السوقات ،
وما سمع فى الأزمان ، بأغرب من هذا الشأن ، فاشمخ بأنفك . وافخر
بنصفك " .

ويقف ابن الدودين عند كل مثلبة ألصقها ابن غرسية بالعرب فيفندها
واحدة إثر أخرى كقوله : " وأما ما قعقت به ووعوت ، من صواحب
الرايات ، فهن وأبيك بعض بنات ربة الإياة . إماننا المسيبات الممتينات ،
لكتناهن ظبا البيض الهندية ، وشبا السمر الردينية ، فما عجنا بهن عما
عودتموهن من البغاء ، للاسترضاء ، فيكثر معشر العربان من ولد سارتكم
الأموان والعبدان ، وفيك من ذلك أصح دليل وأوضح برهان " .

وحين وصف ابن غرسية العرب بأنهم حاكمة برود رد عليه ابن الدودين بأن العجم هم الذين يمتنون تلك المهنة " وأما حوكم البرود ، فناهيك من الغفارة الإفرنجية ، إلى الديباجة الرومية ، والنستبان بذلك تشهدان " .

ويمى ابن الدودين فى رسالته فيقرع الحجة بالحجة ، ويرد الطعنة إلى صدر خصمه كقوله : " وقضية أبى عبشان التى عظمت ، ليس الأمر كما توهمت ، لأن الكعبة بيت الله لا شريك له ، وضعه تعالى للعباد ، وسوى بين العاكف فيه والباد ، وأبو عبشان إنما باع خدمته فى البيت ، وهبها قضية سفيها الغوى ، أين تقع فى قضية إمامكم يهوذا الحوارى ، إذ باع نبيه روح القدس ، بأعوانه بالأفلس ، فكذب الله ظنه ، وأنجى نبيه ، فدونك ضع قضية سفيها فى كفة ، وفى أخرى قضية إمامك ، ورجح بينهم بفض ختامك " .

وينفى ابن الدودين ما ادعاه ابن غرسية لقومه من تفوقهم فى علم الشرائع فيقول " وأما فخرك بعلمهم الشرائع ، فمن أبدع البدائع ، " استنتت الفصال حتى القرعى " " وجهلهم بذلك أوضح ، من أن يشرح ، وأبين من أن يبين لكن أنكت من ذلك نكتة ، وأنبذ منه نبذة ، تصفعهم صفعا ، وترد صهب أدمهم سفعاً . وأنى يكون ذلك ، هبلت لآلك ، ولم يأخذه عن نبى ولا نقلوه عن حوارى ، ولم يزالوا يتعاورون أصلهم الإنجيل بالزيادة والنقصان ، إلى أن أصاروه فى خبر الهذيان ، وحسبك بهم جهلا أنهم يعتقدون إلهاً نبيهم ، يسمونه بالرب المعبود ، وصيروه بعد مصلوب اليهود ، فاعجب بجهل يجمع بين هذين ، الطرفين " .

وينفى أيضاً ما ادعاه ابن غرسية لقومه من عراقاة الأصل ، ويضيف هذه المكرمة إلى العرب فيقول : " وأما وصفك قومك أنهم " مجد ، نجد ، شمش ، بذخ ، عرق " ، فهيها ذلك منهم ، تلك صفات قومنا العرب ذوى الأنساب والأحساب ، والعلوم ، والحلوم ، أولى اللسن ، والبيان واللحن ، والإسهاب

فى الصواب والحكمة وفصل الخطاب ، فرسان الإعراب ، وأرباب القباب
ومعملى الصوارم والحراب ، أنديتهم عراض المنية ، وأرديتهم بيض المشرفية
ولبوسهم مضاعفة الماذية .. مجالسهم السروج ، وريحانهم الوشيج ، وموسيقاهم
رنات الردينيات . لم تكن قادتهم النساء ، ولا رادتهم فى آجالهم النساء .

ويختم ابن الدودين رسالته كما بدأها بزم ابن غرسية الذى فضح جهله ما
كان مستورا من عورات قومه : " وما كان أغناك يا كشاجم ، عن كشف
عورات آلك الأعاجم ، لكن ضعف نظرك ، حداك إلى هذرك ، وسوء أدبك ،
وافى بك إلى عطبك " .

رد ابن من الله القروى :

كتب ابن من الله القروى رسالته " حديقة البلاغة " للرد على رسالة ابن
غرسية ، وهى رسالة طويلة قسمها إلى فصول وافتتحها بهذه الأبيات : ^(١)

وذى خطل فى القول يحسب أنه	مصيب فما يللم به فهو قائله
نهدت له حتى ثنيت عنانه	عن الجهل واستولت عليه معاقله
تعال فخيرنى علام تشددت	قوى العير حتى أحرزتك مجاهله

وذيل هذه الابيات بزم ابن غرسية فقال " أيها الفاخر بزعمه ، بل الفاجر
برغمه ، ما هذه البسالة ، فى الفسالة ، ما هذه الجسارة على الخسارة " .

ويشير ابن من الله إلى فضل العرب على ابن غرسية . هذا الفضل الذى
قابل به بالبحود والنكران " أما كانت للعرب يد تشكرها ، أو منة تذكرها . أما
جبرت نقيصتك ، أما رفعت خسيستك ، أما استنهضتك من وهديك ، أما
أيقظتك من فضلتك وقدرتك . ألم تربك فيها وليدا ، ألم تتخذك لها تليدا ، ألم
تعن بتخريجك وتدريبك ، أما أنطقك بعد العجمة ، أما أسلقتك بعد اللكنة ،
حتى إذا اشتد كاهلك ، وعلم جاهلك . وقوى ساعدك ، ورقى صاعدك .

^(١) نوادر المختلوطات ١ / ٣١٠ وما بعدها .

كفرت نعمتها لديك ، ونثرت عصمتها من يدك ، وأخذت تطاولها بأرسانها ،
وتقاولها بلسانها ، وتناضلها بسهامها ، وتهاطلها برهامها " .

وينحو ابن من الله منحى ابن الدودين فى تعداد المآثر التى خلعتها ابن
غرسية على قومه ، فيصرفها عن مواضعها ، ويحيلها إلى سهام يسدها إلى
صدر غريمه ، وينقلها من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، كقونه : " وهات أرنا
مفاخرك ، ونرك مساخرك ، أنت صاحب الشهب ، الصهب ، والسنة
شهباء ، والجهام صهباء ، كذلك أنت لا خير ولا مير ، ولا عمر ولا عمير ،
ليس للسقاء بالرومية اسم ، ولا للوفاء فى العجمية رسم ، أين أنت عن السمر
القمر ، البيض غرراً وصفاحاً ، السود طرراً وأوضاحاً .. سعروا عليكم نار
الحرب بتلك الأنيق الجرب ، فكسروا كياسرتكم ، وقصروا قياصرتكم ،
وأخمدوا نار صولتكم ، ومحو أثار دولتكم ، وطهروا الأرض المقدسة من
أنجاسكم ، والمسجد الأقصى من أرجاسكم .. " .

ويشتد (ابن من الله) فى حملته على قوم ابن غرسية ، ويكثر من إلحاق
الصفات الذميمة بهم ، ويصممهم بكل منقصة على نحو يذكرنا بهجاء جرير
للأخطل . فهم " الذين ينجون ولا يستنجون ، ويتجنبون ولا يتطيّبون " وهم "
رعاة الخنازير ، وأكلة السنانير " أما رجالهم " فقلق غلف " وأما نساؤهم "
فقدّر بظر ، لا يعرفون الخفاض ولا الختان ، ولا يألّفون السنان ولا العنان " .

ويمضى (ابن من الله) فى هجائه لابن غرسية وقومه مقتفياً طريقة ابن
الدودين فى صرف معانى المدح إلى الهجاء فيقول : (وأنتم كما وصفت ، ملس
لس . لا تغيرون ولا تغارون ، تمنعون ، ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء ، وأفئدتكم
هواء ، وعقولكم سواء ، قد لانت جلودكم ، ونهدت نهودكم ، واحمرت
خدودكم تحلقون اللحى والشوارب ، وتتهادون القبل فى المشارب " .

ويحذو حذو ابن الدودين فى رد المثالب التى ألصقها ابن غرسية بالعرب
إلى صدور العجم فيقول : " ومن الآيات ذكر صواحب الرايات ، والمباضعة

عندكم كالمراضعة ، ما فى السكر عندكم نكر ، تبيحون ولوج العلوج ، على بدور الخدور ، الزنا عندكم سنا ، والفجار بينكم فخار بينكم فخار ، فكيف أنكرت ، ما ذكرت ، وأنت على سنن تلك السنن ، الحال قائمة ، والقصة دائمة ” .

ويفخر (ابن من الله) بأمجاد العرب الذين فتحوا بلاد العجم ، وأخضعوهم لحكمهم فانقادوا لهم أذلة متصاغرين ” فما تعرضك لقوم سلكوا بلادكم ، واستعبدوا أولادكم ، ثم إنهم حين قدروا ، غفروا ، ووضعوا الإتاوة على جماجم ، الأعاجم ، والرسوم فى براجم ، السلاجم ، فلا يحضرون العشار ، إلا بالعثار ، ولا يشهدون الأسواق ، إلا بالأطواق ، فإن دخلتم فى الدين قطعت أستاذكم ، وأن خرجتم منه أخذت التى فيها شفاكم وكنت أنت من رذايا تلك السبايا ، ومن عبايا . تلك الخبايا ، ومن خطايا ، تلك العطايا .. ”

وعلى هذا النحو من الإزراء بالعجم ، والإشادة بالعرب ، يمضى (ابن من الله) فى رسالته ، فيتباهى بما أحرزه العرب من سبق فى شتى المجالات فقد جمعوا الطب فى كلمتين . فقالوا ” إن المدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ” وإذا تبينت فصول بقراط ، أو أصول سقراط ، لن تجد مستزاداً مستجاداً ، كما يفخر بما للعرب من شعر موزون ، ونظم مكنون . وكلام منثور ، وسجع مأثور ..

رد يحيى بن مسعدة :

ظلت أصداء رسالة ابن غرسية تتردد فى الأندلس بصورة قوية فعارضها كتاب عاشوا بعد عصر ابن غرسية على شاكلة يحيى بن مسعدة وهو أحد الأدباء الذين عاشوا فى عصر الموحدين ، وقد أكثر فيها من ذم ابن غرسية

وقومه كقوله : ^(١) " فالتقط يا لقيط غرسية .. " " مثلك يا دمي العجم ، ودمي العجم " .

وعاب عليه كما فعل (ابن من الله) أنه قال العرب بلسانهم ، وتمثل بأشعارهم وتنكر لأفضالها عليه " مالك يا وقاح ، ولهذا الحى اللقاح ، تفوهت بكلامهم ، وفقحت عن أفهامهم ، وأهلك بشعارهم ، وتمثلت بأشعارهم .. هذا جزاؤها فى تدريبك وتعليمك ، وتصريف ألفاتها فى حلقة ميمك ، فلا ماء وجهك أبقيت ، ولا حرج أمك العفلاء أنقيت . وما أنبذك يا نبىذ لدمها وأقل شرك على كفالتها لك وإلقاء أقلامها " .

ويعييره ابن مسعدة بأنه عبد عبدة الأوثان ، ويركز فى هجائه لقوم ابن غرسية على الجوانب المتصلة بالعقيدة كقوله : " يا تبعة المجوس ، وقرعة القرن والناقوس ، ألسنا بالقوس ، وأنتم بالفرقوس ، عبدة التثليث ، وشروة أجزاء الثالث ، لقد أبحتم السفرة للعاصد ، وجئتم بما فضحت قومها غامد " . ويحذو ابن مسعدة حذو سابقيه فى دحضه مزاعم ابن غرسية ، فيردها واحدة بعد واحدة غير أنه يميل إلى التفصيل والإسهاب ، ويكثر من إيراد الشواهد والأمثلة ، حتى لقد غدت رسالته أشبه بمتن من المتون ، فهو بالقياس إلى صاحبيه أمضى سلاحاً ، وأغزر ثقافة ، وأطول نفساً ، وأكثر قدرة على التتبع والاستقضاء .

ورثمة ظاهرة تبدو أكثر وضوحاً فى رسالة ابن مسعدة ، وهى الإكثار من تضمين الشعر كقوله فى هجاء ابن غرسية : ^(٢)

ولا لك دون 'النهى زاجر
ستعلم ويك من الخاسر
كما أبقي الضبع الباسر

أيا عبد عبد ألا نستحي
مواليك أخسرت من شأنهم
فإن تسنج منى بنزع الشوى

^(١) نوادر المخطوطات ١ / ٢٥٦ وما بعدها .

^(٢) نوادر المخطوطات ١ / ٢٨٩ .

فمساء ضلوعك من نطفة ومساء الكراض دم مائـر

ومن خلال هذه الرسائل الأربع التي عرضنا لها يمكن أن نستخلص الحقائق التالية :

أولاً : إن الطريقة التي انتهجها كتاب هذه الرسائل تقترب إلى حد كبير من طريقة شعراء الهجاء ، ولاسيما شعراء النقائض ، إذ نرى فيها كثيراً من صور الهجاء ومعانيه التي نراها في الشعر ، ففيها السب الصريح ، والميل إلى الفحش والإقذاع ، والإلحاح على النيل من نسب الخصم ، وإلحاق المخازى والمثالب بقومه ، وفيها ألفاظ الشتائم التي تجرى على ألسنة الدهماء ، وفيها الإشارات التاريخية والدينية المتصلة بذكر وقائع وأحداث قديمة ، استغلها كل جانب لترجيح دعاواه ، والزراية بخصمه .

ثانياً : أن هذه الردود الكثيرة التي أثارته رسالة ابن غرسية تدل على " أن الشعور بالعروبة كان قوياً في الأندلس على مر الزمن ، وأن السند الشعبي لم يكن على شيء من القوة الأدبية " ^(١)

ثالثاً : أن الرسالة النثرية كانت أظهر من الشعر وأوضح في إبراز النزعة الشعوبية التي احتدمت في الأندلس ؛ إذ أن ما لدينا من شعر يعبر عن هذه النزعة يبدو ضئيلاً متواضعاً بالقياس إلى النثر ، فكان النثر هو القلب الأمثل الذي استغله أدباء الأندلس للتعبير عن هذه النزعة .

^(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الملوك والمرابطين : للدكتور إحسان عباس ص ١٧٢ .

هجاء الفرنجة :

كان هذا اللون من الهجاء وليد الظروف السياسية التي مرت بها الأندلس كما كان ثمرة من ثمرات الصراع بين المسلمين والنصارى .

وإذا كان شعراء الأندلس قد خلدوا انتصارات المسلمين فى قصائد كثيرة أشادوا فيها ببطولة قوادهم وجيوشهم ، فإنهم من ناحية أخرى سخروا فى شعرهم من هزائم أعدائهم ، واستخفوا بملوكهم وقوادهم ، وعبروا عن كراهيتهم لهم فى صور كثيرة .

وتدور معانى هذا الهجاء حول نعت أعداء المسلمين بصفات الجبن والعار والمهانة ، والتنبؤ باندحارهم فى أى حرب يخوضونها ضد المسلمين ، ويكثر الشعراء من رسم صور ساخرة مزرية لهم كقول ابن بقی^(١) :

يا معشر الروم قد شالت نعامتكم	إما من الحين أو من شدة الفشل
لم يكسكم من ثياب الخزى أسبغها	إلا اتقاؤكم للصدر بالكفل
يا ويلكم معشراً بل وبل أمكم	فإنها ولدت للثكل والهبل

ومن هذه الصور التى تصور جبن الأعداء وخورهم أمام بأس المسلمين وشجاعتهم قول ابن حربون^(٢) :

ألم ترقىصر فى ملكه	إلى السلم من بأسكم يهرب
ولماتنله سوى عضة	لها بين أكتافه مقلب

وفى كثير من القصائد يختلط مدح المسلمين بهجاء أعدائهم ، وتلك سمة مميزة لهذا اللون من الهجاء ، فمن ذلك هذه القصيدة لابن حزمون التى يمدح فيها المنصور الموحدى عقب انتصاره فى معركة الأرك سنة ٥٩١هـ . ويهجو فيها أعداء المسلمين ويركز فى هجائه على الجوانب المتصلة بالعقيدة فيرميهم

(١) الذخيرة ٢ / ٢ ص ٦٢١ .

(٢) المن بالإمامة ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

بالكفر والإلحاد والضلال ، ويشيد بالمنصور الذى طهر الأرض من دنسهم
ورجسهم ، على نحو ما نجد فى قوله : ^(١)

أمام الحق وناصره	ظهرت الأرض من الدنس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سناقبس
لاقيت جموعهم وفقدوا	فرصاً فى قبضة مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم	عدداً لم يحص ولم يقس
فأناخ الموت كلاً كله	بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بهامهم	الربض مع الحرب الضرس
فأولئك حزب الكفر ألا	إن الكفار لفى تكس

ويعبر عبادة القزاز عن شماتته لمصرع ابن فردلند - ولعله يعنى غرسية بن
فردلند الذى أسر سنة ٣٨٥هـ فى خلافة المنصور بن أبى عامر - فيقول ^(٢) :

فرقت بين دماغه وفؤاده	وجمعت بين غرابه والسيد
وكانما التابوت حنط شلوه	فأتاك فوق الظهر فى ملحود
أكلت ودبعته الوغى وكانما	رفع الذى أبقته فى سفود
رأس أميل عقوبة إذ لم يذن	لله فى أيامه بسدود
طمحت إليه عيوننا فكانما	رصدت بطلعته هلال العيد

وأدار بعض الشعراء هجاءهم حول تسفيه معتقدات الفرنجة ، فسخروا من
شعائهم وطقوسهم ، وذموا رجال دينهم وأماكن عبادتهم ، كهذه الأبيات لابن
شهيد التى يصور فيها ما يدور فى إحدى الكنائس تصويراً لازعاً واصفاً من
يرتادونها بأنهم ضحايا إبليس ، معرضاً بتصرفات بعض القساوسة ، على نحو
ما يبدو فى قوله : ^(٣)

وكنيسة أخذ البلى منها كما	أبصرت فيناً فى مغار ينهب
كم صاد إبليس بها من تائب	بحبائل ألقى بهن ترهب
وكم ابتنى القسيس فيها منبراً	من جوذر وبدا عليه يخطب

^(١) المعجب ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

^(٢) الشبهات لابن الكتانى ص ٤٦٠ .

^(٣) الذخيرة ٢ / ١ / ص ٦٨٢ .

سقياً لها من دار غي لم يزل فيها كريم بالملاح معذب
بنس المصلى إن أردت تعسداً فيه ولكن كان نعم المشرب

ويحتفظ ابن سعيد بزجل لأبى على الدباغ - أحد زجالى عصر الموحدين
وقد وصفه ابن سعيد بأنه " إمام فى الهجو على طريقة الزجل والقول فى
اللياطة " ^(١) ، وقد نظم هذا الزجل فى هجاء أم شخصى نصرانى يدعى
(الجرنيس النيار) حين ماتت ، وقد مال فيه إلى الإقذاع والفحش ، على نحو
ما يبدو فى قوله : ^(٢)

عزوا إبليس ونوح يا كفار
ماتت أم الجرنيس النيار

* * *

أى عجوز لقد فجح فيها
كل شاطر إن كان فى ذا الجيها
حلفت الموت ألا يخليها
وأى رزىا جرت على الشطار
بها كان الرضى يفوح
إن دعيت للفسوق تقول لبيك
وتزين قبح المعاصى إليك
متحل إبليس حتى تقح فالعار

* * *

لم تخلى لهم فى قاع الدير
غير بطنا وقف مع لفظير
وعرم من خروق لمسح ...
وقد ير تهيج الاسحار

* * *

^(١) المغرب ١ / ٤٣٨ .

^(٢) المغرب ١ / ٤٤٠ وما بعدها .

خرج الروح على دين الربى
وأبومرا يصيح أباحزبى
فى جهنم تركب على ...
مع أبنة القلا وزيك العيار

وبجانب ما فى هذا الزجل من تصوير فاحش وألفاظ بذئية فإن صاحبه يتكىء على الناحية الدينية ويستغلها فى هجائه استغلالاً كبيراً .

وتشير بعض المصادر إلى احتدام بعض معارك الهجاء بين مسلمى الأندلس وبين الفرنجة فمن ذلك ما جاء فى " صلة الصلة " من أن النقفور ملك النصارى بعث بقصيدة نظمها أديب مرتد إلى المعتد بالله ، وذلك عقب استيلاء النصارى على بعض ثغور الأندلس ، فلما وصلت هذه القصيدة إلى مجلس الخلافة وقرئت بين يدى الخليفة ، اهتز الفقيه ابن حزم عند سماعها ، وأخذته الحمية ، فرد على شاعر نقفور بقصيدة طويلة صيغت فى قالب رسالة ، وجهها ابن حزم لنقفور واستهلها بقوله : ^(١)

من المحتمى لله رب العوالم	ودين رسول الله من آل هاشم
محمد الهادى إلى الناس بالتقى	وبالرشد والإسلام أفضل قادم
عليه من الله السلام مردداً	إلى أن يوافى البعث كل العوالم
إلى قائل بالإفك جهلاً وضلة	عن النقفور المنتزى فى الأعاجم

ويشير ابن حزم إلى استيلاء النصارى على بعض الثغور فيقول :

سلبناكم دهرأ فلدتم بكرة	من الدهر أفعال الضعاف العزائم
فحترتم سروراً عند ذاك ونخوة	كفعل المهين الناقص المتعاضم
وما ذاك إلا فى تضاعف غفلة	عرتنا وصرف الدهر جسم الملاحم

قتلعة من شعر ابن حزم ، أوردها الدكتور إحسان عباس فى كتابه تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة
ص ٣٧٤ وما بعدها .

ويذكر ابن حزم النصارى بأمجاد المسلمين وما أحرزوه من انتصارات على الروم فى السياسة والحرب ، وهو لا يصدر فى ذلك عن نزعة إقليمية ، ولكنه يصدر عن عاطفة دينية عامة ، فيذكر بفتوحات المسلمين فى الشام والأندلس ومصر وصقلية وغيرها من الأقطار :

ألم ننتزع منكم بأيد وقوة	جميع بلاد الشام ضربة لازم
ومصر وأرض القيروان بأسرها	وأندلساً قسراً بضرب الجماجم
ألم تنتصف منكم على ضعف حالها	صقلية فى بحرها المتلاطم
أليس يزيد حل وسط دياركم	على باب قسطنطينة بالصوارم
ومسلمة قددا سها بعد ذاكم	بجيش لهام كالليوث الضراغم
وأدى لهارون الرشيد مليكم	إتاوة مغلوب وجزية غارم

ويشير ابن حزم إلى سبايا الروم فيقول

ليالى قدناكم كما اقتاد جازر	جماعة أتياس لحز الحلاقم
وسقنا على رسل بنات ملوككم	سبايا كما سيقن ظباء الصراجم

ويتكىء ابن حزم فى هجائه للنصارى على الجوانب المتصلة بالعقيدة ، على نحو ما يبدو فى قوله :

أيقرن يا مخدول دين مثلث	بعيد عن المعقول بادی المآثم
يدين لمخلوق بدين عبادة	فيالك سخفاً ليس يخفى لكاتم
أنا جيلكم مصنوعة متكاذب	كلام الألى فيما أتوا بالعظامم
وعود صليب لا تزالون سجداً	له يا عقول الهاملات السوانم
إلى ملة الإسلام توحيد ربنا	فما دين ذى دين لنا بمقاوم
وصدق رسالات الذى جاء بالهدى	محمد الآتى بدفع المظالم
فلم تمتهنه قط قوة أسر	ولا مكنت من جسمه يد لاطم
كما يفتري زوراً وإفكاً وضلة	على وجه عيسى منكم كل آثم
على أنكم قد قلتم هو ربكم	فيا لضلال فى الحمافة جائم
أبلىطم وجه الرب تباً لجهلكم	لقد فتم فى ظلمكم كل ظالم
أبى الله أن يدعى له ابن وصاحب	سيلقى دعاة الكفر حالة نادم

والقصيدة تسيطر عليها عاطفة دينية قوية ، وترتفع فيها نغمة الحماسة والحدة ، غير أن صدورها عن البديهة والارتجال أفقدها كثيرا من المقومات الفنية .

وعلى أية حال ، فقد أثارت قصيدة شاعر نقفور ما أثارت رسالة ابن غرسية من قبل ، فلم يكن ابن حزم وحده هو الذى تصدى للرد عليها وإنما شاركه فى ذلك شعراء آخرون على شاكلة أبى بكر القفال الشاشى ، وأبى الإصبغ عيسى ابن زورال الغرناطى^(١) .

•

.

^(١) فهرست ابن خير الاشبلى ص ٤٠٩ .

الفصل الثاني

هـاء أصحاب المناصب الرسمية

- هـاء الوزراء
- هـاء الولاية والعمال
- هـاء القضاة
- هـاء الفقهاء

لم يكتف الشعراء بهجاء الحكام وانتقاد تصرفاتهم وفضح أساليبهم ، بل وجهوا سهامهم أيضاً إلى كل من يعمل في خدمتهم ، ولم يسلم أحد ممن شغل مناصب رسمية من ألسنتهم كالوزراء والولاة والعمال والقواد لأنهم يمثلون السلطة بشكل أو بآخر ، ولأنهم ينفذون سياسة الحاكم أياً كان لون هذه السياسة ، ولم يقف الشعراء بهجائهم عند طبقة الوزراء والقواد وحدهم ، بل اتجهوا بهجائهم إلى القضاة والفقهاء الذين مالئوا السلطة وتخلوا عن رسالتهم تحقيقاً لمصالح شخصية أو مطامع رخيصة .

هجاء الوزراء :

يمكن أن نميز اتجاهين واضحين في هجاء الوزراء . أحدهما ، صدر فيه أصحابه عن دوافع سياسية ، والآخر صدر فيه أصحابه عن دوافع ذاتية ويمكن أن نمثل للاتجاه الأول بقول من يسمى ابن الربيع في هجاء حكم بن سعيد الحائك وزير المعتد بالله : ^(١)

هـبـك كـمـا تـدـعـى وـزـيـراً وـزـيـر مـن أنـت يا وـزـيـر
وآلله ما للأمير معنـى فكيف مـن وـزـر الأمـير

غير أن أغلب هجاء الشعراء للوزراء كان يختفى وراءه بواعث ذاتية ، إذ كان منصب الوزراء مطمحاً للكثيرين ، فكان هجاء الوزراء في معظمه ناجماً عن حقد وضغينة للمكانة التي يتبوها هذا الوزير أو ذاك ، وقد يصب الشاعر هجائه على أحد الوزراء لأنه امتنع عن لقائه ، أو حجبته عنه لأنه لم يقيد اسمه فيمن يأخذون الهبات والعطايا ، ولابن شهيد بعض قصائد في هجاء الوزراء ، صدر فيها عن دوافع ذاتية . فمن ذلك ما يذكره الحميدى من أن ابن شهيد ذهب ذات مرة للقاء أحد الوزراء ولكنه امتنع عنه ، فهجاه بقوله : ^(٢)

أتيناك لآسن حاجة عرضت لنا إليك ولا قلب إليك مشوق

^(١) البيان المغرب ص ١٤٧ (طبعة ليفي بروقتال) .

^(٢) جذوة المقتبس ص ١٢٣ . ديوان ابن شهيد ص ٨ .

ولكننا زرننا بفضل حلومنا حماراً تلقى برنا بعقوق

وتذكر الروايات أن العداء تفاقم بين ابن شهيد وبين وزيرين أحدهما يدعى أبا الحسن بن علي والآخر هو ابن فتح ، وقد هجاهما ابن شهيد هجاء مرأ واصماً إياهما بالوقوع في خلة اللواط ، ملوحاً إلى ذلك بكلمة القرد ، وفي ذلك يقول : ^(١)

هلا سترت الشين بالزين	من قبل إحضار الوزيرين ؟
قد علما أنهما أحضرا	لخلوة أثقل من دين
لما تدانت قباب قوسين	أصابهما الحاسد بالعين
فانصرفا مثل انصراف الفتى	أسلم ألفاً ليد السبين
صدهما عن قردك المصطفى	نطحه نطاح بروقين
وما أرى الناس على ما مضى	من قبله قرداً بقرنين
أربعة في مجلس جمعوا	فطار همدان بهذين
قد لزما جنبك لم يبرحا	لهفى على ضيعة جنبين
فأنت ما بينهما جالس	جلوس أيسر بين خصيين

ويهجو ابن شهيد الوزير ابن فتح في قطعة نثرية ملوحاً بكلمة القرد مرة أخرى إلى تلك العادة الذميمة التي رماه بها فيقول : ^(٢) " ما كان هذا القرد أهلاً لأن يحمل عليه حر كلام ، ولا ليرمى بفضل بيان ، وبالحر أن يرقم على عتبة دكان ، أو يصور على باب حمام ، وقد غرس في وجعائه رأس نخلة ، وحيى في سعفها عش نخلة "

ويعد ابن سهل اليكى أحد الشعراء الذين أكثروا من هجاء الوزراء . كقوله في ابن خيار الوزير : ^(٣)

^(١) الذخيرة ١ / ١ / ص ٢١٤ ، ديوان ابن شهيد ص ١٦٤ .

^(٢) ديوان ابن شهيد ص ٣٤ .

^(٣) زاد المسافر ص ١٢٢ .

أبا ابن خيار بلغت المدى وقد يكسف البدر عند التمام
فأين الوزير أبو جعفر^(١) رأين (المقرب) عبد السلام^(٢)

وقد أولع إليكى بهجاء وزير يدعى أبا الحسن وأفحش كثيراً فى هجائه
كقوله : ^(٣)

ثمان خصال فى الوزير وعرسه وثنان والتحقيق بالمرء أليق
(.....)^(٤) وتزنى فعلها مثل فعله فإن لاط يوماً فهى لاشك تسحق
ويكذب أحياناً ويحلف حانثاً ويكفر تقليداً ويزنى ويسرق
وعاشرة والدنس فيها لأمه إذا ذكرت لم يبق للشم منطلق

وأفحش فى هجائه مرة أخرى فقال : ^(٥)

أخاف من الجوارح أن يلموا ومالى بالجوارح من يدين
فإما تدخلونى حرح أسما^(٦) فأقلب كل ذى نظرو عين
وإلا فارفونى إن قدرتم على قرن الوزير أبى الحسين

وكان الفحش والإقذاع والتشهير هى الصفات الغالبة على هجاء الوزراء
فأكثر الشعراء من رميهم بالفسوق ، واتهامهم بأهلهم بارتكاب الأفعال القبيحة ،
على نحو ما رأينا فى هجاء ابن شهيد واليكى ، وقد شارك الأعمى المخزومى
فى هذا الاتجاه ، فقال يعرض بأبناء أحد الوزراء : ^(٧)

زنجيكم بالفسوق دارى بدلى من الحرص كالحمار
يخلو بنجن الوزير سرأ فيولج الليل فى النهار

^(١) هو أبو جعفر بن عتبة الذى أمر عبد المؤمن بن على بصلبه .

^(٢) هو عبد السلام الكومى الملقب بالمقرب ، أحد وزراء الموحدين ، وقد مات مسموماً .

^(٣) زاد المسافر ص ١٢٢ .

^(٤) حذفنا الكلمة الصريحة لقبحتها ، وهى بتيغة المضارع المبني للمجهول ويسكن فیهما من الياق .

^(٥) حريده القنصر ٣ / ٥٨٠ .

^(٦) أسماء هى زوجة الوزير .

^(٧) السعرب ١ / ٢٣١ .

ولابن الخطيب قصيدة طويلة في هجاء الوزير ابن أبي الفتح ، نظمها بعد جلاء هذا الوزير في الجفن إلى الإسكندرية ، وبعد أن تحقق من هلاكه هو ومن معه ، وقد بدأها ابن الخطيب بقوله ^(١)

كن من صروف الردى على حذر	لا يقبل الدهر عذر معتذر
ولا تعول فيه على دعة	فأنت في قلعة وفي سفر
فكل رى يفضى إلى ظمأ	وكل أمن يدعو إلى غرر
كم شامخ الأنف ينثنى فرحاً	بال عليه زمانه وخرى

وبعد هذا التمهيد يخلص ابن الخطيب إلى هجاء ابن أبي الفتح ، فينسب إليه كل منقصة ، ويرميه بالبلادة والشؤم كقوله : ^(٢)

قل للوزير البليد قد ركضت	في ربك اليوم غارة الغير
يا ابن أبي الفتح نسبة عكست	فلا بفتح أنت ولا ظفر
وزارة لم يجدد مقلدها	عن شئنها في الوجود من وزر
في طالع النحس حزت رتبته	وكل شيء في قبضة القدر

وتقترب طريقة ابن الخطيب في هذه القصيدة من النزعة الشعبية سواء في أسلوبه أو في ألفاظه وصوره ، فهو يكثر من ألفاظ الشتم والسباب مستخدماً حرف النداء (يا) بكثرة كقوله : ^(٣)

يا طللاً ما عليه من عمل	يا شجراً ما لديه من ثمر
يا مفرط الجهل والغباوة لا	يحسب إلا من جملة البقر
يا دائم الحقد والفظاظة لا	يغرق ما بين ظالم وبرى
يا كمد اللون ينظفي كمداً	من حسد يستطير بشرر

ويتأنق ابن الخطيب في هجائه للوزير ابن أبي الفتح ، ويعمد إلى (التصوير الهزلي) فيصوره في صورة هزيلة ساخرة تستدعي الضحك ، كقوله : ^(٤)

(١) نفح الطيب ٥ / ١٤٠ .

(٢) نفسه ٥ / ١٤٠ .

(٣) نفح الطيب ٥ / ١٤١ .

(٤) نفسه ٥ / ١٤١ .

يا عدل سرج يا دن مقتعد	ملآن من ردية ومن قدر
يا واصلا للجشاء ناشئة الليد	سل ورب الضراط فى السحر
يا ناقص الدين والمروءة والعق	سل ومجرى اللسان بالهدر
يا ولد السحق غير مكنتم	حديثه ، يا ابن فاسد الدبر
يا بغل طاحونة يدور بها	مجتهد السير مغمض البصر
فى اشهر عشرة طحنتهم	فبارحى الشؤم والى بوار در
عهدى بذاك القفا الغليظ وقد	مد لوقع المهند الذكر

وعلى هذا النحو يمضى ابن الخطيب فى هجائه ، رامياً المهجو بأقذع الصفات ، مظهراً الشماتة لهذا المصير المؤلم الذى لقيه ابن أبى الفتح حين مات غرقاً .

هجاء الولاة والعمال :

كان الولاة والعمال من أهم الركائز التى يعتمد عليها الحكام فى تسيير دفة الحكم ، وكان على هؤلاء العمال أن يديروا أعمالهم على أسس من العدالة والنزاهة وطهارة اليد ، ولكن كثيراً منهم انحرف عن مهمته المنوط بها ، فاستخدموا أساليب القسوة والغلظة فى معاملة الناس ، ولم يتورعوا عن ارتكاب الموبقات ، واتجهوا إلى تكديس الأموال بالطرق غير المشروعة ، وتصدى الشعر لهؤلاء المنحرفين ، فكشف عن فسادهم ، وفضح أساليبهم الملتوية ، فمن ذلك قول ابن حزمون فى هجاء المجريطى أحد عمال مرسية يتهمه بالنهب وسرقة أموال الدولة : ^(١)

إلى الله أشكو مشرباً إلى الغنى	حريصاً على كسر المخازن حافزاً
ألا إن قارون استعز بكنزه	فواها لمن أضحى كقارون كانزاً
فما باله استغنى فنهه واجباً	وجوز ما لم يجعل الله جائزاً

^(١) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ١٤٤ .

ويعبر يحيى بن الحكم الغزال عن نظرة الناس عامة لأولئك العمال ، فهم يأكلون أموال الناس ، ويستأثرون بالخيرات لأنفسهم ، ولا يتركون للرعية إلا الفتات ، يقول : ^(١)

يقول لنا القاضي (معاذ) مشاوراً	وولى أمراً فيما يرى من ذوى الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعاً	فقلت وماذا يصنع الدب بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها	ويترك للذبان ما كان من فضل

ويصوب أبو محمد بن عبد الله سهامه إلى صاحب إشبيلية ، فيقول : ^(٢)

لا تبأسن من الخلافة بعدما	ولى ابن عمرو خطة الأشراف
تسبالدهر هذه أفعاله	يضع السوافج فى يدي كساف

ويتجه ابن القزاز بهجائه إلى صاحب الشرطة ويتندر عليه فيقول : ^(٣)

أبنا عامر ماذا أتيت من العار	فها أنت من ثوب العلافى الورى عارى
تبدلت شرطياً بصاحب شرطة	كريم نجار النفس ممتنح الجار
فأصبحت كالطرطور كان لسيد	فأخلق حتى صار فى رأس عيار

ويقول حبلاص الرندى فى هجاء أحد الولاة : ^(٤)

لا تفرحن بولاية سوغتها	فالثور يعلف أشهراً كى يدبها
------------------------	-----------------------------

ويحتفظ صاحب خريدة القصر بغير قصيدة لأبى عامر بن الأصيلى فى هجاء

عمال ابن ذى النون ورؤساء حصونه ، فمن ذلك قوله : ^(٥)

قل لابن ذى النون الرئيس الذى	ليس له شىء من البخت
يا مالكاً يجعل قواده	قوماً غدوا عليه باللفت
جاءوا على الشرق جياً فما	يشبعهم شىء من السحت

^(١) قنطرة قرطبة ص ٨٦ .

^(٢) نفع الطيب ٤ / ٤٦٥ .

^(٣) الدخيرة ١ / ٢ / ص ٨٠٤ .

^(٤) نفع الطيب ٤ / ١٣٣ .

^(٥) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

من كل حنراث له لحية	تدهن بالشحم وبالزيت
إن صار في حصن رأى أنه	قد أدخل العالم في تخت
يحسد فرعون على قوله	" وهذه الأنهار من تحتي "
ما هذه الأشباح تبأ لها	قد ملئت بالسفاهة البحت
هيئات لا حر ولا حرة	في باب إقليش إلى البونت

ويبدو أن ابن الأصيلي قد مر بتجربة مريرة مع رؤساء الحصون ، ففي قصيدة أخرى يذم رؤساء جزيرة شقر لأنهم منعه من دخول المدينة : ^(١)

حللت الجزيرة سحفاً لها	كأنى حللت بسر دانيه
منعت الدخول إلى أهلها	فدنت كما دارت الساقية
وبت ثلاثاً بها طاوياً	قراى همومسى وأحزانى
فقل لابن ذى النون ما باله	يولى الحصون بنى الزانية
وإن فعال ببنى آدم	لتبقى وأشخاصهم فانيه

وفى قصيدة ثالثة يذم ابن الأصيلي رئيس حصن بلنسية للسبب نفسه ويتصف هجاؤه بالدعابة والسخرية كقوله : ^(٢)

حتى إذا رمت دخولا أبت	نفس أبى الحجاج لى بالدخول
راسلته مستنزلاً راغباً	فكاد أن يقطع رأس الرسول
أكرم به من قائد ماجد	يصلح للحرث ورعى العجول
لابد لى إن عشت والله أن	أخرى على لحيته أو أبول

وهذه الأمثلة التي أوردناها لابن الأصيلي تكشف عن روح مرحة ، ونفس طبع على الخفة والدعابة .

^(١) خريدة القصر ٢ / ٢٠٩ .

^(٢) نفس ٢ / ٢٠٩ . ٣١٠ .

هـجاء القضاة :

يحتفظ (الخشني) بصورة مشرقة لكثير من قضاة الأندلس الذين عرفوا بالنزاهة ، وشهروا بالتقوى والورع ، غير أن بعض القضاة حادوا عن الجادة فلم يتخرجوا من قبول الرشوة سعياً لتحقيق كسب رخيص ، وتهاون بعضهم في إقامة الحدود . ومال آخرون إلى القسوة والغلظة في معاملة الناس ، وقد تصدى الشعراء لأمثال هؤلاء القضاة ، فأكثروا من هجائهم وتتبع زعمهم وانتقاد تصرفاتهم المخزية ، فمن ذلك قول اليكبي في أحد قضاة مرسية : ^(١)

تسمع أمير المسلمين لنبأه	تصم لها الأذان في كل مشهد
بمرسية قاض تجاوز حسده	وأخطأ وجه الرشد في كل مقصد
يطلبه الأيتام في جل مالهم	ويطلبه في حقه كل مسجد
فما بيضت كفاك بالعدل لم تزل	تسوده بالجور كف ابن أسود

ويتهم ابن القطان (ت ٥٥٨ هـ) القاضي ابن المرخم بالجهل في تطبيق الأحكام فيقول : ^(٢)

يا ابن المرخم صرت فينا قاضياً	خرف الزمان تراه أم جن الفلك
إن كنت تحكم بالنجوم فربما	أما بشرع محمد من أين لك ؟

ويتهم يحيى بن الحكم الغزال القاضي يخامر بن عثمان الشعباني بالتخبط في تطبيق الأحكام فيقول : ^(٣)

فقلت له كلفتني غير صنعتي	كما قلندوا فضل القضاء يخامرا
فأصبح قد حارت به طرق الهوى	يكابد لجيا من البحر زائرا
فقلت له استعفيت منها ، فقال لي	سأفصح ما قد كان ذاك مغائرا
فقلت له رأس الفقوح إقامته	علينا كذا من غير علم مكابرا
وخبطك في دين الإله على عمي	خباطة سكران تكلم سادرا

^(١) المغرب ٢ / ٢٧٠ .

^(٢) نفع العليب ٢ / ١٣٥ .

^(٣) الممتنع (تحقيق د. مكى) ص ٢٠٠ .

فلن تحمل الصخر الدباب ولن ترى السـلاحف يزجين السفين المواخرا

وكلف عبد الرحمن بن مغاور الشاطبي (ت ٥٨٧ هـ) بهجاء قاض يدعى (ابن بيش) ، فتحول عنده إلى أمثلة ، وأسرف في التشهير به ، والتهكم عليه ، واتهمه بتعطيل الحدود وتزييف الأحكام ، وتحليل ما حرم الله ، والعكوف على الخمر ، والجري وراء مصالحه الخاصة ، فمن ذلك قوله : ^(١)

لا تظنوا ابن بيش	ففي قضاياه يرتشى
إنما الشيخ هاهل	فهو يصحو وينتشى
فترى الحكم غدوة	وترى النقص بالعشى

ويتندر عليه مرة أخرى فيقول : ^(٢)

الحمد لله بلغنا المني	لا حد في الخمر ولا في الفنا
قد حلل القاضي لنا ذاوذا	وإن شكرناه أحل الزنا

ويبالغ في التشهير به فيقول : ^(٣)

قال ابن بيش المشهور موضعه	قولا يعاب عليه آخر الأبد
الخمر والزمر والفحشاء أجمعها	حل وبلى وتبقى خطنى بيدي

ومال بعض الشعراء في هجائهم للقضاة إلى الإقذاع كما نجد في هجاء المخزومي الأعمى لقاضى بياسة ، فهو يستغل أحد عيوبه الخلقية استغلالاً سيئاً ، فيقول : ^(٤)

أصخ للذى لم يأت دهر بمثله	لعمري ولم يسمع به قط سامع
لبياسة قاض قطيم مثولل	ثواليله من أن (...) موانع
فراحتة في أن يرى (...) عرسه	كذى العر يكوى غيره وهو رانع ^(٥)

^(١) زاد المسافر ص ٨١ .

^(٢) نفسه ص ٨١ .

^(٣) نفسه ص ٨١ .

^(٤) نفسه ص ١١٧ .

^(٥) الشعر الثاني من هذا البيت للناطقة الدياننى .

وقد وقف بعض القضاة من شعراء الهجاء موقفاً حازماً ، فعندما هجا أبو بكر ابن الحاج القاضي ابن توبة ، أتى به القاضي ، وضربه ضرباً موجعاً وأمر فطيف به على الأسواق ، والناس يصيحون به من أمام . ويضربونه من خلف ، وأشار أبو إسحاق الإلبيري إلى هذه الحادثة معبراً عن تشفيه وغبطته للعقاب الذي ناله ابن الحاج ، فقال : ^(١)

السوط أبلغ من قال ومن قيل	ومن نباح سفيه بالأباطيل
مر المذاق كحر النار أبرده	يعقل المستعاطى أى تعقيل
رأى من الطب ما بقراط لم يره	فى برء كل سخيى العقل مخدول
ضئيل جسم تهاب الخيل سطوته	أعدى وأطغى من التماسح فى النيل
يرقص المرء ترقيصاً بلا طرب	لو كان أثقل أو أجسامن الفيل
عند السخيف به خبر وتجربة	فقد رمى تحته ما عد بالفول
وقد حسا منه أمراً مغلغلة	جشته شر الجشا من شر مأكول
وقد هجاه بهجو مؤلم وجع	لا يشبه الشعر فى نظم وتفصيل
فقل له إن جرى هجو بخاطره	أذكر قيامك محلول السروايل
واذكر عقوبة ما زورته سفهاً	فى السادة القادة الشم البهاليل

وقد شارك النثر أيضاً فى هجاء القضاة ، فهناك رسالة لأحد الكتاب كتبها على لسان على بن يوسف بن تاشفين ساخراً فيها من القاضي ابن أضحى الغرناطى بعد أن عزلته عن قضاء المرية ، متهماً إياه بالجهل بأحكام القضاء وفيها يقول : ^(٢) " ... وتقرر لدينا أن الجهول بن أضحى أجهل بأحكام القضاء من الهلجوم ، إذ قد أظهر فيكم أحكاماً يترحم فيها على سدوم ، وقد جعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم ، وقلدناه خطة الشوم ، ونبذناه دون أن تداركه نقمة من ربه بالعراء وهو مذموم ، ولعل متعسفاً يتعسف ، وجائراً لا ينصف ، يلومنا فى تقديمه . وينالنا من العتب بأليمه . ولا قدح فقد اختار رسول الله صلعم لروحى الله لعين بنى سرح ، وقد اغتر عثمان بحمران . ولسنا أول من خانته القياس ، ومن لم يأت من الغوير باس " .

^(١) ديوان الإلبيري ص ١٠٩ - ١١٠ .

^(٢) معجم السلفى ورقة ١٢١ - ١٢٢ .

هجاء الفقهاء :

بلغ الفقهاء منزلة عزيمة في الأندلس ، وقوى نفوذهم في فترات كثيرة حدث ذلك في قرطبة أثناء حكم هشام ، فكانوا يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة ، وحين حاول عبد الرحمن الثاني أن يحد من سيطرتهم ، هاجموا من على المنابر ، وألبوا الناس عليه ، واتهموا بالإسراف والبدخ ، فحرض الحكم الشعراء على هجائهم ، فكان ممن هجاهم عباس بن فرناس ، والحكم بن يحيى الغزال الذي اتهمهم باستغلال نفوذهم ، وجمع المال بطرق غير مشروعة فقال : ^(١)

لست تلقى الفقيه إلا غنياً	ليت شعري من أين يستغنونا
تقطع البر والبحر طلاب الرز	ق والقوم هاهنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا	لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وأشار الأمير عبد الله بن بلقين في مذكراته إلى احتفاء الأندلس بالفقهاء فقال : ^(٢) " ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً عامرة بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، واليهم كانت الأمور معروفة ، إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده .. وكان منهم أصحاب الأمر والنهي إلى جانب الحكام أنفسهم ، كما كانت الحال في قرطبة أيام بني جهور ، وكذلك كانت شئون دولة بني ذي النون بطليطلة موكولة إلى الفقيه أبي بكر الحديدي ، كما ان بلنسية أسلمت أمرها في إحدى مراحل تاريخها إلى القاضي ابن حجاف " ، وأشار ابن الخطيب إلى إثارة بني عامر للفقهاء فقال عن زهير العامري : " إنه كان يشارو الفقهاء ويعمل بقولهم " ^(٣) كما ذكر أن مجاهداً العامري نصب بمحل ملكه خليفة دعا الناس إليه وهو الفقيه المعيطي ، ... ، وكان في عداد الفقهاء

^(١) شعر يحيى بن الحكم الغزال ، جمع صالح البيداني ، ص ٣٦ .

^(٢) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧ - ١٨ .

^(٣) أعمال الاعلام ص ٢٠٦ .

المشاورين بقرطبة ، فنصبه خليفة وأخذ له على الناس البيعة ، فاستبد المعيطى بالناس ، واستأثر بالفى ، وجاهر بالمعاصى ” .

وارتفع شأن الفقهاء أيضاً فى عصر المرابطين ، وكثرت أموالهم ، وأشار إلى ذلك المراكشى فقال - وهو يتحدث عن ولاية على بن يوسف بن تاشفين :

” واشتد إيثاره لاهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم . وأحكامهم - صغيرها وكبيرها - موقوفة عليهم ، طوال مدته ، فعظم أمر الفقهاء ، وانصرف وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك ، واتسعت مكاسبهم ^(١) .

وقد أثار وضع طبقة الفقهاء انتقادات عنيفة ، سواء من المؤرخين أو الأدباء ، وإذا كان المراكشى قد ألح إلى ما غنموه من مكاسب ، وما شغلوا به أنفسهم من جمع للأموال على حساب ضمائرهم . فإن مؤرخاً سابقاً عليه - هو ابن حيان - قد أعلن رأيه صراحة فيهم ، فالتقى بالتبعة عليهم ، واتهمهم بالرياء ومصانعة الأمراء ، ورماهم بالعود عن الحق ، والتخبط فى الأهواء فقال : ” ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين ، هم كالمالغ فيهم : الأمراء والفقهاء ، قلما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفهم لدينا . بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه . فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الصريق زياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أثمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكده الله تعالى عليهم . من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من

^(١) السحب من ٢٣٥ .

حلوائهم ، وخابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ في التقية في صدقهم " (١) .

وقد اشتد هجاء الفقهاء في عصر المرابطين بعد أن أحس الشعراء بارتفاع شأنهم أكثر من أي وقت مضى ، وبعد ما رأوه من تكالبهم على جمع الثروات ومصانعتهم للحكام ، وانصرافهم عن مصالح الناس ، واستغلال نفوذهم في تحقيق مآربهم الخاصة ، فقال فيهم أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالابيض : (٢)

أهل الرياء لبستم ناموسكم	كالذئب بدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك	وقسمتم الأموال بابن القاسم (٣)
وركبتم شهب البغال بأشهب (٤)	وبأصبغ (٥) صبغت لكم في العالم

وقال فيهم ابن خفاجة : (٦)

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم	فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرية	في أخذ مال مساجد وكنائس

ومن الطريف أن نجد بعض الفقهاء يقحمون أنفسهم في معارك هجائية مع بعض الشعراء ، فقد ذكر أن الفقيه ابن ميمون القرطبي كان يتهاجى مع ابن سهل اليكبي ، ومما قال له فيه اليكبي : (٧)

قالوا : هجاك ابن ميمون فقلت لهم	يا ليت شعري من الهاجى فأدريه
قالوا الفقيه الذى من أرض قرطبة	قلت : الفطيم ؟ فقالوا كلهم : إيه

(١) نفح الطيب ٦ / ١٩٦ .

(٢) نفح الطيب ٣ / ٤٤٨ .

(٣) هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم تلميذ الإمام مالك توفي ١٩١ هـ .

(٤) هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيس الفقيه كان صاحب الإمام مالك وتولى ٢٠٤ هـ .

(٥) هو أصبغ بن الفرج ، فقيه من كبار المالكية بمصر توفي ٢٢٥ هـ .

(٦) نفح الطيب ٤ / ٢١٨ .

(٧) المن بالإمامة ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

ويقذع المخزومي الأعمى في هجائه لأحد الفقهاء فيقول : ^(١)

طبنكم هذا الفقيه محقق	باق على عهد الصديق مقيم
شهدت عليه باللواط جماعة	والله يعلم أنه مظلوم
ساء الفقيه بأننى متخلع	ويسرنى أن الفقيه قسيم

راد السافر ص ١١٨ .

الفصل الثالث

هجاء العلماء وأصحاب المهن

- هجاء المعلمين والمؤدبين
- هجاء النحاة
- هجاء الفلاسفة
- هجاء أصحاب العلوم الطبيعية
- هجاء الكتاب

حمل الشعراء على طائفة من العلماء عرفوا بالتعصب المقيت ، والتزمت
البغيض ، ومالوا إلى الجدل العقيم الذى لا فائدة منه ، ولا طائل من وراءه فلا
تجرى على ألسنتهم غير كلمات عفنة تنبىء عن جمود وقصور ، وقد أشار منذر
ابن سعيد إلى هذا الصنف من العلماء فقال : ^(١)

عديرى من قوم يقولون كلما	طلبت دليلاً هكذا قال مالك
فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب	وقد كان لا تخفى عليه المدارك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله	ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
إن قلت قال الله ضجوا وأكثروا	وقالوا جميعاً أنت قرن مماحك
وإن قلت قد قال الرسول فقولهم	أنت مالكاً فى ترك ذلك المسالك

ويسخر عبد المنعم بن مظفر الغسانى الجليانى من أولئك الذين يتظاهرون
بالعلم ، ويلجئون إلى السفسطة الجوفاء ، ولا تتردد على ألسنتهم إلا كلمات
بلهاء تدل على جهل وقلة إدراك ، يقول : ^(٢)

يا ساهراً فى اقتناء علم	يخطب منه مقام محكم
بدون هذا ترى فقيهاً	فوسع الحكم ثم عمم
والبس مع الشهب طيلساناً	واغمده فى المنكبين واختم
واجلس مع القوم فى جدال	لا بالبخارى ولا بمسلم
إلا صياحاً ونقض كم	ونظم "لا لا" وقول "لم لم"
فما أرى عندهم علوماً	أكثر من "لا و" لا أسلم

وكان ابن شهيد أحد الذين حملوا على هذه الطائفة من المعلمين والعلماء
الذين لم يرزقوا إلا بأذهان صدئة ، وعقول عفنة ، وقد وصفهم بقوله ^(٣) :
" وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو وحفظ كلمات عن
اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فطن

^(١) أدب الفقهاء ص ١٦٢ .

^(٢) النصوص البائنة ص ١٠٧ .

^(٣) الذخيرة ١ / ١ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

حمئة ، وأذهان صدئة ، سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص والإيقاع ، والزمر على الألحان "

والى هذه الطبقة من العلماء يشير ابن شهيد فى قوله : ^(١)

وناقل فقه لم ير الله قلبه يظن بأن الدين حفظ المسائل

وتبرم الشعراء بالنعاة الذين يتصيدون أخطاءهم ويقفون لهم بالمرصاد فيما ينظمون ، فهجوهم وسخروا منهم كما نجد فى قول أحد الشعراء ^(٢) :

ماذا لقيت من المستعربين ومن	قياس قولهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بكرة يكون لها	معنى يخالف ما قالوا وما وضعوا
قالوا : لحنى وهذا الحرف منتصب	وذاك خفض ، وهذا ليس يرتفع
وضربوا بين عبد الله واجتهدوا	وبين زيد فطال الضرب والوجع

وكانت أعين الشعراء أشبه بعدسة تلتقط كل ما يقع أمامهم من عيوب ، فإذا أخطأ نحوى أو فقيه أو قارىء ، تصيد الشعراء هذا الخطأ ، وأبرزوه بطريقة تضمن له الذبوع والانتشار على ألسنة الناس .

هجاء الفلاسفة :

أنجبت الأندلس عدداً من كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وغيرهم ، وحظى هؤلاء الفلاسفة بمنزلة رفيعة فى عصورهم بيد أنه كان يوجد تيار يناصب الفلاسفة الأعداء ، يتزعمه الفقهاء وبعض رجال الدين ، وكانوا يروجون له فى أوساط الدهماء وعامة الناس ، كما كانوا يحاولون تأليب أصحاب السلطة على المشتغلين بالفلسفة . وترددت أصدااء هذا التيار واتهموهم بالخروج على مبادئ الدين ، وقد مال بعضهم إلى التعميم فى هجائه فلم يصرح بأسماء فلاسفة بعينهم ، بينما مال آخرون إلى التخصيص والتصريح ، على نحو ما نجد فى قول بعضهم يهجو مالك بن وهب الفيلسوف وكان على بن يوسف

^(١) الدخيرة ٢٠٦ / ١ / ١ .

^(٢) نفح العليب ١٤٤ / ٤ .

ابن تاشفين قد استدعاه من إشبيلية إلى (مراکش) وصيره جليسه وأنيسه مما
أثار حقد بعض الناس وغضبهم ، فكان مما قيل فيه : ^(١)

دولة لابن تاشفين على ظهرت بالكمال من كل عيب
غير أن الشيطان دس إليها من خباياه مالك بن وهيب

وكان (ابن جبير) أحد الذين شنوا حرباً ضارية على الفلاسفة ، فله
شعر كثير في ذمهم وهجائهم حسبما يذكر عبد الملك المراكشي ^(٢) ، وتدور
معانيه في هجاء الفلاسفة حول اتهامهم بالمروق والإلحاد وإباحة المحظور ،
وارتكاب ما ينكره الدين ، وأنهم لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ، ولا يعلنون
كفرهم خوفاً من العقاب وإقامة الحدود عليهم ، فمن ذلك قوله : ^(٣)

لأشباع الفلاسفة اعتقاد يرون به عن الشرع انحلالاً
أباحوا كل محظور حرام وردوه لأنفسهم حلالاً
وما انتسبوا إلى الإسلام إلا لصون دمائهم أن لا تسالاً
فيأتون المناكر في نشاط ويأتون الصلاة وهم كسالى

وتتسع حملة ابن جبير على الفلسفة لتشمل المشتغلين بها من الأندلسيين
والمشاركة كابن سينا والفارابي ، فيقول : ^(٤)

قد ظهرت في عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى في الدين إلا بما سن ابن سينا وأبو نصر

ويتهم الفلاسفة مرة أخرى بالخروج عن الدين وادعاء الحكمة وشغل
أنفسهم بالسفه فيقول : ^(٥)

يا وحشة الإسلام من فرقة شاغلة أنفسها بالسفه

^(١) نفح الطيب ٤٧٩ / ٣ .

^(٢) انظر : الذيل والتكملة ٥ / ٢ / ص ٦١١ .

^(٣) نفسه ٥ / ٢ / ص ٦١١ .

^(٤) نفح الطيب ٣٨٥ / ٢ .

^(٥) نفح الطيب ٣٨٥ / ٢ .

قد نبذت دين الهدى خلفها وادعت الحكمة والفلسفه

ويرميهم باعتناق مذهب الطبيعة فيقول ^(١)

ضلت بأفعالها الشنيعة طائفة عن هدى الشريعة
ليست ترى فاعلاً حكيماً يفعل شيئاً سوى الطبيعة

وكانت تهمة (الزندقة) إحدى التهم التى ألح عليها الشعراء فى هجائهم
للفلاسفة ، ولهم فيها صور طريفة كقول المخزومي الأعمى : ^(٢)

ما الزنيديق بنى فاعل يدم منى كل ما يحمده
يلحظنى شزاراً إذا مريبى كأننى فى عينه مسجده

واتجه الشعراء بهجائهم إلى أهل الفلك والنجوم معبرين عن كراهية الشعر
لهذه العلوم الجديدة ، فواجهوها بالسخط والعداء واستنكروا الاشتغال بها ،
وسخروا منها ومن المهتمين بها " وفى هذا المظهر كان الشعر يمثل روح
المحافظة ، ويقوم بدور الخصم العنيد للعناصر العلمية أو كان حينئذ يعد ضرباً
من الثقافة العلمية ، كالجغرافيا وإقليدس والمجسطى وعلم النجوم والفلسفة " ^(٣).

وإذا كان ابن جبير أكثر من حملوا على الفلسفة والفلاسفة ، فإن ابن عبد
ربه كان أكثر الشعراء عداءاً للفلك والجغرافيا ، فقد سخر من العلماء الذين قالوا
بكروية الأرض وباختلاف الفصول حسب المناطق المناخية المختلفة واتهمهم
بالغواية والسخف ، ويعزو الدكتور إحسان عباس موقف ابن عبد ربه إلى ثقافته
الفقهية فيقول : " وربما بدا لى أن ابن عبد ربه كان أقرب إلى التزمّت منه إلى
الانطلاق ، فقد أورثته ثقافة الفقهية نظرة محافظة متشددة تنفر من كل جديد
وتعادى العلوم الدنيوية - إذا صحت التسمية - ويكفى أن نذكر صلته بمسلم
ابن أحمد بن أبى عبيدة الليثى ، الذى كان عالماً بالحساب والنجوم ، وكيف

^(١) نقد ٢ / ٣٨٥ .

^(٢) راد المسافر ص ١٢٥ .

^(٣) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ١٢١ .

عابه لاهتمامه بهذه العلوم ، ووصفه بأنه شاذ عن رأى الجماعة ، وتهكم بمعارفه الفلكية والجغرافية ، وأعلمه بأنه لا يصدق ما تضمنته علومه " (١) .

ويتمثل هذا الموقف القائم على كراهية هذه العلوم فى هذه الأبيات التى يسخر فيها ابن عبد ربه من بعض معاصريه من العلماء المشتغلين بالفلك والجغرافيا والحساب على شاكلة ابن أبى عبيدة الليثى وابن موسى ومعاوية بن الشبانس ، فيقول : (٢)

زعمت بهرام أو بيدخت يرزقنا	لابل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الأرض فى فلك	بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كروية حف السماء بها	فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلاً
صيف الجنوب شتاء للشمال بها	قد صار بينهما هذا وذا دولا
كما استمر ابن موسى فى غوايته	فوعر السهل حتى خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغى لقولهما	أنى كفرت بما قالوا وما فعلا

ويسخر ابن عبد ربه من المشتغلين بالفلك وعلم النجوم فيقول : (٣)

إذا كان أخو النجم	يسرى الغيب بما ضمه
إلام يطلب الرزق	طلاب العاجز الهمة
وهدى الأرض قد وارت	كنوزاً عدة جمه
فلا والله ما الله	خلق يحصى علمه

وفى قصيدة الثالثة يسخر ابن عبد ربه من ابن عذراء وابن عباس وأشياعهما من المنجمين الذين تنبأوا بتأخر الغيث ذات مرة ولكن نبوءتهم لم تتحقق إذ سرعان ما هطل الغيث مدراراً ، وفى ذلك يقول : (٤)

قل لابن عذراء السخيف الحجى	زرى عليك الكوكب الناقب
ما يعلم الشاهد من حكمنا	كيف بحكم حكمه غائب

(١) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - ص ١٨٤ .

(٢) طبقات الأئمة للقائى مساعد ص ٧٤ .

(٣) بهجة المجالس ٢ / ١١٨ .

(٤) نفسه ٢ / ١١٩ .

فقل لعباس وأشياعه
خاتكم كيوان في فرسه
فكلكم يكذب في علمه
ما أنتم شيء ولا علمكم
تغالبون الله في حكمه

كيف ترى ؟ قولكم الكاذب
وغركم في لونه الكاتب
وكلكم أصله كاذب
قد ضعف المطلوب والطالب
والله لا يغلبه غالب

ويشارك سعيد بن العاصي الرواني ابن عبد ربه في حملته على علماء
الفلك فيقول : ^(١)

مستحيل أن تدرك الأوهام
كيف يختار علمه بشري
لست ممن يقول فيه بجهل
كل من قال إن للنجم حكماً
سطر الأولون فيه أساطير
إذ أرادوا بالسند وبالأر
خبطوا في أمورها خبط عشواء
والذي هيمنوا به من قريب
إنما السبعة الدراري أجرا
وصفوها بالفهم وهي شخوص
وحكوا أنها تؤثر في العا
كذبوا ليس للكواكب نقص
والذي قاله الأوائل فيها
إنما سخرن بقدرة بار
فهى تجرى في رتبة ليس تعدو
كل يوم تساق فيه إلى العز
ليس يقضى كيوان أمراً كما قا
لا ولا الشمس في البروج ولا البد

علم غيب تغيب عنه الأنام
وهو علم قد حازه العلم
ما يقول الكندي والنظام
لم يجز فاعلمن عليه السلام
رو لم يلهموا الرشاد فهاموا
كند والزيج روم مالا يرام
حين ضلت في كنهها الأوهام
هذيان آثاره البرسام
م ولكن لا تعقل الأجرام
ما لديهم فهم ولا إلهام
لم ، والعالمون عن ذا نيام
في جميع الوري ولا إبرام
فهو ما لا يقوله الإسلام
ها إلى أن يحين منها انصرام
ها ولا يستحيل فيها النظام
ب سراعاً كما تساق السوام
لوا ، ولا المشتري ولا بهرام
الذي ينجلي به الإظلام

إنما الأمر للذي خلق الخلق وتمضي بعزمه الأحكام

^(١) نفسه ٢ / ١٢٠ وما بعدها .

ويلح الشعراء فى هجائهم للمستغلين بالفلك والنجوم على فكرة واحدة محددة وهى أن الله عز وجل هو وحده المستأثر بعلم الغيب ، وأن أولئك العلماء لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وترددت هذه الفكرة عند ابن عبد ربه وعند ابن العاصى المراوى ، كما ترددت أيضاً عن عيسى بن قرقمان على نحو ما يبدو فى قوله : ^(١)

لو كان عند النجوم السابحات بما	يجرى على الخلق من أبنائهم خبر
لم يحتلل بذراهم ريب حادثة	بل كان ينجيهم الإنذار والحدار
ما كان ينجل منهم عالم ولداً	فى ساعة ما بها نحس ولا كدر

ولم يقتصر الشعراء فى هجائهم على أصحاب العلوم النظرية ، بل اتجهوا بهجائهم أيضاً إلى أصحاب المهن العلمية كالكيمياء والطب والوراقة وغيرها ، فأبو إسحاق الإلبيرى يعرض بأحد الفقهاء لأنه كان يطلب الكيمياء ^(٢) ، والأبيض - أو الصائغ - يهجو ابن زهر الحفيد والوشاح المشهور فيقول ^(٣) :

يا ملك الموت وابن زهر	جاوزتما الحد والنهاية
تسرفقا بالورى قليلا	فى واحد منكما الكفاية

ولدينا زجل لأبى الدباغ فى هجاء أحد الأطباء ، وفيه يقول : ^(٤)

إن ريت من عداك يشتكى من تلطيخ
وتريد إن يقبر ! حمل للمريخ
قد حلف ملك الموت بجميع أيمان
ألا يبرح ساعة من جوار دكان
ويـريح روح ويعظم شأن
وفساد النيا تحت ذاك الثوبـيخ

^(١) بهجة المجالس ٢ / ١٢٠ .

^(٢) ديوان الإلبيرى ص ٥٩ .

^(٣) زاد المسافر ص ١١١ والأرجح أنهما لابن الصائغ لأن ابن زهر يزد عليه بمقلعة يتهم فيها بالزندقة وهى

الأقرب لى مهنة الفلسفة التى كان يشتغل بها ابن الصائغ (انظر زاد المسافر ص ١١٢) .

^(٤) المغرب ١ / ٤٣٩ .

بقياس الفاسد وبدين الحمروج
يخسد الصسفراوى ويسرد مفلوج
للصحيح لس يسمح بمريقة فروج
ويحيل المحموم على أكل البطيخ
وغنى إن طباً فيرد يسعى
والمنى يطلق فى مروج نرعى
يسقى ما يسقيه يحتبس فى الأمعا
احتباس أبدى العار بحال التوبىخ

* * *

قوه تنقى من عطاءه تنقيا
وبرى أكباده فى الطسيس مرميا
تنبرى أنباط وتقع ملويا
مثل شعر العانا إن خلق بالزرنىخ

* * *

وفى هذا الزجل يتهم أبو على الدباغ مهجوه بالجهل بأسرار صنعته ،
وفشله فى مداواة مرضاه ، واللافت فيه روح السخرية والفكاهة الحادة الموجهة ،
" وفى هذا الزجل تقع على بعض الصورة الطريفة الساخرة ، كصورة ملك الموت
وهو لا يبرح دكان الطبيب ، ومثل هذه الصورة التى يحيل فيها الطبيب
الشخص المحموم على أكل البطيخ ولا يسمح فيها للسليم بـ " مريقة فروج "
وهو وصف مستمد من بيئة الزجال بأجوائها المحلية " (١)

وفى مهنة الوراق والوراقين يقول ابن سارة الشنترينى : (٢)

أغصانها وثمارها الحرمان	أما الوراق فهى أنكد حرفة
تكسو العراة وجسمها عريان	شبهت صاحبها كإبرة خانط

(١) الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٦٢٥ .

(٢) فلاند العتيان ص ٢٦٠ .

ويتضح مما أوردناه من أمثلة أن الشعراء لم يصدروا في هجائهم عن عدا
شخصى - فى أغلب الأحوال - بدليل أن ابن عبد ربه كان على صلة وطيدة
ببعض هؤلاء العلماء ومع ذلك هجاهم وإنما كان هجاؤهم تعبيراً عن كراهيتهم
لهذه العلوم فى حد ذاتها ، ولم تكن هذه الكراهية موقفاً عاماً عند جميع
الشعراء ، ولكنها ارتبطت بأصحاب الثقافات الدينية والفقهية . وكذلك الحال
بالقياس إلى الهجاء الذى وجه إلى المعلمين وغيرهم من العلماء ، فهو ليس هجاءً
لأشخاص بعينهم بقدر ما هو نقد أو ذم لبعض الصفات المزرية كادعاء العلم أو
التعصب البغيض أو السفسة الفارغة .

هـجاء الكتاب :

استأثرت صناعة الكتاب بهجاء كثير من الشعراء وذلك بسبب التنافس
التقليدى بين الشعراء والكتاب ، ولم يكن الشعر وحده كافياً لكى يتبوأ الشاعر
منصب الوزارة أو غيره من المناصب الخطيرة فى الدولة ، فقد كانت " مهمة
الوزارة تتصل - قبل أى شىء آخر - بالكتابة ، فإذا كان الكاتب مثل ابن
زيدون وابن عمار وابن عبدون على مقدرة شعرية ممتازة صح له أن يبلغ مرتبة
الوزارة ويكون شعره ميزة تعينه على ذلك ، لكنه لو انفرد بالشعر دون الكتابة
لما استطاع أن يبلغ تلك الوظيفة .^(١)

وقد أثارت هذه التفرقة حفاظ الشعراء ، فحملوا على الكتاب ، وتتبعوا
عثراتهم وسقطاتهم ، واتهموهم بالجهل وعدم الدراية بصنعتهم على نحو ما
نقرأ فى قول عقيل بن نصر :^(٢)

ومحارسوم محاسن الكتاب	قلب الزمان فبان بالآداب
لرردتهم طراً إلى الكتاب	وأنى بكتاب لو استخبرتهم

^(١) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ٨٢ .

^(٢) بنية الملتصص ص ٤٣٧ .

ويحتفظ صاحب (زاد المسافر) بصورة طريفة لأحد الكتاب الجهلاء - يدعى (ابن لجين) - وكان كاتباً للأمير أبي حفص الموحدي ، وأمره ذات يوم أن يكتب في أمر خديم لأحد إخوانه كان وجهه عنه لشغل ، فلما فرغ عنه قال له : اكتب معه إلى مخدمه أنا قد صرفناه بعد أن فرغ مما وجهناه فيه عنه ، فكتب : " وكنا قد استدعينا فلاناً ، فلما قضينا منه وطراً صرفناه إليكم " . فقال له لما وقف عليه : " هل فعلنا به مالا يكتفى ؟ " وقطع عليه الكتاب فكتب في آخره : " فلما قضى نحبه انصرف إليكم " . كما كتب عن مخدم له : " فاشتهدوا " يريد الأمر بالاجتهاد .^(١)

وكان هذا الكاتب وأمثاله مادة غنية للشعراء ، وفيه يقول أحدهم^(٢) :

وهل الكتابة يا ابن ألف لنيم	إلا نتيجة فقرة وقسيم ؟
وأراك قد سميت نفسك كاتباً	خلوا من المنثور والمنظوم
حتى كتبت الإجتهد غباوة	بالشين معجمة مكان الجيم
لو أنني حكمت فيك فنطت ما	كتبت يدك بعنقك المخزوم
وجعلت من بمشي وراءك قاللاً	هذا جزاء الكاتب المشؤوم
يا أيها الشيخ المعظم قدره	(والشؤم يهدم سور كل زعيم)
إحذر - وقاك الله - شدة شؤمه	فالكاتب المشؤوم شر خديم

وكانت صفة (الشؤم) هذه إحدى الصفات المعيبة التي يكثر الشعراء من إلصاقها بالكتاب ، فنراها تتردد في هجاء الأعمى المخزومي لابن أبي الخصال كاتب على بن يوسف بن تاشفين ، وأبرز كتاب عصر المرابطين ، ويميل المخزومي في هجائه إلى الإفحاش كعادته في هجائه ، فيقول :^(٣)

طويس الشؤوم يا ابن أبي الخصال	لقد نكبت عن كرم الخصال
ترغب في النقائص والمخازي	ونزهد في المكارم والمعالي
نكحت حزوراً وسلكت طفلاً	ولم تقلع وشيبك في اكتهال

^(١) زاد المسافر ص ١٣٤ .

^(٢) نسه ص ١٣٤ .

^(٣) خريدة القصر ٢ / ٢٥٥ - ٢٥٦ .

ففى وجعك آثار الفياشى كما فى البئر آثار الحبال

ونقع على هذه الصورة المزرية لأحد الكتاب عند ابن صارة الشنترينى إذ يقول : ^(١)

وأغر ينتحل الكتابة خطة	متوقد كالحية النضناض
عشق السواد فأصبحت أسنانه	تشرى السواد ببيع كل بياض
فإذا شحافاه رأيت خفافاً	بأوين من فيه إلى المرحاض

ولابن شهيد بعض مقطعات فى هجاء الكتاب ، منها مقطعة فى هجاء الكاتب أحمد بن جعفر بن عباس الذى كان وزيراً وكاتباً لزهير الصقلبي خليفة خيران فى حكم المرية سنة ٤٢٥ هـ ، وقد اشتهر عن هذا الكاتب مهارته فى كتابة الرسائل ، وغناه الفاحش ، وبخله وغروره ، وحدث أن اجتمع هذا الوزير الكاتب بابن شهيد وبعض رفاقه . ولكنه لم يرض بما جاءوا به على البديهة مما أثار غضبهم ، فهجاه بعضهم فأفحش فى هجائه ، كما هجاه ابن شهيد فقال : ^(٢)

أبو جعفر رجل كاتب	مليح شبا الخط ، حلو الخطاب
تملاً شحماً ولحمًا وما	يليق تملؤه بالكتابه

ويرسم ابن شهيد هذه الصورة الكريهة لكاتب آخر فيقول : ^(٣)

ويح الكتابة من شيخ هبنقة	يلقى العيون برأس مخه رار
ومنتن الريح إن ناجيته أبدا	كأنما مات فى خيشومه فار

وفى ديوان ابن هانىء نقع على قصيدة يهجو فيها الوهرائى كاتب الأمير جعفر بن على المعروف بابن الأندلسية . وكان والياً لمدينة المسيلة . وهى قصيدة طويلة إذ يبلغ عدد أبياتها اثنين وأربعين بيتاً ، بدأها بقوله : ^(٤)

^(١) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

^(٢) الإحاطة ١ / ٣٣٨ . ديوان ابن شهيد ص ٥٠ ، ٤٩ .

^(٣) الذخيرة ١ / ١ / ص ٢٩٦ .

^(٤) ديوان ابن هانىء ص ٤٠١ .

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف

وبعد مقدمة تأملية قصيرة يخلص ابن هانيء إلى هجاء الوهراني ، فيرميه بجلالة اللفظ ، وخطل الرأي ، وفساد التأليف والنظم ، ويقول : ^(١)

إن أيام دهرنا سخفات	فهي أعوان كل وغد سخيف
زمن أنت ، يا أبا الجعر ، فيه	ليس من تالد ولا من طريف
إن دهرأ سموت فيه علواً	لوضيع الخطوب ، وغد الصروف
إن شأوا طلبته في زمان السـ	لك عندي ، لشأوبين قدوف
إن رأياً تدبره لمعني	بضلال الإمضاء والتوقيف
إن لفظاً تلوكه لشبيه	بك في منظر الجفاء الجليف
كاذب الزعم مستحيل المعاني	فاسد النظم ، فاسد التأليف
أنت لا تغتدي لتدبير ملك	إنما تغتدي لرغم الأنوف
نلت ما نلت لا بعقل رصين	في المساعي ، ولا برأى حصيف

ويعرض ابن هانيء بمهجوه ويرميه بتهمة خطيرة هي تحريف القرآن فيقول : ^(٢)

لم أحارب نور الهدى بالدجاجي	وحروف القرآن بالتحريف
مثل هذا العميد بالجبب والطاغوت	منهم ، والهالم المشغوف

وطريقة ابن هانيء في هذه القصيدة لا تكاد تختلف عن طريقته في أغراضه الأخرى ، فهو يميل إلى استخدام الألفاظ القوية الطنانة (قدوف .. جليف .. رجوف .. الجبب .. إلخ) ولكن حظه من التخيل محدود ، ومعانيه مألوفة مكررة ، وصوره تفتقر إلى الجدة والابتكار ، فلا نقع على صورة لبا خصائص صور ابن الرومي مثلاً ، ولا نرى في تصويره لشخصية المهجو ما نراه عند شعراء الهجاء البارزين من تفنن وبراعة : ولا نظفر في هجائه بدعابة ساخرة ، أو نكتة عابثة ، أو صورة تخفى وراءها خيالاً خصباً .

^(١) نقه ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

^(٢) ديوان ابن هانيء ص ٤٠٤ .

الفصل الرابع

الهجاء الاجتماعي

- نقمة الفرد على المجتمع
- الرذائل الخلقية
- التصدي لمظاهر الفساد
- هجاء البخلاء
- هجاء الأهل والأقارب
- هجاء المظاهر الحضارية
- هجاء المغنين
- هجاء المدن

الهجاء الاجتماعي ضرب من الهجاء يوجه فيه الشاعر سهامه إلى أمور تتصل بعبادات الناس وطبائعهم وأخلاقهم وصفاتهم ، وهو لا يتناولها بطبيعة الحال من جوانبها الإيجابية أو المثالية ، بل بما فيها من فساد واختلال ، فالهجاء سريع النفاذ إلى مواطن العيب والخلل ، ولا يستهويه إلا المثلث ومواضع القصور والنقص ، فيلتقطها بعينه الناقد ، ويرى فيها مادة غنية بالصور ، فيجمعها ويبرزها للعيان في صورة منفرة تثير الضيق والاشمئزاز .

والهجاء الاجتماعي لا يقف عند حدود الذاتية المطلقة ، ولا يأخذ فقط صفة التشهير كما يرى بعض الباحثين ^(١) ، ولكنه يتعدى ذلك إلى مفهوم أوسع وأشمل ، فهو أقرب إلى النقد الاجتماعي منه إلى النقد الذاتي ، كما أنه يكشف بصورة أو بأخرى عن كثير من جوانب الفساد والقصور في المجتمع .

وتتنوع ضروب الهجاء الاجتماعي ، فهناك ضرب منه يصور نقمة الفرد على المجموع ، وثورته على ما يشهد فيه من اختلال في المقاييس والقيم ، ويرى أحد الباحثين أن هذا الضرب أكثر أنواع الهجاء تعقيداً ، وأعمقها تجربة إنسانية ^(٢) ، وقد راج هذا النوع من الهجاء في العصر العباسي وما تلاه من عصور حيث اقترنت الحضارة بشيوع كثير من الرذائل والمفاسد ، فنقم بعض الشعراء على المجتمع ، ووصموه بالفساد والانحلال ، " واتجه الهجاء إلى ضرب من التشاؤم والسخط على الحياة والمجتمع والناس جميعاً ، بل على الدهر ، ولكنه لم يكن سخطاً إيجابياً عنيفاً ، بل كان سخطاً سلبياً " ^(٣) .

وراج هذا النوع من الهجاء أيضاً في الأندلس . فابن عبدون يرمى أهل عصره بالفساد ، فيرى أن الناس فسدت أبدانهم ، وأنه لا يصلح هذه الأمور إلا نبي ، ويتتبع أوجه الخلل والقصور في مجتمعه ، فيعيب على بعض الناس شرب الخمر في المقابر ، وجلوسهم فيها لاعتراض النساء ، ويشير إلى تفشى

^(١) الشعر في عصر المرابطين والموحدين ص ٢٥٢ .

^(٢) فن الهجاء لابن حوى ص ٩ .

^(٣) تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري . تأليف د. محمد رطلول سلام ، ص ٣٢ .

الفسق وضروب الغش فى السلوك والمعاملات ، وكذلك صنوف الحيل ونقص
الذمة فى البيع والشراء ، وأخذ الجعائل ، وأخذ الصيرفيين للربا .^(١)

وينحى ابن عربى باللائمة على الزمان وأهله فيقول : " زمان شر ، قلت
فيه لقمة الحلال ، وكثر فيه الشره والكلب فى قلوب الناس ، فلا بطن يشبع
ولا نفس تقنع ، ولا عين تدمع ، ولا دعاء يسمع " .^(٢)

ولدينا أمثلة كثيرة تمثل سخط الشعراء على الزمان وأهله ، ويمثل ابن
عبد ربه هذا الاتجاه خير تمثيل ، " فعلى الرغم مما بلغه من مكانة ، ونا شهر
عنه من تقوى وديانة ، فقد كان - فيما يبدو - ضيق العطن ، حاد الطبع
سريعاً إلى الهجاء ، متبرماً بالناس ، كثير الشكوى من الزمان ، سىء الظن
بالمجتمع ، مسرعاً إلى رؤية السيئات دون الحسنات فى زمانه وأهله " .^(٣)

إن تجربة ابن عبد ربه فى الحياة دفعتة إلى درجة بعيدة من التشاؤم
والسخط فهو يرى أن الخير قد انعدم فى الدنيا ، وأن أبناءها ليسوا إلا كلاباً
توزعوها فيما بينهم :^(٤)

وأيام خلت من كل خير	ودنيا قد توزعها الكلاب
كلاب لو سألتهم تراباً	لقالوا عندنا انقطع التراب

ويشارك السعيسر ابن عبد ربه رأيه فى إساءة الظن بالناس وفى وجوب
تحاشيهم واجتنابهم فيقول :^(٥)

تحفظ من ثيابك لم صنعها	والا سوف تلبسها حدادا
ونيز عن زمانك كل حين	ونافر أهله تسد العبادا

^(١) ثلاث رسائل أندلسية فى الحببة ص ٦٠ .

^(٢) روح القدس فى محاسبة النفس ص ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديرية مجلد ١٤
ص ٣٥ .

^(٣) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - ص ١٨٥ .

^(٤) العقد الفريد ٢ / ٣٤٢ .

^(٥) الدحيمة ١ / ٢ / ص ٨٩٥ .

وظن بسائر الأجناس خيراً وأما جنس آدم فالبعاد
ويعلن عبد العزيز على الجذامى (ت ٧٢٥هـ) سخطه على الدنيا وأبنائها
فيقول : ^(١)

أبناء دنيا لا خلاق لها ما أشبه الأبناء بالأم
جربتهم وخبرتهم زمناً فتركهم بغضاً على علم
لكن دهرى اضطرني لهم فصحبهم كرهه على رغم

أما عبد الواحد الواعظ الإشبيلي (ت ٦٣٧هـ) فيصب سخطه ولعناته على
كل من فى الوجود فيقول : ^(٢)

إن كنت تشكو ببرد وقلعة فى البرود
فادفأ بلعن كثير لكل من فى الوجود

وينقم ابن الخطيب على أهل زمانه الذين لا يقدرونه حق قدره ، ويرى
نفسه بينهم كحى بين أموات فيقول : ^(٣)

أحى بين أموات ركود ويقظان لدى زمن نؤوم
أدور فلا أرى إلا نياماً كأنى بين أصحاب الرقيم
عفت أعلام آدابى وعلمى بهم فبقيت كالرسم القديم

واقترن بنقمة الشعراء على الناس والزمان نقمة أخرى على الأصدقاء
والإخوان ، فنعوا عليهم خداعهم ومخاتلتهم ، وإضرار السوء لهم ، والتظاهر
بالحب والولاء على نحو ما نجد فى قول جعفر بن إبراهيم بن الحاج
اللورقى : ^(٤)

أخ لى كنت آمنه غروراً يسر بما أساء به سرورا
هو السم الزعاف لشاربيه وإن أبدى لك الأرى المشورا

^(١) درة الحجال ١٣٦ / ٣ .

^(٢) اختصار القدح ص ٢١٠ .

^(٣) التشبيهات ص ٦١٨ .

^(٤) خريدة القصر ١٤٥ / ٢ .

وبوسعنى أذى فأزید حلماً
كما حد الذبال فزاد نوراً
ويقول أيضاً : (١)

أسهر عينى ونام فى جدل
دنياه موقوفة عليه فما
قد لفتت بالمحال فاجتمعت
كم محنة قد بليت منه بها
مدرك حظ سعى إلى أجلى
يطورها طائر لذى أمل
من خدع جمّة ومن حيل
وهو يرى أنها يد قبلى

ويعبر ابن الخطاب عن سوء ظنه فى الإخوان والأصحاب فيقول : (٢)

إذا حصلت إخوانى جميعاً
فمن أعدته لمهم أمرى
وجدتهم كأضغاث المنام
كإخوان التحية والسلام

أما ابن عبد ربه فقد آثر أن يبتعد عن أصحابه لأنه أدرك بعد تجربة
طويلة أن أخاه الحقيقى هو درهمه الذى يقبض عليه بيده : (٣)

قالوا نابت عن الإخوان قلت لهم
مالى أخ غير ما تطوى عليه يدى

وهناك ضرب آخر من الهجاء يدور حول الرذائل الخلقية ، ويصور بعض
الآفات الاجتماعية كشيوع الزنا واللواط والسرقة ، وميل بعض الناس إلى الكذب
والبخل ، وغير ذلك من الصفات المستهجنة ، ونمثل لهذا النوع بأبيات أبى
جريزة محفوظ بن مرعى الشريف التى يعرض فيها يقوم دأبوا على ارتكاب
الفحشاء فيما بينهم دون مراعاة دين أو حرمة ، وفيها يقول : (٤)

يا دائبين على الفحشاء ويلكم
الإبن فى داركم صهر لوالده
ما تحفظون أباكم فى حلاله
أحييتم سنة دان المجوس بها
أبستم شيخكم ثوباً من العار
والأخ قد ينثنى عن كلبه الحار
والكلب عرس لحاه الله من دار
فعضموا مثلهم بيتاً من النار

(١) نفه ١٤٥ / ٢ .

(٢) التشبيهات ص ٢٧١ .

(٣) العقد الفريد ٣ / ٣١ .

(٤) زاد المسافر ص ١٢٣ .

ويشير المخزومي الأعمى إلى استثناء آفة اللواط في هجائه لابن القصير
فيقول مضمناً أحد أبيات الشعر الذائعة : ^(١)

حجج بها سوق الفسوق تقوم	لابن القصير مع ابنه وصغيره
فبدا يعاتبه لدا ويلوم	ألقاه يوماً تحت أسود حالك
بيت على مر الزمان قديم	فأجاب به متعجباً وجوابه
عار عليك إذا فعلت عظيم	لا تنه عن خلق وتأتى مثله

ويعرض أبو عيسى المربيطرى بأحد الأشخاص المصابين بهذا الداء وقد تزوج
بإحدى العاهرات ، فيقول : ^(٢)

بعرسسه العاهسر الهجين	لا تعدلوه على ابتناء
لابد للظبي من قرون	أليس مثل الغزال حسناً

ومن مظاهر الفساد التي تصدى لها الشعراء انتقاد تصرفات بعض رجال
الدين الذين تخلوا عن أداء واجبهم ، وتساهلوا في الأحكام ، واستحلوا
المحرمات ، وقد مررنا أمثلة كثيرة لهذا النوع في هجاء الفقهاء والقضاة ،
ونمثل لذلك أيضاً بقول أبي بكر بن مغاور الشاطبي : ^(٣)

من الطوال اللحى البيض العنانين	إننا إلى الله ماذا حل بالدين
وغيروا الشرع بإله للدين	باعوا رضى الله وابتاعوا مساخطه
إن الشهود لأعوان الشياطين	أضحت شهادتهم بالزور ناطقة

ويشير عبادة إلى استثناء داء الكذب عند بعض الناس فيقول : ^(٤)

عن حديث لم يكن	مد كنت لا تنفك تخبر
بالكذاب مع اللب	فكأنما غديت طفلاً

^(١) زاد المسافر ص ١١٨ .

^(٢) المغرب ٢ / ٣٧٨ .

^(٣) زاد المسافر ص ٨٠ .

^(٤) التشبيهات ص ٢٤٨ .

ويحمل ابن خفاجة على طائفة من الناس يتصفون بالجهل والغباء : ^(١)

دع عنك من لوم قوم لست تخبرهم
عوج على الدهر هوج غير أنهم
ويقول : ^(٢)

يا ضاحكاً ملء فيه جهلاً
وهنت حساً وهنت نفساً
أحسن من ضحكك البكاء
فلا ذكاء ولا زكاء

ومن الصفات الذميمة التي تناولها الشعراء في هجائهم صفة الزهو والكبر
عند بعض الناس ، وقد نظم أبو إسحاق الإلبيري قصيدة في رجل يجر ثيابه
زهواً وخيلاً قال فيها : ^(٣)

ما عيذك الفخم إلا يوم يفقر لك
كم من جديد ثياب دينه خلق
لا أن تجربه مستكبراً حللك
تكاد تلعنه الأقطار حيث سلك
وكم مرقع أظمار جديد تقى
بكت عليه السما والأرض حين هلك

كما أكثر الشعراء من هجاء ثقل الظل ، وهي صفة ذميمة لاسيما إذا
اجتمعت معها صفات أخرى كالرقاعة والسخف على نحو ما يبدو في قول أبي
الحكم بن المظفر : ^(٤)

وهو على خفة به أبدأ
يمت بالثلب والرقاعة والـ
معترف أنه من الثقلا
سخف ، وأما بغير ذاك فلا
يصدر عنه فتحت منه خلا
هون ورحب به إذا رحلا
واسقه السم إن ظفرت به
وامزج له من لسانك العسلا

^(١) ديوان ابن خفاجة ص ٧٧ .

^(٢) نفسه ص ٦٨ .

^(٣) ديوان الإلبيري ص ٧٠ .

^(٤) نفح العليب ٢ / ١٣٤ .

وبرع الشعراء فى تناولهم لهذه الصفة كما يبدو فى قول أمية بن أبى الصلت الإشبيلي : ^(١)

لى جليس عجبت كيف استطاعت	هذه الأرض والجبال ثقله
أننا أرعاه مكرها وبقلبي	منه ما يقلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآ	ولكن أصونه وأجله

وكانت صفة (البخل) إحدى الصفات التى أكثر الشعراء من تناولها فى قصائدهم ، ومما يوضح كثرة هجاء الأندلسيين بهذه الصفة ما ذكره المقرئ نقلاً عن ابن سعيد فى وصفه لأخلاق أهل الأندلس وعاداتهم فقال ^(٢) : " وهم أهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى أيديهم خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ... ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل ، فأوينا إليها ، وكنا على حال ترقب من السلطان وخلو من الرفاهية ، فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم فحماً تسخنون به فإبنى أمضى فى حوائجكم ، وأجعل عيالى يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشتري به فحماً ، فأضرم ناراً ، فجاء ابن له صغير ليصطلى ، فضربه ، فقال له والدى : لم ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنام مال الناس ، والضرر للبرد من الصغر ، ثم لما جاء النوم قال لابنه : أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدهما على ثيابه ، فدفعت كساءه إلى ، ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبى منتبهاً ويده فى الكساء ، فقلت ذلك لوالدى ، فقال هذه مروعات أهل الأندلس وهذا احتياطهم ، أعطاك الكساء ، وفضلك على نفسه ، ثم فكر فى أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها ، وهو نائم ، وعلى هذا الشئ الحقيق فقس الشئ الجليل . "

^(١) نفح الطيب ٢ / ١٣٤ .

^(٢) تنبيه ١ / ٢٢٣ .

وكان هذا الحرص الذى أشار إليه ابن سعيد مدعاة لاستثارة قرائح الشعراء ، فأكثرُوا من إلحاق صفة البخل بمهجوِيهم ورسوموا لهم كثيراً من الصور الساخرة ، فمن ذلك قول الغزال : ^(١)

قصدت بمدحى جاهداً نحو خالد	أؤمل من جدواه فوق منانى
فلم يعطنى من ماله غير درهم	تكلفه بعد انقطاع رجائى
كما اقتلع الحجام ضرساً صحيحة	إذا استخرجت من شدة بكاء

ويصم سعيد بن الفرّج الرشاش مهجوه بهذه الصفة فيقول : ^(٢)

إنك لا تعرف الجميل ولا	تفرق بين القبيح والحسن
إن الذى يرتجى نذاك لكالحا	لب تيساً من شهوة اللبّ

ويعبر محمد بن شخيص عن خيبة رجائه فيمن قصدهم راغباً فى عطائهم فيقول : ^(٣)

قست بالشعر معشراً فإذا هم	صور الإنس فى طباع الحمير
كلما جنتهم لأنشد شعري	طمعاً من نوالهم باليسير
فكأنى وضعت فلكة بوق	فى فمى أو ضغطت أنبوب كير

وللمخزومي الأعمى غير قصيدة يهجو فيها بنى سعيد ويرميهم بالبخل ، وقد ذكر ابن سعيد أن جده عبد الملك كان كثير الإحسان له مستحفظاً من لسانه ، وبعد ذلك فما سلم من ذاته ، ومن هجائه فيهم قوله : ^(٤)

لا ترجون بنى سعيد للندى	فالظل أفيد منهم للسانل
فلقد مررت على منازلهم فما	أبصرت منها غير بعد منازل
قوم محبيبتهم بطلعة وافد	وسرورهم أبداً بخيبة وافد

^(١) التشبيهات ص ٢٤٠ .

^(٢) نفس ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

^(٣) نفس ص ٢٤٢ .

^(٤) السغوب ١ / ٢٣١ .

وفيههم يقول وقد أسخنوه جوارهم : ^(١)

أبني سعيد قد شقيت بقربكم	فلستركوني حيث شئت أسير
أفنى المدائح فيكم لا وعدكم	يقضى ، وقلبي فى المطال أسير
أعطيتم نزرأ على طول المدى	ويقول وغد : إنه لكثير
ولشد ما عرضتموني للعنا	فرس عتيق عاشرته حمير
فإذا صهلت غدا النهاق مجاوبى	يارب أنت على الخلاص قدير

واصطنع بعض الشعراء طريقة القدماء فى تناولهم هذه الصفة كقول ابن المرعزى النصرانى : ^(٢)

نزلت فى آل مكحول وضعيفهم	كنازل بين سمع الأرض والبصر
لا تستضىء بضوء فى بيوتهم	لولم يكن لك تطفيل على القمر

وقد نظم الشعراء مقطعات كثيرة فى التندر بالبخلاء سنعرض لها فى حديثنا عن هجاء التندر والسخرية .

هجاء الأهل والأقارب :

اتجه الشعراء الهجاءون إلى هذا الضرب من الهجاء الذى يكشف عن بعض جوانب الخلل والقصور فى علاقة الأزواج بزوجاتهم أو الآباء بأبنائهم فهو المظهر السلبي لما ينبغى أن تكون عليه الأواصر الاجتماعية التى تقوم على أسس من المودة والرحمة ، ونلاحظ أن أغلب نماذج الهجاء التى تتصل بهذا الموضوع نظمها شعراء تقوم شهرتهم على فن الهجاء ، كالأعمى المخزومى ، وابن حزمون وابن صارة الشنترينى ، وعلى بن بسام وغيرهم .

ونجد بعض هؤلاء الشعراء ينظمون شعراً فى هجاء زوجاتهم ، فنرى ابن صارة الشنترينى يهجو زوجته بعد أن طلقها فيثنى على الزمان الذى أسدى

^(١) نفه ١ / ٢٣١ .

^(٢) خريدة القصر ٢ / ٩١ .

إليه هذا الصنيع ، ويرميها بالنفاق والخبث ، ويشبهها بالذئبة كما يشبهها بالحية الرقشاء ، فيقول : ^(١)

أما الزمان فرق لي من طلة ^(٢) كانت تطل دمي بسيف نفاقها
الذئبة الطلساء عند نفاقها والحية الرقشاء عند عناقها

وارتبط بهذا الاتجاه - أعنى هجاء الزوجات - اتجاه آخر يرمى إلى هجاء المرأة عموماً والانتقاص من شأنها . وتقوم معانيه على نقيض المعانى التى تداولها شعراء الغزل ، فيذم الشاعر طيف محبوبته بدلاً من أن يمدح نفسه بزيارته ، ويجد فى فتور ألاحظها شيئاً منفراً لأنه أصاب أعضاء جسده بالفتور ويزرى بصفات المرأة ، فيرى أن الجيفة تستقدر رائحة أنفاسها الكريهة ، وأن ما تتخذه من الحلى وأدوات الزينة إنما هى شهادات زور تحاول أن تغطى بها قبحها ودمامتها ، وغالباً ما يصوغ الشاعر أبياته فى أسلوب هزلى وكأنه يتقيل منهج ابن الحجاج شاعر بغداد الذى عرف باتجاهه الهزلى الساخر ، ونستطيع أن نجد هذه المعانى التى أشرنا إليها فى قول محمد بن مسعود - وهو من شعراء الذخيرة : ^(٣)

ما زارنى طيفك يا هذه
فتور ألاحظك ذاك الذى
وقدك المانس فوق النقا
كم قائل : صفها لنا واختصر
قيل وزد ، قلت لهم إنها
تستقدر الجيفة أنفاسها
للحل والغمرة فى وجهها
فقراء شقراء على سمرة

إلا تمنيت بالألا يزور
أعار أعضائي هذا الفتور
قد فؤادى الهائم المستطير
ولا تطول ، قلت شمس القدور
فى سعة مثل الدنا والبحور
وتجعل الفسو مكان البخور
والطيب والزين شهادات زور
فهل ترى يا سيدى من فطور ؟!

^(١) الذخيرة ٢ / ٣ / ٨٤٤ .

^(٢) العلة : الزوجة .

^(٣) الذخيرة ١ / ١ / ٥٥٨ .

ويرسم يحيى بن الحكم الغزال هذه الصورة المزرية لإحدى النساء
فيقول :^(١)

جرداء صلعاء لم يبق الزمان لها	إلا لساناً مُلحاً بالملامات
لطمتها لطمه طارت مامتها	عن صلعة ليس فيها خمس شعرات
كأنها بيضة الشاري إذا برقت	بالمأزق الضنك بين المشرفيات
لها حروف نوات في جوانبها	كقسمة الأرض حيزت بالتخومات
وكاهل كسنام العيس جرده	طول السفار وإلحاح القتودات

ويصور أحمد بن نعيم إحدى النساء تصويراً هزلياً ساخراً يذكرنا بـصور ابن
الرومي فيقول :^(٢)

كان كلتا صفحتي وجهها	ركبتا من كويتي نافخ ^(٣)
لو كنت نبتا كنت من حرمل	أو اكلا كنت من الكامخ ^(٤)

أما ابن خفاجة فهو يهجو ذلك الصنف من النساء اللاتي يتسترن بالزينة
والحلي لإخفاء أخلاقهن وطباعهن الرديئة الشاذة ، يقول :^(٥)

ألا بكى الدر فوق حالية	حلى بها العقد شرما حلى
ترى بها ما يمر من خلق	مخبأ تحت منظر يحلى
قد راق مرأى وساء مختبراً	فهل ترى أزهرت بها دفلى

ولم يتورع بعض الشعراء عن هجاء آبائهم وأبنائهم وإخوتهم على شاكلة
على بن بسام الذي يصفه صاحب الذخيرة بأنه " كان باقة زمانه ، لم يسلم

^(١) التشبيهات ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

^(٢) نفسه ص ٢٤٦ .

^(٣) الكوبة : الطبل الصغير ، ولعله أراد بها هنا آلة موسيقية تنفخ بالفم .

^(٤) الحرمل : نبت كالسمسم ، يمتنع على الأكله وفي ذلك يقول طرفة : (هم حرمل أعياء على كل أكل) .

والقامخ نوع من الإدام يتعيفه الأعراب (هامش التشبيهات ص ٢٤٦) .

^(٥) ديوان ابن حناجة ص ١٥١ .

من هجائه أمير ولا وزير من أهل بيته صغير ولا كبير " (١) وقد اشتهر بهجائه المقذع في أبيه وأخيه مما جعل ابن بسام يحجم عن ذكره .

ونجد الأعمى المخزومي يهجو ابنه هجاء حاداً ، فينعتة بجلافة الطبع وكلال الذهن وسوء الخلق ويتندر عليه في أسلوب لاذع فيقول : (٢)

الحق أبليج ليس أنت وحق من	أحيابك الأجلاف ممن يفلح
لا تهتدي بفضيلة ، لا ترعوي	بملاحة ، لا أنت ممن يصلح
يزداد عقلك ما كبرت تناقصاً	وتلج في صمم إذا ما تنصح
أكل وسلج كل حين لا ترى	لسواهما ما دمت حياً تطمح
أسخنت عين المجد يا ابن عميرة	ولقد تقرر عيونه لو تدبح

وشارك النثر في هذا النوع من الهجاء ، فأبو عبد الله محمد بن مسعود يكتب رسالة هزلية يتهمك فيها بابنه إذ توجه إلى المغرب ، وقد بلغه خلع عذاره في البطالة والشرب يركب فيها طريقة الجاحظ في السخرية ويحاكيه في رسالة التبريع والتدوير فيقول (٣) : " فأخبرني يا تاجر البحرين ، وسمسار العراقيين ، ودليل الحجازيين ، وخريت الفلاتين ، وابن عظيم القريتين ، أتعس بك من خراج ولاج ، ماض على السرى والإدلاج ... وصف لي موقع الشمس في العين الحمئة ، وكيف كان مخلصك من تلك انبلاد الوبئة ، وكيف رأيت مدينة يونس وجنة إرم ، والبركان المؤنس وجزيرة الغنم ، وكيف كان دكك على المجوس ، بضروب الشعوذة والناموس ... " .

هجاء المظاهر الحضارية :

إذا كان الشعراء قد أقبلوا على وصف المظاهر الحضارية وتغنوا بها باعتبارها مستحدثات جديدة ساهمت في إسعاد الناس ، وإدخال البهجة إلى نفوسهم ؛ فإن فريقاً آخر من الشعراء لم ترق له بعض هذه المظاهر ، فأظهر

(١) الدخيرة ١ / ١ / ص ١٤٣ .

(٢) المغرب ١ / ٢٢٩ .

(٣) الدخيرة ١ / ١ / ص ٥٥٠ وما بعدها .

إزاءها روح العداء والكراهية . على شاكلة أبي الحسن مختار بن عبد الرحمن
الرعيّنى الذى يصب لعناته على الحمام حين زاره يوماً فجلس شخص من
جهال العامة إلى جانبه ، وأساء عليه الأدب ، فقال : ^(١)

ألا لعن الحمام داراً فإنه سواء به ذو الجهل والعلم فى القدر
تضيع به الآداب حتى كأنها مصاييح لم تنفق على طلعة الفجر

وعبر الشعراء عن كراهيتهم لبعض الأطعمة كقول المنفلت فى هجاء
المرقاس : ^(٢)

لا أكل المرقاس دهرأ لنا ويل الورى فيه قبيح العيان
كأنما صورته إذا بدت أنامل المصلوب بعد السثمان

وساك بعض الشعراء مسلك ابن الرومى فى ذم الورد ، فمن ذلك قول ابن
خفاجة : ^(٣)

الأقل لذات الخال عنى إنى لأرغب عن خال تطلع فى خد
وزهدنى فى ذلك الخال نسبة أراها لخال الخد من جعل الورد

ونظم الشعراء مقطعات فى هجاء الخدم والعبيد والسقا ، كقول ابن
خفاجة فى أسود وجهه فى حاجة فأبطأ : ^(٤)

قبحت من أسود غيبى لا يفهم الوحى حين يوحى
أبطأ فى سعيه فحاكى فى حالتيه غراب نوح

ويقول الأسعد ابن إبراهيم بن بليطة فى ساق أسود : ^(٥)

^(١) المغرب ٢ / ٢٠٧ .

^(٢) الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٥٨ والمرقاس أو المركاس نوع من النقانق يدق اللحم ويعرك فى قصعه بشيء من الزيت
ثم يضاف إليه ثلاثة أرباع من الشحم ويحش به المصران ويقلى ثم تصنع له مرقة من خل وزيت . انظر كتاب
الطبخ ص ٢١ نقلاً عن هامش الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٥٨ .

^(٣) ديوان ابن خفاجة ص ١١١ .

^(٤) خرّيدة القصر ٢ / ١٦٣ .

^(٥) الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٩٦ .

يا رب زنجى لهوت به	الشمس عند سناه ممقوته
محدودب قد غاب كاهله	فى منكبيه فلا ترى ليته
قد حكم التجعيد لمته	فتراكممت فكانها توته
وإذا سعى بالكأس تحسبه	جعل يد حرج فص باقوته
وكانه والكأس فى يده	نجم رعى فى الجو عفريته

ووجه الشعراء سهامهم إلى المغنين والمغنيات ، وأكثروا من هجاء زرياب ، فانقطع لهجائه مؤمن بن سعيد ويحيى بن الحكم الغزال . الذى هجاء هجاء مقذعاً أغضب عبد الرحمن الأوسط فأمر بنفيه عن الأندلس ثم عاد وعفا عنه بعد توسط أكابر دولته ، وأغلب الظن أن هجاء الشعراء لزرياب يرجع إلى أسباب شخصية تتمثل فى حقدهم على المكانة التى حظى بها لدى الحكام ، ومما قاله فيه مؤمن بن سعيد : ^(١)

شكوت إليها الشوق لما تحملوا	شكاية محزون من البين حازع
وقالت وكف البين تمرى دموعها	ونار الهوى تهتاج بين الأضالع
ستصبر أو تبكى من الشوق مثلما	بكى الخز من إبطى على بن نافع ^(٢)

وقال مؤمن أيضاً فى هجاء زرياب : ^(٣)

تبارك من أذل الخز حتى	تمعك فيه أفواه الكلاب
ومن جعل الغوالى سائلات	على أصداغ أسود كالغراب

وقد أفرد الكتانى فى كتابه باباً فى هجو المغنيات . فمن ذلك قول أحد الشعراء : ^(٤)

وقيسة تدعى بتفتير	مفرغة فى قالب الزور
تبدو بوجه ما رآه امرؤ	إلا تمنى النفخ فى الصور

^(١) التشبيهات ص ٢٦٥ .

عى بن نافع هو زرياب المبنى .

التشبيهات ص ٢٧١ .

ص ٢٤٦ .

كانها والعود فى حجرها	حاسبة تنسبى بمجدور
لكعاء من أحسن حالاتها	صفع قفاهها بالمساوير
وصيدها الأعراد فى خلوة	ينسيك من صيد السنانير
تبأ لها من قينة عقلها	أخف من ريش العصافير

ويمزج إسماعيل بن بدر بين هجائه لبخيل وهجاء مغنية فيقول : ^(١)

تنفس لما لاحظ القوم خبره	وقطب لما لامسته الأصابع
فقلنا له إنا شباع فجد لنا	بعود فما فى القوم غيرك جانع
فأسمعنا درداء صلعاء رجعت	بصوت لها تستك منه المسامع
فوالله ما أدرى كلاب تهارشت	بحلقومها أم نقنقت بى ضفادع

هجاء المدن :

وهو اتجاه قديم يرجع ظهوره إلى القرن الثانى الهجرى حيث وجد شعر فى هجاء بغداد والبصرة وغيرهما ، وهو مقابل لاتجاه آخر فى مدح المدن ^(٢) ، وكان ظهور هذا الاتجاه فى الهجاء الأندلسى امتداداً لوجوده فى الشعر المشرقى كما كان ظهوره " مرتبطاً بواقع الشعراء وحياتهم الاجتماعية ، فقد فرضت عليهم ظروف العيش أن ينتقلوا من مدينة إلى أخرى ، وكان يحدث أحياناً أن يمر الشاعر بظروف قاسية فى مدينة من المدن ، فيصوب إليها سهام هجائه " ^(٣).

وقد أكثر الشعراء من هجاء المدن الأندلسية ، فلدينا شعر فى هجاء إشبيلية ومرسية وشاطبة والمرية ورندة وشريش وغيرها ، فمن ذلك قول ابن القاسم البطلوسى فى هجاء إشبيلية . ^(٤)

يا حمص لازلت داراً لكل بؤس وساحه

^(١) نفسه ص ٢٤٥ .

^(٢) الشعر فى القرن الثانى الهجرى ص ٣١٠ وما بعدها .

^(٣) الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٢٢٩ .

^(٤) اختصار القدح المعلى ص ١٥٧ .

ما فيك موضع راحة إلا وما فيه راحة

واتجه بعض الشعراء إلى هجاء مدنهم كما في قول أبي عبد الله بن ياسين الشاطبي يهجو مدينته : ^(١)

شاطبة قرية ضئيلة	ليست لمن أمها معينة
تهتضم الطيب اهتضاماً	وتأنف الدهر أن تبعه
والخبث المحصن تصطفيه	ضداً لما جاء في المدينة ^(٢)

ويلجأ بعض الشعراء في هجاء مدنهم إلى طريقة التلاعب اللفظي بأسمائها أو تصحيف هذه الأسماء لإلصاق صفة مستقبحة بها كقول ابن رفاعة في هجاء شريش : ^(٣)

شريش ما أنت إلا	تصحيف شريبين
فارحل فديتك عنها	إن كنت ممن قديين
فقلما ساد فيها	حر ولا ممن يعين

وقد يركز الشعراء في هجائهم للمدن على صفة مذمومة ألصقت بإحدى المدن واشتهرت بها كقذارة سكانها أو عدم نظافة أحيائها أو انتشار الأمراض والأوبئة فيها ، فمن ذلك قول السميسر يهجو مدينة (المرية) معرضاً بصفة عرفت بها وهي أن مرافقها مجلوبة ، وأن الميرة تأتيها من بر العدو ، فيقول : ^(٤)

بنس دار المرية اليوم دارا	ليس فيها ساكن ما يحب
بلدة لا تمار إلا برح	ربما قد تهب أو لا تهب

ويصفها وصفاً مزريراً معرضاً بقذارتها فيقول : ^(٥)

^(١) زاد المسافر ص ١٣٧ .

^(٢) إشارة إلى الحديث القائل : " المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكبر خد " .

^(٣) المغرب ١ / ٣٠٦ .

^(٤) نفح "عليب" ٣ / ٣٩٠ .

^(٥) نفح ٣ / ٣٩٠ .

قالوا المـرية فيها نطافة قلت : إليه
كانها طسنت نـير وببصق السدم فسيه

وقد يهجو الشاعر مدينة من المدن لوحشة انتاتته فيها كقول أبى الفتح بن
فاخر يهجو مدينة (رندة) : ^(١)

قبحت مطالعة الذنوب قبحاً لـرندة مثـلما
ما إن يفارقه القطوب بلد عليه وحشة
سوى بعد بين أن يؤوب ما حلها أحد فيـد
إلا وخـيل لى الغروب لم آتـها عند الضحى
تملا القلوب من الكروب أفق أغـم وساحة

وقد ينصب هجاء الشاعر على أهل مدينة معينة ، كأن يصفهم بالجبن أو
الذالة أو فساد الأخلاق أو سوء الطباع وما إلى ذلك من صفات مستهجنة كقول
المخزومي الأعمى يهجو أهل مرسية : ^(٢)

على أهل مرسية لعنة تعم الديار وأربابها
فما غلقت قط مد فتحت على فاضل الطبع أبوابها
كـلاب تهر إلى شاعر وتكشف للشر أنيابها

ويحتفظ بن بسام بقصيدة لأبى عامر بن الأصيل تعد أطول ما بأيدينا من
القصائد التى قيلت فى هجاء المدن ، وفيها لا يركز الشاعر هجاءه على مدينة
بعينها ، كما رأينا عند أضرابه من الشعراء ، بل يهجو كثيراً من المدن مثل
باجه وشلب وشنتمرية وغيرها من مدن الثغور والسواحل التى طاف بها سعيًا
وراء رزقه ولكنه لم يظفر منها بطائل ، ويعبر عن تجربته المريعة التى صادفها
فى تلك المدن ، ويذم حظه العاثر الذى قـدده إليها ، ويلحق الصفات المعيبة

^(١) المعرب ١ / ٣٣٤ .

^(٢) راد المسافر ص ١١٨ .

بأهلها ، فيصفهم بأنهم أوغاد . رعاع ، ويرميهم بالخزى والعار ، ويتهمهم
بالجبن ، والبخل . فيقول : ^(١)

إلى أين الفرار ولا فرار	ومن لى بالفرار ولا فرار
أرى الأوغاد بعثرون دورا	ومالى فى بلاد الله دار
أجول فلا أرى إلا رعاعاً	كبارهم إذا اختبروا صفار
أباحة لا وقاك الله شراً	فأهلك أهل مفسدة شرار
أشلب لا جزاك الله خيراً	فلا خير لديك ولا خيار
أشـنـمـريـة قبحت داراً	كؤوس المخزبات بهاتدار
أشـلـطـيش ألا غرق وشيك	تموج على ثراك به البحار
أونـسـبة تعددك الغـوادي	ولا هطلت بساحتك القطار
بلاد عريت من كل خير	فملبس أهلها مقت وعار
غلطت فزرتها فرأيت قوماً	منازلهم وإن عمرت قفار
تـرد على أشعاري ويجفى	رسولى ، والنباهة لى شعار
شتون بها على كره فغطى	على جدى ومعرفنى الغبار

ولم يكتف الشعراء الأندلسيون بهجاء مدنهم بل اتجهوا بهجائهم إلى مدن
أخرى غير أندلسية ، فنجد أبا الحسن ابن الإمام الغرناطى كاتب الأمير تميم
ابن يوسف بن تاشفين ينظم شعراً فى هجاء مراكش حاضرة الأندلس خلال
حكم المرابطين والموحدين ، فيعرض بجوها الكدر ، ومياها الآسنة ، كما يعرض
بخيانة بعض سكانها . ^(٢)

^(١) الذخيرة ٨٦١ / ٢ / ٣ .

^(٢) سج الغليب ٤ / ص ١٢ .

الفصل الخامس

هجاء التندر والسخرية

- التندر بالمؤدبين والقضاة والنجلاء
- هجاء الذات
- العيوب الخلقية
- الرسالة الهزلية لابن زيدون

نقصد بهجاء السخرية والتندر هذا الضرب من الهجاء الذى لا يصدر فيه الشاعر غالباً عن حقد أو سخط ، وإنما يعتمد فيه إلى العبث بأحد الأشخاص وإظهاره فى صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف ، وهو لون من ألوان التسلية وإزجاء الفراغ ، وإثبات القدرة على التصوير والإضحاك ، وهو بهذا المعنى نتاج الترف الحضارى .

ويعتمد هذا الهجاء على الطرفة أو النكتة أو الصورة المضحكة ، وقد شاع هذا الضرب من الهجاء فى الأندلس ، حتى لقد رأى الأستاذ غرسيه غومس أن الهجاء الأندلسى أصبح آخر الأمر مجرد تصوير فكاهى لاذع .^(١)

وقد أعان على ذىوعه أسباب متعددة ، يرجع بعضها إلى البيئة الأندلسية المتحضرة بما شاع فيها من لهو وفراغ وميل إلى الدعابة والتظرف ، كما يرجع بعضها الآخر إلى طبيعة الأندلسيين أنفسهم الذين جبلوا على خفة الظل وكلفوا بالمزاح ، وقد أشار إلى ذلك المقرئ فقال :^(٢) " ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة فى محاوراتهم وأجوبة بديهيّة مسكتة ، والظرف فيهم والأدب كالغريزة " ^(٣) ، كما أشار إلى هذه الظاهرة الشقندى فى رسالته حين تحدث عن وادى إشبيلية فوصفهم بقوله :^(٤) " وأحله أخف الناس أرواحاً ، وأطبعهم نواذر ، وأحملهم لمزاح ، بأقبح ما يكون من السب ، فقد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدناً ، حتى صار عندهم من لا يتبذل فيه ولا يتلاعن ممقوناً ثقيلاً " .

وتحتفل مصادر الأدب الأندلسى بكثير من النواذر والظرف التى تدل على تأصل روح المزح والدعابة عند الأندلسيين ، ولم يخل عصر من عصور الأندلس من شعراء يتصفون بهذه الصفة ، وحظيت فترة الخلافة بطائفة من الشعراء العابثين على شاكلة القلقاط والغزال ومؤمن بن سعيد وابن الشمر . وكان القلقاط

^(١) الشعر الأندلسى ص ٦١ .

^(٢) نفح الطيب ٢ / ٦١ .

^(٣) نفسه ٢ / ٦١ .

^(٤) نفسه ٣ / ٢١٢ .

ذا ولع بالمؤدبين يعبت بهم . وكان الغزال . ومؤمن بن سعيد لا يدعان فرصة من العبث تفوتهما ، وكثير ما يكون ضحايهما من القضاة أنفسهم " (١)

وكان القاضي (يخامر) ضحية عبث هذه الطائفة من الشعراء الذين : ندروا كثيراً بتصرفاته وسخروا مما عرف عنه من بله وغفلة ، فمن ذلك ما أشيع من أنه كان بين سحياته سحاة مكتوب فيها : " (يونس بن متى والمسيح ابن مريم) وخرجت السحاة إلى يخامر ، فأمر أن يدعى بهما ، فهتف الهاتف (يونس بن متى والمسيح بن مريم !) فصاح ابن الشمر : نزولهما من أشرط الساعة ؛ ثم أخذ سحاة فكتب فيها : (٢)

يخامر ما تنفك تأتي بفضحة	دعوت ابن متى والمسيح ابن مريما
بما قلت حيناً ثم ناداك صائح	فإنهما بقى على الأرض فاعلما
قفاك قفا خرباً ووجهك مظلم	وعقلك ما يسوى من البعر درهمما
فلا عشت مودوداً ولا عشت سالماً	ولا مت مفقوداً ولا مت مسلماً

ويذكر الخشني أن " القاضي يخامر حين ولي القضاء عامل الناس بخلق صعب ، ومذهب وعر ، وصلابة جاوزت المقدار ، فلم تحتمل له العامة ذلك ، فسلطت عليه الألسن وكثرت فيه المقالة " (٣) ، وكان يحيى بن الحكم الغزال أكثر الشعراء تندراً بهذا القاضي وذماً له ، ومن شعره فيه قوله : (٤)

فسبحان من أعطاك بطشاً وقوة وسبحان من ولي القضاء يخامرا
وتهكم عليه في قصيدة أخرى فقال : (٥)

لقد سمعت عجبياً	من آبدات يخامر
قرأ عليه غلام	طه وسورة غافر

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص ١١٨ .

(٢) قضاة قرطبة ص ٥٤ - ٥٥ ، المقتبس (تحقيق د. مكى ص ٢٠١) .

(٣) قضاة قرطبة ص ٥٤ .

(٤) نفسه ص ٥٤ .

(٥) المقتبس (تحقيق د. مكى) ص ٢٠١ .

فقَالَ : مَنْ قَالَ هَذَا ؟
أَرَدْتُ أَنْ أَصْغَعَ قَفْصَ صَاةٍ
أَتَيْتُ يَوْمَئِذٍ بِنَتِيسٍ
فَقُلْتُ قَوْمُوا اذْهَبُوا
هَذَا لَعْمُورِي شَاعِرٌ
فَخَفْتُ صَفْوَلةَ جَانِسٍ
مَسْتَعْبِداً مُتَجَاسِراً
فَقَالَ : إِنِّي يَخَامِرُ !

ويذكر الخشني أيضاً أن مؤمن بن سعيد القيسي كان " كثير التندر
والتهكم حاد الجواب ، لاذع التعليقات ، يتتبع زلات الناس ، ويكثر من
الهجاء ، وينبذ خصومه بالألقاب التي تدور على الألسنة بسرعة .. وكان له
مجلس يقرئ فيه شعر أبي تمام ويدرس الأحداث بجامعة قرطبة ، وعلى
مقربة منه مجلس القاضي ، وكان مؤمن عارفاً بما يجري من أمور في مجالس
القضاة ، فكان كثير العبث بهم ، وأكثر من مداعبة القاضي قبعة عمرو بن عبيد
الله والتعريض به وإضحاك الناس بذلك " (١) .

ويحتفظ الزبيدي في طبقاته ببعض نواذر القلواط مع المؤدبين والأعيان والشعراء ، فيذكر أنه أكثر من هجاء أحد الأشخاص ، وضاق الرجل بتعريضه ، فأخذ كيناً وذهب إليه في داره ، وعندما رآه القلواط وأحس بالشر في عينيه عمد إلى مصلاه واستقبل القبلة ، ودخل في الصلاة ، وأطال فيها ، فأمسك عنه الرجل ، وقال : يا فاسق ، والله لولا أنك عذت بمعاذ للقيت الله بدمك ، فإنك زنديق حلال الدم .^(١)

ويروى أن القلقاط بات ليلة عند أحد أصدقائه حتى تبليج الصبح وكادت الشمس تطلع عليهما ، فانتبه القلقاط ، فقال مخاطباً صديقه : ^(٣)

يا ديك مالك لم تصرخ لتنبهنا
يا أكل القدي ، يا سالحاً عبثاً

لقد أسأت بنا ديك الدجاجات
على الحصر بهيمي البهيمات

١١ قضاء قرطبة ص ١٠٤ ١٠٥ .

(^{١٧}) طبقات النحويين واللفويين للزبيدي ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(۴) طبقات الزییدی ص ۲۰۰.

فأجابه صديقه

لقد صرخت مراراً جمّة عدداً قبل الصباح وبعد الصباح تارات
لكن علمتك نواماً وذا كسل قليل ذكر لجبار السموات

وساعدت حلقات المؤدبين ومجالس الأنس والسمر على انتشار هذا اللون
من الهجاء الذى يقوم على التفكه والدعابة ، فمن ذلك ما ذكره المقرئ من أن
أبا عامر التيارى أنشد يوماً فى حلقة أبيات ابن الرومى التى نظمها فى خباز
وهى :

إن أنس لا أنس خبزاً مررت به يدحو الرقاقة وشك الملح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبسین رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دالرة فى صفحة الماء يرمى فيه الحجر

فقال بعض تلامذته : أما أنه لا يقدر على الزيادة على هذا ، فقال :

فكاد يضطر إعجاباً برؤيتها ومن رأى مثل ما أبصرت منه خرى
فضحك من حضر وقال : البيت لائق بالقطعة ، لو لا ما فيه من ذكر
الرجيع ، فقال : ^(١)

إن كان بيتى هذا ليس يعجبكم فمجلوا محوه أو فاعقوه طرى
ويذكر صاحب (زاد المسافر) أن المخزومى الأعمى دخل مرسية فهجا
بها القاضى أبا محمد عاشراً بقطعة منها :

تأملت تسعة رهط الفساد فألفيت عاشرهم عاشراً
فضاق به ذرعه ، فقال فيه أحد طلبة مرسية :

إن مخزومىكم رجـل ألف الأعواد من صغره
لو أننى كحلت أسفله لانجلي عنه عمى بصره

^(١) نفع الطيب ١١١/٢ .

فكان الصبيان يقولون له : أحتاج كحلاً يا أستاذ ؟ فكان ذلك سبب انتقاله من مرسية .^(١)

وقد راج هجاء التندر والدعابة في أوساط الشعراء والأدباء ، فاعتبى يداعب الرصافي ويسخر من بغلته التي لا تقدر على السير فيقول :^(٢)

هالكـة يركبها هالك	يعجب رائيه ورائيها
تضعف إن تشحج إلا كما	بين مضنى النفس شاكيها
يمشى بها الجهد رويداً كما	يهدى عروس الحى مهديها

ويتندر سعيد بن العاص بثوب أحد أصدقائه فيقول :^(٣)

وثوبه فى سسالف الزمان	خلعة فرعون على هامان
أفنى الليالى وهو غير فان	حتى غدا كالإفك فى العيان

فهو عليه وهو كالعريان

ووجد الشعراء فى البخلاء والطفيليين مادة خصبة للتندر مثل قول ابن نصر القرطبي^(٤) :

يا أيها الخارج من بيته	وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بمزاد له	فارجع تكن ضيفاً على الضيف

ويتندر ابن رضوان الملقى بأحد البخلاء فيقول :^(٥)

وبخيل لما دعوه لسكنى	منزل بالجنان ضن بذلك
قال لى مخزن بدارى فيه	كل مالى فلست للدار تارك
قلت رفقت للصواب فحاذر	قول خب مرغب فى انتقالك
لا تعرج على الجنان بسكنى	ولتكن ساكناً بمخزن مالات

^(١) زاد المافر ص ١١٩ .

^(٢) التشبيهات ص ٢٦٢ .

^(٣) التشبيهات ص ٢٥٢ .

^(٤) جدوة المقتبس ص ٣٥٦ .

^(٥) نفح العليب ١١١ / ٦ .

ورسم الشعراء صوراً كثيرة لمظاهر البخل عند بعض الناس ، وتندروا كثيراً بموائدهم وأطعمتهم على نحو يذكرنا بأحاديث الجاحظ في كتاب البخلاء ، فمن ذلك هذه الصورة الساخرة لأحمد بن محمد بن فرج : ^(١)

فعل اللئيم وليته لم يفعل	وأتى بفعل مثله لم يجمل
ذبح الضفادع في الصنيع ولم يدع	للنمل جارحة ولا للقمل
وضع الطعام فلو علته ذبابة	وقعت لتكمل شبعة لم تكمل
وكانما خرطت صحاف طعامه	- من دقة ودمامة - من خردل
وكان فترة صحفة عن صحفة	في البعد والإبطاء فترة مرسل

ويتندر ابن وهيب بمائدة صنعها أحد البخلاء فيقول : ^(٢)

ومائدة جسمها لطفه	بدل على صفقة خاسرة
فتلك لنا قد غدت دائرة	ونحن عليها نرى دائرة

ويركب ابن عبد ربه هذه الطريقة في السخرية والتندر فيقول : ^(٣)

طعام من لست له ذاكراً	دق كمداق بأن يذكرا
لا يفطر الصائم من أكله	لكنه صوم لمن أظفرا

وسخر الشعراء من الطفيليين الذين يقحمون أنفسهم في الحفلات وموائد الطعام ، فمن ذلك قول ابن فرج في طفيلي يدعى بابن الإمام وفي أشياعه : ^(٤)

أفديك من مستوجد غضبان	حتى يلوح له ضباب دخان
يقتاده شم القطار بأنفه	مثل اقتياد النجم للحيوان
وعلا الدخان بشنت بولة مربياً	ينبيه أين مطابخ الإخوان
فترى الإماميين حول ركابه	كالخيل صائمة ليوم رهان
لو يسمعون بأكلة أو شربة	بعمان أصبح جمعهم بعمان

^(١) المقتبس (تحقيق د. مكى) ص ١٧٥ - ١٧٦ .

^(٢) التشبيهات ص ٢٣٣ .

^(٣) نفسه ص ٢٤٤ .

^(٤) نفسه ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

منه ولا شوق إلى لقيان
بهما عليه تساقط الدُّبان
في لقمة كتخبط السكران
حمل وفي أعفاجه حملان
جيان لو ألبت قري جيان
عزومات نيته مدى نجران
منه وتلقاه بكل مكان

رار الفتنى القرشى لا لتعهد
حتى إذا وضع الخوان تساقطوا
ورأيت من بينهم متخبطاً
لم ينصرف إلا وفي أكمامه
وأحو ثقيف فر منه قاصداً
لو حل في نجران لم يبعد علي
كالموت تسعى في التخلص جاهداً

وتندر الشعراء بالألقاب المضحكة أو الشاذة كقول ابن رضوان المألقي في
رجل يلقب بالبعير : ^(١)

مأرب لم يسعد عليهن مسعد
أبا أحمد ، وارتد عنهم يهدد
مرامك بالمطلوب توفي وتحمد
وقد هدرت منه الشقاشق تزيد
فقلت له لا نخش فالعود ^(٢) أحمد

وذي لقب عنيت له عند صجبه
دعوه بعيراً فاستشاط فقال مه
فقلت له عد نحوهم لتعود من
فقال وقد غص الفضاء بصوته
لئن عدت نادوني بعيراً كمثلها

ووجد الشعراء في بعض المؤذنين والقراء مجالاً للدعابة ، فتصيدوا
أخطاءهم ، وتندروا بأصحاب الأصوات الغليظة منهم ، فمن ذلك قول سعيد بن
حكم في مؤذن سيء النغمة : ^(٣)

لـلـخـمـس فـيـه هـوـان
آذانـنا والبـنـان

للأبـى دى آذان
مـن أجـلـه تـتـلاقـى

ويذكر ابن سعيد أن أحد القراء غلط ليلة في بعض قراءته في التراويح
فقال مكان (والزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما إلى نهاية الآية)
فانكحوهما ، فقال أحد الشعراء : ^(٤)

^(١) نصح الطيب ١١ / ٦ .

^(٢) بوري بكلمة (العود) وتعني (البير) أيضاً .

^(٣) اختصار القدح ص ٢٠ .

^(٤) المغرب ١ / ٢٢١ .

أندع القاريء معني لم يكن في السقلين
امر السناس جميعاً بـ سـكاح الزانيين

ويذكر المقرئ أن ثلاثة شعراء صلوا خلف إمام مسجد قرية خارج مرسية
فأخطأ في قراءته وسها في صلاته ، فلما خرج أحدهما كتب على حائط
المدجد : ^(١)

با خجلتي لصلاة صليتها خلف خلف ^(٢)
وكتب الثاني تحته :

أغض منها حياء من المهيمن طرفي
وكتب الثالث تحته :

فليس تقبل منا لو أنها ألف ألف

ويندرج تحت هذا الضرب من الهجاء الأشعار التي نظمها الشعراء في
هجاء أنفسهم ، وقد اشتهر بهذا اللون ابن حزمون الذي وصف بأنه كان صاعقة
من صواعق الهجاء ، عاصر ابن عنين ، فكان هذا في المشرق وهذا بالمغرب ^(٣) ،
كما وصف بأنه " أحد بواقع الدهر ، بذى اللسان ، مقذع الأهاجي " ^(٤) ،
وقال عنه صاحب المعجب ^(٥) : " إن له في الهجاء يداً لا تطاول ، غير أنه
يفحش في كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش
والإفذاء ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة ، فقال في هجاء نفسه :

تأملت في المرأة وجهي فخلته كوجه عوز قد أشارت إلى اللهو
إذا شئت أن تهجو تأمل خليقتي فإن بها ما قد أردت من الهجو

^(١) نفح العليب ١٨ / ٤ .

^(٢) الخلف : المتخلف الذي لا خير فيه .

^(٣) المغرب ٢ / ٢١٤ .

^(٤) الذيل والتكملة ١ / ٥ ٢٤٠ .

^(٥) المعجب ص ٣٧٣ .

كان على الأزارار منى عورة تنادى الورى غصوا ولا تنظروا نحوى
فلو كنت ممن تثبت الأرض لم أكن من الرائق الباهى ولا الطبيب الحلو
وأقبح من مرآى بطى فإنه يقرر مثل الرعد فى مهمه دو
وللمخزومى الأعمى مقطعة يهجو فيها نفسه ويلف الهجاء بالغلزل لفاً
حسناً فيقول : ^(١)

رب حسناء كالغزالة حيداً والتفاتاً تزرى بحور الخلود
كلمتنى فطار قلبى إليها وتزجيت للظمءاء ورودى
فتجافت عن منظرى ثم قالت أترى الحور واصلات القسود
لم ألمها على الصدود لأنى كنت أهلاً من مثلها للصدود
وسبق الأعمى وابن حزمون شعراء آخرون إلى هذا اللون من الهجاء ، على
شاكلة مؤمن بن سعيد الذى يقول ^(٢)

فها أنا قد جئت أحمل لحية إليك لها خطب وشأن من الشأن
كأنى تيس قد تطاول عمره وأنى فنوناً من تيس وجديان
ولى صاحب تحت السراويل فاسق يقود بعثونى إلى كل خسران
واتخذ بعض الشعراء مما يلبسون مادة للدعابة ، فتندروا بقدم ملابسهم
واخلاقها ، ولهم فى ذلك صور طريفة مثل أبيات ابن قلزم التى يقول فيها : ^(٣)

وملبسى جبة صوف عفت تشق فيها الرياح أو تفتق
قد رفيت دهرأ وقد رفعت والتف فيها الزمن المخلق
واختلفت ألوان أخياطها بالرفق والتلفيق إذ تافق
سود وببيض مثل شيب بدا فى شعرات ضمها المفرق
ويصف ابن هذيل طيلسانه فيقول ^(٤)

^(١) المغرب ١ / ٢٣١

^(٢) التشبهات ص ٢٥١ .

^(٣) نفسه ص ٢٥١ .

^(٤) نفسه ص ٢٥٢ .

طيلساني طالر من نفس هو فوزى غيبش فى غلس
والسدى ألفسه ألفسه من هواء فارغ أو نفس

العيوب الخلقية

وجد الشعراء فى العيوب الخلقية عند بعض الناس مادة خصبة للتندر والدعابة ، فالتقطوا هذه العيوب مثل ضخامة الجسم أو احدودابه أو تضخم الأنف أو طوله أو تجدر الوجه ، وأبرزوها فى صور كاريكاتورية ساخرة على نحو ما كان يفعل ابن الرومى ، فمن ذلك هذه الصورة التى يرسمها عبد الله بن كليت لأنف الزهرى : ^(١)

أنفك يا زهرى فى قبحه كأنه فى صورة البوق
يقعد فى بيت لحاجاته وأنفه يمشى إلى السوق

ويستغل المخزومى الأعمى صفة (الحول) عند أحد الأشخاص ويفتن فى التعريض بها فيقول : ^(٢)

خا نجل إبراهيم ليلا بعسه فجامعها فى ساعة الدبران
فجاءت به مافون أشوه خلقه كريم عجان لا كريم بنان
وتزور إحدى مقلتيه لأختها كأنهما عنزان تنطحان

ويلتقط ابن صارة صفة اتساع فم أحد الأشخاص وقبح ثناياه فيسخر منه سخرية لازعة لا تخلو من إقذاع فيقول : ^(٣)

أما الثنايا فبأنى لست منثنياً عن الثناء عليها آخر الأبد
يبدو لدرفك منها حين تبصرها سن كمثل سن الصيقل الفرد
كان جن سليمان بنوا فمه بنيان تدمر بالصفاح والعمد
له فم كحرفى شكل صورته " ترمى غواربه العبرين بالزبد "

^(١) التشبيهات ص ٢٤٨ .

^(٢) خريدة القصر ٢ / ٢٥٦ .

^(٣) الدجيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

ويشبهه المخزومي الأعمى شخصاً أحذب بالقوس ويسخر منه سخريّة مرة
فيقول : ^(١)

وأحــدب لـيـس له هـمـة	ولا لـدّة فـي سـوى فـيـشـة
يـقـول أنا القـوس فـي شـكـله	فـلا تـنـكـروا الـهـم فـي بـدـر تـسـي
فـصـولـكم أبـداً زانـد	أفـقـحـتـكم تـلـك أم فـقـحـتـي

ولأبى إسحاق بن خفيف صورة طريفة التقط مادتها من أحد المشاهد التي
رآها حيث قبض على أحذب - وهو مع صبي في خلوة - فضربا ، وطيف
بهما ، والأحذب على عنق الصبي ، فقال في ذلك : ^(٢)

رأيت الـيـوم مـحمـولا	وأعـجـب مـسـنـه مـسـن حـمـله
جـمـال النـاس تـحـمـلـهم	وهـذا حـامـل جـمـله

وتندر الشعراء بضخامة الجسم ، فمن ذلك ما حكاه البياسي من أن
شخصاً ضخم الجثة مستثقلاً دخل عليه في مجلس أنس فقال البياسي : ^(٣)

أسقني الكأس ضاحيه ودع الشيخ ناحيه

فقال الكاتب أبو جعفر أحمد بن رضى :

إن تكن ساقياً له ليس ترويه ساقيه

ونظم الشعراء مقطعات كثيرة في هجاء اللحي ، وتندروا بها وبحامليها ،
ورسموا لها صوراً طريفة مثل قول عبيدیس الكاتب : ^(٤)

يا من عليه للعلاج	إنى إلى اللحية محتاج
وعندكم فى وشقة لحية	يحملها المائق حجاج
للشعر فى جانبها مسرح	فسيه من الأنعام أزواج

^(١) المغرب ١ / ٢٢٩ .

^(٢) نفح الطيب ٤ / ١٨ .

^(٣) نفه ٣ / ٣٩٠ .

^(٤) التشبيهات ص ٢٤٩ .

ومن صنوف الطير فى بعضها	بسط وسمان ودراج
يسيل من شاربها فوقها	مسلح غزير الفطر ثجاج
للبق فى عنونه مكمين	ومن ديب القمل أفواج
إذا مشى تبصر أفواجها	كانها فى البحر أمواج
يعقدها فى شعر وجعانه	فهو إذا عاش صناع

وقد شارك الزجل فى التندر بأصحاب اللحن ، بل لعله كان أقرب من الشعر فى التعبير عن هذه الناحية ، لأنه يخاطب جمهور العامة ، وكذلك فهو ادعى إلى الذبوع والرواج ، وأعلق بالأفواه والأذهان ، ولابن قزمان زجل يسخر فيه من أحد أصحاب اللحن ، وفيه يقول : ^(١)

من نشف وشقرف	أفزع أنت عنو
وآش تعمّل بواحد	مالو خير فى دقنو؟
قد أصبح نعثر	فى شى بردو يغلى
مدلل محير	ودقنو تقول لى
خليه أنت واصبر	وافرح لو بمثلى
هو يقلع وأنا اطلع	ومنى وممنو
كم ليلة ضممتموا	كالغزال الأحور
وشعروا لىوا سطوا	والخدبىد أحمر
والسيوم صار فى دقنو	كنو تسيب مصور
وهو التيس بعينو	وآش حاجسه نكنو؟

وقد راج هذا الهجاء الذى يقوم على الدعابة والإضحاك فى أوساط الأمراء والحكام ، بل إن بعضهم كان يشارك فيه على نحو ما يذكره الحميدى من أن الوزير سليمان بن واتسوس - أحد رؤساء البربر - كان أثيراً عن الأمير عبد الله ابن محمد ، فدخل عليه يوماً وكان عظيم اللحية ، فلما رآه جعل الأمير ينشد :

معلوقة كأنها جوالق
نكداء لا براك فيها الخالق

^(١) تنوّد اللال ورقة ٩٠ .

للقمل فى حافاتها فائق
فسيها لسباغى المستكى مرافق
وفى احتدام الصيف ظل رائق
إن الذى يحملها طائق

وتقول الرواية إن الوزير البربرى لم يتسع صدره لهذه الدعابة فرد على الأمير بقوله : " إنما كان الناس يرغبون فى هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم ، وأما إذا صارت جالبة للذل ، فلنا دور تسعفنا وتغنينا عنكم ، ثم وضع يده فى الأرض وقام من غير أن يسلم ، ونهض إلى منزله فغضب الأمير وأمر بعزله " (١) ويذكر المقرئ أن عبد الرحمن الناصر جلس ذات يوم فى جماعة من خواصه ومعهم أبو القاسم بن لب ، وكان يعده للمجون والتطايب ، فطلب منه أن يهجو عبد الملك بن جهور -- أحد ورائه -- فقال : أخافه ، فقال لعبد الملك وزيره : فاهجه أنت ، فقال : أخاف على عرضى منه ، فقال الناصر : أهجوه أنا وأنت ، ثم قال :

لب أبو القاسم دولحية طويلة أزرى بها الطول
فقال عبد الملك :

وعرضها كبلان إن كسرت والعقل مافون ومخبول
فقال الناصر للـب : اهجه فقد هجاك ، فقال بديها :

قال أمين الله فى عصرنا لى لحية أزرى بها الطول
وابن جهير قال قول الذى ماكوله القرضيل (٢) والبول
لولا حيائى من إمام الهدى نخست بالمنخس شو (٣)

(١) بنية الملتقى ص ٣٠١ .

(٢) القرضيل : شوك له ورق عريض تأكله البقر .

(٣) كلمة (شو) اسم لذكر الرجل بالرومية وكلمة (قولو) اسم للاست بها ، فكأنه قال : لولا حيائى من إمام الهدى نخست بالمنخس الذى هو الذكر استه . نفح العليب ٦١٨/٣ .

ثم سكت فقال له الناصر : هات تمام البيت . فامتنع ، فقال له (قولو)
يعنى تمام البيت . وهى كلمة قالها الناصر مسترسلا غير متحفظ من زيادة الواو
وإبدال الهاء الأخيرة واواً ، إذ صوابها (قلّه) على حكم المشى مع الطبع
والراحة من التكلف ، فقال لب : يا مولانا ، أنت هجوته ، ففطن الناصر
والحاضرون إلى ذلك .^(١)

ويحتفظ ابن بسام بأرجوزة مزدوجة خاطب بها الوزير (ابن بقية) على
لسان جارية كان أهداها إليه . وضاعت بها الحال عنده ، فقالت تسخر منه
وترميه ببعض الصفات المعيبة كالقبح والبخل والفجور :^(٢)

أدفع ما حل من المحدور
فى القبح والفقر خفى الموضع
من فقره حتى دهى بالشيب
طلعة حالكه صعلوكه
وهو شقى ليس بالمحمود
أسود كالسروة فى الظلماء
إذا لم يفز بطائل الملاحه
لفرط الإلمام بسوق الغزل
والاكل والشرب وحلة الطرف
واطرحى عن نفسك المطامع
فمما له عند البرايا قدر
أعجز فى البيت من الضريس
إذا بدا فى كسوة الغر نسوق
مداولا عصاه فى كفيه
منكمشاً فى طلعة الصياد
ومرة يمشى وعشراً يقع
لقلت سبحان الذى أبلاه

إنى بالله وبالوزير
وهبتنى لأوحد منقطع
ولم يكن لى بهذا العيب
جعلتنى أسيرة مملوكة
يعزى على الفال إلى مسعود
كما يكنى بأبى البيضاء
وكنيت أرجومعه للراحه
إذا به أدخلنى فى شغل
وقال لى إن كنت تهوين التحف
فانتبهى وحكمى الأصابع
قد كسدت آدابه والشعر
الحن فى أشعاره من تيس
ولو تراه سائراً للسوق
مشمراً فى الطين عن ساقبه
ياخذ فى التعبير والإزهاد
فمرة يعطى وألفاً يمنع
ولو تترى ياذا الندى مثواه

^(١) نفع العليب ٣ / ٦٦١٧ - ٦١٨ .

^(٢) الذخيرة ١ / ١ / ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

وعلى هذا النحو تمضى الجارية فى السخرية من صاحبها ، والإزاء به على نحو يذكركنا بطريقة ابن حجاج البغدادي فى الهزل والإحماض .

ونافس النثر الشعر فى هذا الضرب من الهجاء ، وبرع بعض الكتاب فى التندر والدعابة على شاكلة الأديب أبى عبد الرحمن بن طاهر الذى قال عنه ابن بسام : " ولله عدة نواذر أحر من الجمر ، وأدفع من الصخر " ^(١) ، ويحتفظ له برسالة يتهم فيها بصاحب له حضر محاصرة شاطبة وأظهر من الجبن والخوف ما جعل ابن طاهر يقول فيه ^(٢) : " ورأيت مآل الأمر بوقوع الحرب وشروع النقب ، وأنه وضعت الملاطيس " ^(٣) ، فقلت : الآن حمى الوطيس فأرجو أن يصحب الظفر ، ويسعد القدر ، وحدثت أنه دعيت " نزال " فكنت أول نازل ، فقلت لمحدثي : أمجد أنت أم هازل ؟! سيدى أشد بأساً وأعز نفساً ، من أن يرى يوم جلاد ، إلا على ظهر جواد ، فإن لبس زغفاً ، هزم ألفاً ، وإن تقلد صمصامه ، لم يبق هامة ، ولكن أذكره بهذه الشهامة قول أبى دلالة :

ولو أن برغوئاً على ظهر قملة بكر على صفى تميم لولت
وقوله :

إذا صوت العصفور طار فؤاده زيت حديد الناب عند الثرائد

وعمد بعض الكتاب إلى التصوير الهزلى فى رسم شخصياتهم ، على النحو الذى نراه فى رسالة ابن عباس الكاتب التى يتندر فيها برسول أبى المغيرة بن حزم ويصوره تصويراً أقرب إلى التصوير الكاريكاتيرى فيتخيله تارة فى زى حاو أو لعاب ، ويتفتته بثيابه الواسعة الفضفاضة ، فيقول : ^(٤) " أنهى إلى كتابك رجل طويل القامة ، صعل الهامة ، بعينيه ليانه ، وعلى أسنانه طرامة ، وفى شاشتية وضارة ، وفى منطقته لكنة صعبة ، وعلى أنفه عقدة

(١) الدخيرة ٦٨ / ١ / ٣

(٢) نفسه ٦٨ / ١ / ٣ - ٦٩ .

(٣) الملاطيس : المناقير من حديد .

(٤) الدخيرة ٦٤٥ / ٢ / ١ وما بعدها .

كالكبة ، وفى أطواقه سعة يخرج منكباه من أقطارهما . كأنها ثياب واله . أو
شبارق راهب تائه ، وفى مشيته تفج قبيح كأنه عائم فى يابس . وعليه غفارة
شفافة شبكية السيدارة ، ^(١) وأظن العمالقة غزلت صوفها فى زمن الفتحل ...
فوحق الطرب وحرقه الأدب لقد هممت أن أوفى الشطارة حقها ، وأسم
الخلاعة وسمها ، فأجعل فى يده عكاز قصبه خضراء . وفى رأسه قلنسوة
بيضاء وأضع على عاتقه ضرباً بنخالة ، وأقيم من نفسى ومن حضر عراقه وآلة
، وأخذ به من طرق بنى مرخادى على قارعة المحجة بين الناس . وأقلده
سيف الباجى أبى القاسم ”

^(١) السيدارة : القلسوة بلا اصداغ .

الرسالة الهزلية لابن زيدون :

تعد الرسالة الهزلية لابن زيدون من أكثر الرسائل الأندلسية تعبيراً عن هذا النوع من الهجاء الساخر ، وقد كتبها ابن زيدون على لسان ولادة يسخر فيها من ابن عبدوس غريمه ومنافسه في حبها وتمتزج فيها السخرية بالذم وقد استهلها بقولـه^(١) : " أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتني مستهدياً من صلتى ما صفرت منه أيدي أمثالك ، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك مرسلًا خليلتك مرتادة ، يستعملا عشيقتك قواده ، كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إلى ، وتخلف بعدها على " .

ويصطنع ابن زيدون طريقة الجاحظ في السخرية ، فيخلع على ابن عبدوس ما خلعه الجاحظ على أحمد بن عبد الوهاب في رسالة " التبريع والتدوير من صفات ليست فيه إيغالا في الإزراء به ، وامعانا في السخرية منه ، أكثراً من الأمثلة والشواهد التي تمثل ثقافة ابن زيدون في شتى ضروب المعرفة على نحو ما يبدو في قوله : " ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك ، وملتك إذ لم تغر عليك ، فإنها أعذرت في السفارة لك . وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك والإسكندر قتل دارا في طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف

^(١) ديوان ابن زيدون ص ٢٣٥ وما بعدها تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية .

لخروجهم عن جماعتك ، والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى
منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك ، وأن
مالك بن نويرة إنما ردف لك ، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك .. ”

وعلى هذا النحو من التهكم وحشد الإشارات التاريخية والدينية والفلسفية
وغيرها يمضى ابن زيدون فى رسالته ، فالسموأل تعلم الوفاء من ابن عبدوس
وحاتم الطائي جاد بوفره ، وسحبان أخذ عنه الفصاحة ، وأفلاطون أعطى
تلميذه أرسطو فضل علمه ، وبطليموس ابتكر آلة الاضطراب على هدى من
تفكيره وتدبيره ، ويمعن ابن زيدون فى المبالغة بقصد السخرية من غريمه فهو
الذى ” أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحد الماهية ، وبين الكيفية والكمية ،
وفك المعنى ، وفصل بين الاسم والمسمى ، وصرف وقسم وعدل وقوم ، وصنف
الأسماء والأفعال ، وبوب الظرف والحال ، وتصفح الأديان ورجح بين مذهبي
مانى وغيلان ” وأنه لو شاء خرق العادات ، وخالف المعهودات ، فأحال
البحار عذبة وفجر من الحجارة مياهاً رطبة ، ونقل الغد فصار أمساً ، وزاد
العناصر فكانت خمساً ” .^(١)

ومثل هذه المبالغة فى الوصف تستشير القارىء وتدعوه إلى مشاركة ابن
زيدون سخريته واستخفافه بابن عبدوس ، وطريقة ابن زيدون هنا تقترب أيضاً
من طريقة البلاغيين فى الذم بما يشبه المدح ، غير أن ابن زيدون لا يسير فى
هجائه على وتيرة واحدة ، فهو ينتقل من الذم غير المباشر إلى الذم المباشر على
نحو ما يبدو فى قوله : ” هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق
والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، سىء الجابة والسمع ، بغيض الهيئة ،
سخيف الذهاب والجيفة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعاييب
مشهور المثالب ، كلامك متممة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك
قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة وعلمك مخرقة :

^(١) ديوان ابن زيدون ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

مساو لو قسمن على الغوانى لما أمهرن إلا بالطلاق^(١)

ويمعن ابن زيدون فى الاستخفاف واستهزاء بابن عبدوس حين يقارن بينه وبين من شهرروا بالبله والسفه والغباء على مر العصور كما فى قوله :
" حتى إن باقلا موصوف بالبلاغة إذا قرن بك ، وهبنقة مستوجب لاسم العقل
إذا أضيف إليك ، وطويسا مأثور عنه يمن الطائر إذا قيس عليك ، فوجودك
عدم والاعتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة معك سقر " .^(٢)

ويعمد ابن زيدون إلى تضخيم الصورة والإضافة إلى حواشيها واستقصاء
جوانبها وتتبع جزئياتها ودقائقها لتبدو أكثر سخرية وإضحاكاً كقوله :
" وعطرت أردانك ، وجررت هميانك ، واختلت فى شيتك ، وحذفت فضول
لحيتك ، وأصلحت شاربك ، ومططت حاجبك ، ورققت خط عذارك ،
واستأنفت عقد إزارك .. " .^(٣)

والتشابه واضح بين رسالة ابن زيدون وبين رسالة التبريع والتدوير
للجاحظ التى كتبها إلى أديب " كان يكثر من نقده وذمه وهو أحمد بن عبد
الوهاب الكاتب البغدادي ، واتفق إن كان هذا الأديب قصيراً ملوئاً فنعته بأنه
مربع مدور ، واستمر يضيف عليه صوراً ساخرة من الجمال ، وصوراً أخرى من
المعرفة ، ووقف منه موقف المتعلم يسأله عن مشاكل الفلسفة والعلم ، وأورد
عليه كثيراً من أسماء الرجال فى كل ميدان من ميادين الثقافة " .^(٤)

وقد وصلت رسالة الجاحظ إلى الأندلس فى وقت مبكر ، فقد أورد ياقوت
على لسان أبى محمد النجيرى من قوله : " كنت بالأندلس فقيل لى : إن
هاهنا تلميذاً لأبى عثمان الجاحظ يعرف بسلام بن زيد ، ويكنى أبا خلف ،

(١) ديوان ابن زيدون ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) نفسه ص ٢٤٢ .

(٣) ديوان ابن زيدون ص ٢٤٥ .

(٤) ابن زيدون ، تأليف الدكتور شوقي ضيف ص ٤٤ .

فاتيتته وسألته عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان . ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس فقال : كان طالب العلم بالشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان . فوقع إلينا كتاب " التربيع والتدوير " له " (١)

وأعجب ابن زيدون برسالة الجاحظ ، فحذا حذوه ، واصطنع طريقته في السخرية والتهكم ، وقلده في تضمين الشواهد والاقتباس من القرآن والحديث والشعراء والأمثال والتاريخ والفلسفة والعلم ، وأسرف في هذه الناحية حتى غدت الرسالة معرضاً لإظهار ثقافته ، واستحالت إلى ما يشبه المتن مما حدا بابن نباتة إلى شرحها وفك معمياتها في كتاب سماه (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) .

^(١) معجم الأدباء ١٠٤١١٦ وما بعدها .

الفصل السادس

المعارك الهجائية بين الشعراء

يعكس شعر الهجاء تلك الخصومات والمعارك الهجائية التي نشبت بين شعراء الأندلس ، وكان الجانب الأكبر من هذا الشعر نتاجاً للمنافسة الأدبية بين الشعراء ، إذ كان كل شاعر يسعى إلى إثبات تفوقه وجدارته حتى يضمن الزواج لبضاعته في سوق الأدب ، وفي قصور الملوك والأمراء ، وكان كثير من الشعراء يتكسبون بالشعر ويعتبرونه بضاعتهم الوحيدة التي تهيم لهم أسباب العيش والرزق ، وطبيعي أن تشتد المنافسة بين أصحاب المهنة الواحدة حتى تصل إلى درجة العداء والخصومة في بعض الأحيان .

وترجع هذه الخصومات الشعرية بين شعراء الأندلس إلى عهود مبكرة ، ففي (المغرب) رواية تتحدث عن خصومة وقعت بين الشاعر أبي المخش عاصم ابن زيدون وبين شاعر يدعى (ابن هبيرة) ، وكان أبو المخش مشهوراً بقول الشعر إلا أنه كان جسوراً على الأعراض ، فقطع لسانه هشام بن عبد الرحمن ، وتعرض أبو المخش في محنته لهجاء الشعراء ، فكانوا يطعنون في نسبه ، ويتهمون به بالنصرانية ، كما كانوا يعرضون بحادثة قطع لسانه ، وإلى ذلك يشير ابن هبيرة بقوله : ^(١)

أقلفتك التي قطعت بشوش دعتك إلى هجائي وانتضالي

ورد عليه أبو المخش بقصيدة التزم فيها بالبحر والروى ، لم يبق منها إلا قوله : ^(٢)

سألت وعند أمك من ختاني بيان كان يغنى عن سؤالي

ويحدثنا (ابن بسام) عن خصومة أخرى نشبت بين أبي حاتم الحجارى وبين شاعر يدعى (ابن أحمد) ، ويحتفظ ببعض قصائد الهجاء التي تبودلت

^(١) المغرب ٢ / ١٢٣ ، بدائع البداهة ص ٢١ .

^(٢) المغرب ٢ / ١٢٣ .

بينها ، وتقوم معانى الهجاء على ادعاء كل منهما السبق على الآخر فى إجادة الشعر . كما يعرض (ابن أحمد) بلقب الحجارى ، كقوله : ^(١)

قالوا الحجارى وظنى أنه حجر	والدر ليس بمنحوت من الحجر
عنى إليك من اشعار لها غرر	غيرى يباحث بالتحجيل والغرر
بيت بيت ومصرع بمشبهه	حتى يصدق خبرى ذائع الخبر

وقد رد عليه الحجارى بقصيدة قال فيها : ^(٢)

قف يا ابن أحمد لا تجمع على غرر	كوقفة العير بين الورد والصدر
ولا تعرض فعندى كل شاردة	كالنار تلقى إلى الأشرار بالشرر
إن شئت سلماً فسلماً أو محاربة	عندى أناة وعندى بطشة القدر

واستمر التراشق بين الشاعرين ، ونظم (ابن أحمد) قصيدة أخرى يشيد فيها بشاعريته ، وينتقص من قدر أبى حاتم وفيها يقول : ^(٣)

أمرت منى جفاء غير مؤتمر	كالدلب نهنه عدو الضغيم الهصر
والعير مستوقف الأفراس سابقة	كوقفة العير بين الورد والصدر
إن كنت مستأخراً يوماً فلا عجب	فوالد الكتب قد أثبتن فى الطرر
وبين فكرى ونفسى كل صائبة	كالسهم ينفذ بين القوس والوتر

ويعارضه أبو حاتم بقصيدة مماثلة يفخر فيها بشعره ويعرض بمنافسه فيقول : ^(٤)

أنا الحجارى والياقوت من حجر	والماء ينبع سلسالا من الحجر
وركن مكة فيه ما سمعت به	تراك تجحد أو تعمى عن النظر
لا تحسب الشعر إلا دوح باسقة	أصبحت أقطف منها يانع الثمر
لى المحاسن وانظر قلما خفيت	إلا على جاهل بالشمس والقمر
أخفى عليك ولكن سوف تعرف بى	ليئناً تكنف ملتفاً من الشجر

^(١) الدخيرة ٢ / ٣ / ص ٧٥٤ وما بعدها .

^(٢) نفسه ٢ / ٣ / ص ٧٧٠ .

^(٣) نفسه ٢ / ٣ / ص ٧٧٠ .

^(٤) الدخيرة ٢ / ٣ / ص ٧٧٠ .

ماذا تريد بنسج هلهلته يد أخشى عليك هجوم القر في صفر

ولا نجد فيما أورده ابن بسام من تهاجي الشعارين أكثر من هذا التفاخر
أو هذه المباهاة بشاعرية كل منهما ، مما أفقد شعرهما كثيراً من توهج الهجاء
وحيويته .

وشهد عصر الطوائف معارك هجائية حامية بين الشعراء وذلك لوجود
كثرة من شعراء الهجاء البارزين في هذا العصر كالسميسر والأبيض وابن صارة
وغيرهم بالإضافة إلى اهتمام ملوك الطوائف بالشعراء وإغداقهم الأموال والصلوات
عليهم ، مما أدى إلى وجود تنافس قوى بين هؤلاء الشعراء للاستئثار بحظوة
الملوك ، وكان المعتمد بن عباد أكثر ملوك الطوائف تقريباً للشعراء وإيثاراً لهم ،
فتنافسوا فيما بينهم للظفر بإعجابه ، وأخذ هذا التنافس صوراً عديدة كأن يلجأ
أحد الشعراء إلى الفخر بشعره أمام المعتمد أو أن يعرض بأضرابه الشعراء فيزرى
بمكانتهم ويسعى إلى الانتقاص من شأنهم كما فعل يوسف بن عبد الصمد حين
أنشد قصيدة أمام المعتمد عرض فيها بمنافسيه من الشعراء أمثال ابن اللبانة
والقزاز والحجام وافتخر بشاعريته فقال : ^(١)

والشعر بهجته إذا نطقت به	بين المحافل ألسن الأعيان
ما كان قول الشعر إلا خطبة	كانت مراتبها على كيوان
حتى تدنس ثوبها بزعانف	نشأت على الأوضار والأدران
من صنعة القزاز والحزار أو	من صنعة الحجام واللبنان

واحتدمت معارك عنيفة بين شعراء الهجاء البارزين ، وكانت هذه المعارك
أشبه بميدان يحاول كل شاعر فيه أن يبرز أقوى ما لديه من أسلحة الهجاء .
فلم يترك أحدهم صفة معيبة إلا وألحقها بصاحبه ، فمن ذلك هذه المعركة التي
نشبت بين الأبيض وبين ابن صارة الشنتريني ، وكلاهما هجاء خبيث الهجاء

^(١) الدخيرة ٢/٣ ص ٨١٤ .

وقد أدى إلى تشابك الشاعرين سخرية ابن صارة من أحد أبيات الأبيض . وذلك حين نظم غزلية كان مما قاله فيها : ^(١)

كونى على حذر فإن عدائنا	بترقبونك بالمكان البلقع
فإذا لقيت سراتهم فتقننى	حذراً على خلق الهمام الأروع
لقى بنائك بالرداء وسلمى	تكفى الكريم إشارة بالإصبع

وكان ابن صارة إذا لقي الأبيض لف إصبعه فى كفه وسلم عليه تعريضاً بهذا البيت حتى أخرجته ، فكاست تلك هى الشرارة التى أشعلت الحرب بينهما ، فقال ابن صارة يهجو الأبيض : ^(٢)

ومن العجائب أن يكون الأبيض	بحماره وسط السوايق يسركض
أنى له تقربها أو خبها	ما العير إلا أن يحث فينهض
العير غير مدلة إن لم يهن	أو لا فما إن فيه عرق ينبض

ورد عليه الأبيض بقصيدة موجهة أفحش فيها وأزرى بشاعريته فقال :

جن ابن صارة والحوادث تعرض	والكلب فى مهوى العصا يتعرض
أغروه أن قالوا شويعر قطعة	لا شاعر فحل يمر وينقض
ولقد نزوت على القوافى نزوة	كادت لها أبكارها تتمحض
والله لولا أن يقال تجاهلا	إنى صبوت وإن رأسى أبيض
لجعلت غرمول الحمار بكفه	حتى يرى هل فيه عرق ينبض

وتذكرنا هاتان القصيدتان - إلى حد ما - بأسلوب جرير والفرزدق فى النقائض من حيث محاولة كل منهما الإزراء بصاحبه والانتقاص منه ، ومن حيث النسج والصيغة كما أننا نحس بأن الأبيض حاول أن يركب طريقة الفرزدق فى الهجاء وإن كان ثمة فرق كبير بينهما .

راد المسافر ص ١٠٨ .

ص ١ / ٢ / ص ٩٠١ .

وكان السميسر أحد بواقع عصره في الهجاء ، فلم يسلم أحد من هجائه ويحتفظ له ابن بسام بقطعة في هجاء معاصره أبي عبد الله بن الحداد قال فيها :

قالوا ابن حداد فتي شاعر قلت وما شعر ابن حداد
أشعاره مثل فراخ الزنا فتش تجد أخبث أولاد

وكان الشعراء يخافون السميسر ويخشون سلاطة لسانه ، حتى لنجد شعراً في هجائه مجهول النسبة والهوية كقول أحدهم : ^(١)

إن كنت تهوى مـلـيحاً فلا تقل بمـعـدر
واهـمـو الصـغار فـفيهم على الحـقـيـقة تـعـدر
دع الكـبار لـقـوم دانوا بدين السـمـيسـر

ومن الطريف أن نجد شواعر الأندلس ينزلقن إلى معارك الهجاء ، ويخضن فيما خاض فيه الشعراء ، فقد هجت مهجة القرطبية ولادة ، رغم ما عرف عنهما من صلة وطيدة ، إذ علقت بها ولادة ، وتأدبت عليها ، ولكن وقع بينهما ما اقتضى تغير مهجة على ولادة فهجتها هجاء موجعاً قالت فيه : ^(٢)

ولادة قـد صـرت ولادة من غير بـعل ، فـضح الكـاتم
حكـت لـنا مـريم لـكنه نـخلـة هـدى ذـكر قـائم

وينسب إلى ولادة شعر في هجاء ابن زيدون رغم أنه شغف بها حباً ، وخلع فيها عذاره ، وقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات ، وفي هجائها تخلع على ابن زيدون أقبح الصفات ، كاللواط والزنا والسرقة على نحو ما يبدو في قولها : ^(٣)

ولـقـبت المـسدس وهـو نـعت تـفـارقك الحـياة ولا تـفـارق

^(١) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٩٤ .

^(٢) نفح الطيب ٤ / ٢٩٣ .

^(٣) نفد ٤ / ٢٠٥ .

فلوطى ومأبون وزان وديوث وقرنان وسارق

وتهجوه مرة أخرى هجاء مقذعاً فتقول :^(١)

إن ابن زيدون على فضله يعشق قضبان السراويل
لو أبصر الأير على نخلة صار من الطير الأبابل

كما ينسب لولادة بيتان آخران فى هجاء شخص يدعى (الأصبحى)
وهما لا يختلفان عما سبقهما من نزوع إلى الفحش كما فى قولها :^(٢)

يا أصبحى اهنا فكم من نعمة جاءك من ذى العرش رب المنين
قد نلت باس ابك ما لم ينل بفرج بوران أبوها الحسن

وشهد عصر المرابطين معركة حامية بين المخزومى الأعمى وبين نزهون
الغرناطية ، وكان الأعمى من أبرز شعراء الهجاء الذين عرفتهم الأندلس ، وقد
وصفه ابن الخطيب بأنه كان شديد القحة والشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً
على الأعراض سريع الجواب ، ذكى الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً فى
ميدان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره " (٣) ، وأما نزهون فكانت من أشهر
شواعر غرناطة فى عصر المرابطين ، وقد بدأت المهارات الهجائية بينهما
عندما اعترضت على معنى بيت أنشده الأعمى فى أحد المجالس ووجهت إليه
كلاماً عنيفاً نحو قولها : " إن من يجىء من حصن المدور ، وينشأ بين تيروس
وبقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم " (٤) فأثارت كلماتها الأعمى فهجأها
بقوله :

على وجه نزهون من الحسن مسحة وإن كان قد أمسى من الضوء شارب
قواصد نزهون توارك غيرها ومن قصد البحر استقل السرب

(١) زاد المسافر ص ١٠٩ .

(٢) نفسه ٢٠٦ / ٤ .

(٣) الإحاطة ١ / ٤٣٢ .

سد ١ / ٤٣٤ . نفع الغيب ١ / ١٩٢ .

وردت عليه نزهون بقصيدة رمته فيها بأقبح الصفات ، وملأتها بالبذاءة
والفحش قالت فيها : ^(١)

قل للوضيع مقالا يتلى إلى حين يحشر
من المدور أنشئت والخرا منه أعطى
حيث السبداوة أمسيت فى أهلها تتبخر
لذاك أسيت صبا بكل شىء مدور
خلقت أعمى ولك من تهيم فى كل أعور
جازيت شعراً بشعر فقل لعمري من اشعر
إن كنت فى الخلق أنثى فإن شعري مذكر

ورد عليها الأعمى بقوله : ^(٢)

ألا قل لنزهون مالها تجر من التيه أذيالها
ولو أبصرت فيشة شمريت - كما عودتني - سر بالها

ولم تنته هذه المعركة الهجائية بين الشاعرين إلا بتدخل والى غرناطة فى
ذلك الوقت أبو بكر بن سعيد . ^(٣)

وكانت نزهون منفراً فى معركة هجائية أخرى مع ابن قزمان الذى هجاها
هو الآخر هجاء مقذعاً ذكره المقرئ . ^(٤)

والواقع أن الأعمى ونزهون وابن قزمان كانوا زعماء طبقة من أدباء الأندلس
عرفوا بالمجون والتهتك ، والقدرة على الإضحاك والتفنن فيه ، وكانوا لا
يتورعون عن الإغارة على الأعراض أو الخوض فى أفحش الأمور فخافهم
الناس ، واتقاهم الحكام . واختصوا بكثير من الهدايا والطرف اتقاء لألسنتهم .
وتحتفظ كتب الأدب ببعض الروايات التى تكشف عن مجونهم وتهتكهم .

^(١) نفسه ١ / ٤٣٤ .

^(٢) نوح الطيب ١ / ١٩٣ . المغرب ١ / ٢٢٨ .

^(٣) نفسه ١ / ١٩٣ .

^(٤) نفسه ٤ / ٢٩٧ .

ولم يخل (عصر الموحدين) من وجود معارك هجائية بين الشعراء . فقد قامت خصومات بين ابن الأبار وبعض الشعراء ^(١) ، كما نجد هجاء لابن سهل فيمن رآهم يتطفلون على الشعر ^(٢) ، ولعل أوضح هذه الخصومات ما كان بين ابن مرج الكحل وبين أبي حريزة محفوظ بن مرعى الشريف . إذ يحتفظ صاحب (زاد انسافر) بمقطعات تبودلت بين الشاعرين . وفيها يلصق الشريف صفة الشؤم بشعر ابن مرج الكحل كما يبدو في قوله : ^(٣)

مالى أرى شعر مرج كحل أشام من ناقة البسوس
فإنما شعره مغسير شن مغاراً على النفوس

ويردد هذه المعاني في مقطعة أخرى فيقول : ^(٤)

تبست يدا مرج الكحول فإنه أفنى الأنام بشعره المشؤوم
قد أهلك الإسلام شؤم مديحه هلا أشار بمدحه للروم

ويدور هجاء ابن مرج الكحل للشريف حول اتهامه بالزندقة والقبول بالتعطيل والتحريف . كقوله : ^(٥)

أيا عجباً ما للشريف يدمنى وينضنى حتى كأنى مسجد
ولا عيب عندى غير أنى مسلم وأن اسمى اسم الناشمى محمد

ويقول : ^(٦)

وغد يرى الصلوات نافلة له ويقول بالتعطيل والتحريف

كما يتهمه ابن مرج الكحل بوضاعة النسب وانحطاط الأصل : ^(٧)

^(١) ابن الأبار - حياته وكتبه - ص ١٦٣ .

^(٢) ديوان ابن سهل ص ٦٥ .

^(٣) زاد المسافر ص ١٢٤ .

^(٤) ضد ص ١٢٤ .

^(٥) نقد ص ١٢٥ .

^(٦) ضد ص ١٢٦ .

^(٧) ضد ص ١٢٥ .

أيسا ناقصاً يدعى أنه كريم الجدود شريف السلف
الاجيء لنا بساب واحد وضع ونحن نخط الشرف

وفى العصر الغرناطى ، نشبت خصومة عنيفة بين ابن الخطيب وبين تلميذه ابن زمرك ، ولكن أصداءها لم تنعكس بصورة واضحة فى شعرهما ، وقد أورد (المقرئ) قصيدة لابن زمرك قالها بعد وفاة ابن الخطيب وخلع السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم الذى قتل ابن الخطيب فى دولته ، وفيها تعريض بأحد الوزراء ^(١) ، وهناك تلميحات وإشارات أخرى تتناثر فى بعض قصائده التى توجه بها إلى محمد الخامس ، وهذا ما جعل (بلاشير) يرى أن ابن زمرك نال من ابن الخطيب بعد وفاته هاجياً ، وأغلب الظن أن هذه الإشارات ربما كان المقصود بها الوزير ابن الكاس الذى قامت بينه وبين ابن زمرك عداوة عنيفة . ^(٢)

وكان للتنافس التقليدى بين شعراء الأندلس والمغرب أثر فى احتدام المعارك الهجائية بينهم ، إذ كان أنصار كل فريق يدعون لأنفسهم البروز والسبق على الآخرين ، فمن أمثلة هذه الخصومات ما كان بين أبى عبد الله محمد بن معمر وبين ابن شرف ، وفيه يقول ابن معمر : ^(٣)

قولوا لشاعر برجة هل جاء من أرض العراق فحاز طبع البحترى
وافى بأشعار تصيح بكفة وتقول هل أعزى لمن لم يشعر
يا جعفرأرد القريض لأهله واترك مباراة لتلك الأبحر
لا تزعمن ما لم تكن أهلا له هذا الرضاب لغير فيك الأبحر

كما دارت معركة هجائية أخرى بين ابن الياسمين وبين عدد من الشعراء المغاربة كأبى العباس الجراوى وأبى الحجاج النمى الفاسى . واشتهر قول الجراوى فيه : ^(٤)

^(١) نفح الطيب ٥ / ١٧٧ وما بعدها .

^(٢) مع شعراء الأندلس والمنتبى ص ٣١٧ .

^(٣) المغرب ١ / ٤٣٣ .

^(٤) المنتبون اليانعة ص ٤٦ .

است الحبارى ورأس النسر بينهما لون الغراب وأنفاس من الجمل
خدها إليك بحكم الوزن أربعة كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

ورد عليه ابن الياصمين بقوله طاعناً في نسبه : ^(١)

يا أعرق الناس في نسل اليهود ومن تأبى شمائله التفصيل للجمل
خدها بحكم اجتماع الدم واحدة تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

وقد ركز الشعراء في معاركهم الهجائية على استغلال نقاط الضعف في منافسيهم لاسيما إذا كانت عيوباً خلقية : كما في قول أبي زيد ابن أبي العافية في هجاء ابن العطار القرطبي يعرض بطوله وحوله : ^(٢)

وكيف يفيق ذو صبر قصير حليف وساوس حول طوال

وقد راجعه ابن العطار بقصيدة عرض فيها بداء الجرب الذى كان قد أصيب به فقال : ^(٣)

كأنك لم تجرب قط خلقاً ولم تعرف بتجربة الليالى
أنسيت التجارب إذ تجارى يهن الجزيئات مع الشمال
فلا تغفل عن التجريب يوماً ولوا عطيت فيه جراب مال
وجرب جاربيتك واختبره وجرب برجله إن كان قالى
وجار بنيك لا تستحي منه ومن نجار بابك لا تبالى
وأجرح ببالك الجرباء تبصر نجوم الأفق تجرى بانتقال
وجرب أهل جربة تلف قوماً أبوا لبس الجوارب والنعال
تجاراً باعة تجروا بزيت تسموا بالتجار بغير مال
إذا سمعوا بتمر فى جريب جروا ببطاء ذى التمر البوالى
إذا جربت هذا الخلق أبدى لك التجريب أجربة خوالى
جرى بالنحنج دهرأ جر بؤساً عليك وجار بالنوب الثقال

^(١) نحنج الطيب ٤ / ص ١٧

^(٢) نفسه ٤ / ص ١٧، ١٨.

نفسه ٤ : ١٨.

وهى قصيدة جيدة ، لعل أحسن ما فيها أسلوب التعريض والتلميح الذى استغله الشاعر فى مهارة . فهو لم يشأ أن يصرح تصريحاً مباشراً بداء الحرب الذى أصاب مهجوه ، ولم يسف أو يقذع فى استغلال هذه الصفة : وإنما عرض بها تعريضاً مقبولاً بدا فى إكثاره من استخدام مادة (جرب) فى ألفاظه كقوله (تجرب - تجربة - التجارب - الجربياء إلخ) حتى لا يكاد يخلو بيت من وجود لفظة أو أكثر تتردد فيها هذه المادة .

ونرى (المنفتل) شاعر البيرة فى عصر الطوائف يستغل صفة ضعف البصر عند أحد الشعراء فيقول فى هجائه : ^(١)

إن كنت أخفش عيين فإني قلبك أعمى
فكيف تنثر نثراً أم كيف تنظم نظماً

وكما استغل الشعراء العيوب الخلقية فى أضرابهم ، استغلوا أيضاً ما فى ألقابهم من صفات تدعو للهزاء والسخرية ، وتفننوا فى تصيد أوجه الشبه بين هذه الألقاب وبين ما تدل عليه فى الأصل وعقدوا صلات طريفة بين الطرفين فمن ذلك قول بعضهم فى شاعر كان يلقب بالبعيرة : ^(٢)

قالوا البعيرة يهجوننا فقلت لهم ماذا دهيت به حتى من البقر
هذا وليس بثور بل هو ابنسته وأين منزلة الأنثى من من الذكر

وكان أعداء ابن الأبناء يلقبونه بـ " الفار " . ووقعت مهاجاة بينه وبين أبى الحسن على بن شلبون البلسى . فقال يعرض بلقبه : ^(٣)

لا تعجبوا لمضرة نالت جميع مع الناس صادرة عن الأبار
أو ليس فأراً خلقه وخليقة والفر مجبول على الإضرار

^(١) المغرب ٢ / ١٨٢ .

^(٢) نفح الطيب ٤ / ١٤٤ .

^(٣) نفس ٢ / ٥٩٣ .

ويتلاعب (المنقتل) تلاعباً ظريفاً بلقب ابن ميمون الفراء فيقول : ^(١)

لابن ميمون قـريـض زمهرير البرد فيه
فإذا ما قال شعراً نفقت سوق أبيه

وكانت المهن التي يمتنها بعض الشعراء مجالاً للمهاجاة بينهم ، كاتهم
ابن الصائغ لابن زهر الحفيد – وكان طبيباً – بقتل مرضاه كقوله : ^(٢)

يا ملك الموت وابن زهر جاوزتما الحد والنهاية
تـرفقا بالورى قليلاً فى واحد منكما الكفاية

واستغل ابن زهر فى ابن الصائغ اشتغاله بالفلسفة فرماه بالزندقة وتوعده
بما ينتظره من مصير مؤلم فقال : ^(٣)

لابد للزنديق أن يصلباً شاء الذى يعصونه أو أبى
قد وطأ الجـدع له نفسه وصوب الرمح إليه الشبا

الدحيّة ١ / ٢ ص ٧٦٠ .

راد المسافر ص ١١١ .

^(١) نفسه ص ١١٢ .

الباب الثالث

الجوانب الفنية

سيدور حديثنا عن الجوانب الفنية فى شعر الهجاء حول نقطتين أساسيتين هما : لغة الهجاء ، وصورة الفنية . وإن كان هناك ظاهرتان جديرتان بالتسجيل لأنهما تدخلان فى نطاق الجوانب الفنية . أما الملاحظة الأولى فهى :

الميل إلى المقطعات :

الغالب على شعر الهجاء الأندلسى هو ميل الشعراء إلى نظم أهاجيهم فى مقطعات قصيرة لا تتجاوز الأبيات القلائل ، وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح عند كثير من الشعراء على شاكلة السميسر ، ويشبهه فى هذه الناحية ابن صارة الشنترينى ، وقد تنبه ابن بسام إلى هذه الظاهرة فى شعره فقال إنه - ابن صارة - " أولع بالتصار فأرسلها أمثالا ، ورشق بها نبالا لاسيما قوارع كدرها على مرده عصره ، وسم بها أنوف أحسابهم ، وتركها مثلا فى أعقابهم " (١) . وأشار إلى ذلك مرة أخرى فقال : " ورأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء تربى على حصى الدهناء " (٢) .

وانتحاء المقطوعة أو اتخاذها قالباً للهجاء مذهب ارتضاه بعض الشعراء القدماء لأن ذلك أدعى إلى ذبوع الهجاء وحفظه وعلوقه بالأذهان ، والنأى به عن الإطالة والاستثقال ، وحين قيل للفردق : ما اختيارك للقصار ؟ قال لأنى رأيتها أثبت فى الصدور ، وفى المحافل أحول وقيل للحطيئة : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها فى الآذان أولج ، وفى أفواه الناس أعلق . (٣)

وهذا الضرب من الهجاء القصير الذى نجد مثيلاً له فى الأدب اليونانى واللاتينى فيما يسمى *Epigram* ، قد انتشر أيضاً بصورة واضحة فى القرن الثانى وما بعده " لأن طبيعة الحياة دعت إلى عدم الإطالة فى القصائد عموماً ،

(١) الدخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٣٤ .

(٢) نفسه ٢ / ٢ / ص ٨٣٥ .

(٣) الأغانى ٢ / ٣٣ .

فى حىن أن الهجاء كان يستلزم ذلك ضرورة لىبلغ الشاعر بأبىاته القليلة التى ىركز فىها معانى محددة ما ىرجوه من سرعة إىلام لمهجو ، وما ىتمناه من سرعة انتشار هذه الأبیات بین جماهیر الناس " (١)

فاتجاه أغلب شعراء الأندلس إلى نظم الهجاء فى مقطوعات قصيرة إنما كان امتداداً أو استمراراً لهذا الاتجاه الذى اختاره بعض الشعراء القدماء من أمثال الحطیئة وجریر والفردق .

التأثر بمذاهب المشاركة فى الهجاء :

وهذه الظاهرة ترتبط بسابقتها ارتباطاً وثيقاً ، فإذا كان نظم أكثر الأهاجى الأندلسية فى مقطعات امتداداً لتیار قديم ، فإن كثيراً من شعراء الأندلس تأثروا بمذاهب المشاركة فى الهجاء ، فركب بعضهم طريقة الحطیئة فى هجاء الذات ، وكلف أكثرهم بطريقة ابن الرومى فى التصوير الهزلى أو الكاریكاتیرى ، وتأثر آخرون بطريقة ابن حجاج وابن سكرة فى السخف والإحماض ، وترددت أصداء جریر والفردق فى الهجاء الأندلسى وإن كانت بصوت خافت ، ولم ىقتصر هذا التأثير على الشعر وحده ، بل إنه وجد طريقه إلى النثر أيضاً ، وظهر ذلك بشكل واضح فى الرسالة الهزلية التى انتحى فىها ابن زیدون طريقة الجاحظ فى السخرية .

^١ الشعر فى القرن الثانى ص ٣٠١ .

الفصل الأول

لغة الهجاء

- الميل إلى السهولة والبساطة
- النزوع إلى الشعبية
- التأثر بالثقافات الشائعة
- استلهام التراث
- الاحتفاء باللغة

لغة الهجاء :

تتباين لغة الشعر من موضوع إلى آخر ، فلغة الغزل بما فيها من رقة وعذوبة وسلاسة تختلف عن لغة المدح بما فيها من قوة وجزالة وفخامة ، وقس على ذلك موضوعات الشعر الأخرى ، فلكل موضوع لغة تناسبه وتوائمه .

ولما كان فن الهجاء يستمد خصائصه ووجوده من عاطفة الغضب ، فمن الطبيعي أن تنعكس هذه الخاصية على لغته ، فتأتى مشحونة بالحدة والتوتر والانفعال ، وتلك صفة عامة تتميز بها لغة الهجاء فى كل عصر ، غير أن هناك سمات فارقة تختلف باختلاف البيئات والعصور ، فإذا كانت لغة الهجاء الجاهلى تتصف بالعنف والقوة ، وتستمد مفرداتها وألفاظها وتراكيبها من طبيعة البيئة الجاهلية بما فيها من صراع ومعارك ، فإن لغة الهجاء الأندلسى قد اتخذت وجهة أخرى تبعاً للتطور الحضارى والزمنى ، فتأثرت بأساليب الحضارة ، وثقافة العصر ، وخضعت لمقتضيات البيئة المتحضرة التى اختلفت اختلافاً بيناً عن البيئة القديمة بما فيها من بداوة وخشونة ، ومن ثم نستطيع أن نجمل خصائص لغة الهجاء الأندلسى فيما يلى :

الميل إلى السهولة والبساطة :

حرص الشعراء الأندلسيون على أن ينظموا أهاجيهم فى لغة بسيطة سهلة لا توغر فيها ولا إغراب ، تمشياً مع الذوق الحضرى وما يستتبعه من رقة وسلاسة ولكى يضمّنوا لها الذبوع والانتشار على ألسنة الناس ، فاقتربت لغة الهجاء من لغة الحياة اليومية ، واقتربت من النثرية إلى حد بعيد ، وتضمنت العبارات والألفاظ التى تتردد على ألسنة العامة فى مقام التخاصم أو التشائم مثل عبارة (فلان أعمى القلب) التى يرددها المنفتل فى قوله يهجو الأخفش الشاعر : ^(١)

^(١) المغرب ٢ / ١٨٢ .

إن كنت أخفش عين فإن قلبك أعمى
فكسيف تنسثر نسراً أم كسيف تنظم نظمها

وهذه اللغة السهلة ذات التراكيب النثرية والتي تشبه لغة الكلام العادى
نلمسها أيضاً فى قول ابن الياسمين يهجو أبا الحجاج بن نمرى القاسى : ^(١)

إنما الشأن فقيه عالم ليس يعلم
لا تراه الدهر إلا بغريم الناس مفرم
وإذا صلى رياء كان فيها مثل أبكم
ذا جوابى وهو ظلم بك والى بادي أظلم

ويستخدم ابن الخطيب تعبيراً مألوفاً يجرى على ألسنة الدهماء ، ولا يزال
يتردد فى أيامنا هذه ، فيقال (فلان يأكل باليسار وباليمين) دلالة على ما
يتصف به من شره وطمع ونهم ، فيقول ابن الخطيب فى هجاء رجل يحتال
على الولاية : ^(٢)

حلفت لهم بأنك ذو يسار وذو ثقة وبر فى اليمين
ليستندوا إليك بحفظ مال فتأكل باليسار وباليمين

النزوع إلى الشعبية :

الهجاء فن واقعى يفرخ فى أوساط العامة ويذيع وينتشر على ألسنة
الدهماء ومن ثم فقد جذحت لغة الهجاء إلى الشعبية فى أساليبها وألفاظها
ومعانيها ، وتمثل ذلك فى إكثار الشعراء من استخدام ألفاظ السباب المتداولة
على ألسنة العامة ، وصاغوا أهاجيهم فى قوالب شعبية لتكون أدعى إلى الذبوع
والرواج ، فمن ذلك هذه التعبيرات التى يرددها ابن الخطيب فى هجائه للوزير
ابن أبى الفتح والتى لا تخرج عن الشتائم التى تتردد على ألسنة العامة : ^(٣)

^(١) النعمون البانعة ص ٥٠ .

^(٢) نفع العليب ٦ / ٤٦٩ .

نفسه ٥ / ١٤١ .

يا مفرط الجهل والغباوة لا يحسب إلا من جملة البقر
يا ناقص الدين والمروءة والعفة سئ ومجرى اللسان بالهدر
يا ولد السحق غير عكنتم حديثه يا ابن فاسد الدبر
يا بغل طاحونة يدور بها مجتهد السير مغمض البصر

ومن أمثلة هذه التعبيرات الشعبية قول حبلان الرندي : ^(١)

لا تفرحن بولاية سونغتها فالثور يعلف شهراً كي يذبحا
وقول أبي عامر ابن الأصيل : ^(٢)

أكرم به من قائد ماجد يصلح للحرث ورعى العجول
وتتمثل هذه النزعة إلى الشعبية أيضاً في استخدام الأمثال الشائعة ، كما
تتمثل في الإشارة إلى بعض العادات المستمدة من البيئة وواقع الحياة اليومية ،
على نحو ما يبدو في قول الغزال : ^(٣)

فديتك ماذا تحسب المرء صانعاً فقلت وماذا يصنع الدب بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ويترك للذبان ما كان من فضل
ونلمس ذلك قول أبي عامر بن الأصيل : ^(٤)

من كل حراث له لحية تدهن بالشحم وبالزيت
ويشير القلقاط إلى عادة الاستيقاظ على صياح الديكة فيقول : ^(٥)
يا ديك مالك لم تصرخ فتنبهنا لقد أسأت بنا ديك الدجاجات

(١) نفح الطيب ٤ / ١٣٣ .

(٢) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

(٣) قضاة قرطبة ص ٨٦ .

(٤) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

(٥) طبقات الزبيدي ص ٣٠٠ .

التأثر بالثقافات الشائعة :

وتأثرت لغة الهجاء بالثقافات الشائعة على اختلاف أنواعها ، فتسربت مصطلحات النحاة إلى لغة الهجاء ، كقول ابن الياسمين في هجاء الجرأوى :^(١)

يا أعرق الناس في نسل اليهود وما تأبى شمائله التفصيل للجمل
خدها بحكم اجتماع الدم واحدة تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

واستعان بعض الشعراء بصيغ التصغير للتحقير من شأن المهجو كقول إبراهيم بن خلف في هجاء أحد الكتاب :^(٢)

أعرضت عنه فدلانى كويتبه من الغرور بحبل جد مضوف
وأكثر الشعراء من الإشارات الدينية والتلويح ببعض الآيات القرآنية كقول ابن حجاج الإشبيلي :^(٣)

على معاذ قرون لوبعابنها فرعون ما قال: أوقدلى على الطين^(٤)
وقول أبى عامر بن الأصيل :^(٥)

يحسد فرعون على قوله " وهذه الأنهار من تحتى "
ويقتبس الرندى أيضاً من القرآن الكريم فيقول فى أحد الثقلاء :^(٦)

تزلزلت الأرض زلزالها فقلت لسكانها ما لها
فقالوا أنا أبو خالد فأخرجت الأرض أثقالها

(١) دمية القصر ١ / ١٥٥ .

(٢) زاد المسافر ص ١٠٣ .

(٣) نفسه .

(٤) إشارة إلى ما جاء فى سورة القصص آية ٣٨ (وقال فرعون ... فأوقدلى يا هامان على الطين) .

(٥) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

(٦) أبو البقاء الرندى ، شاعر الرثاء فى الأندلس تأليف الدكتور رضوان الداية ص ٧٨ .

ويعمد شاعر آخر إلى التلويح بما ورد في القرآن الكريم من آيات في التهديد والوعيد ، فيقول في شأن المتخاذلين عن الجهاد .^(١)

في سورة الحشر آيات مفصلة في شأنكم أنزلت لم تعدكم عددا
نعم وفي الكهف في العشرين خاتمة تقضى عليكم بأن لا تفلحوا أبدا

وكلف الشعراء بتضمين الأحاديث الدينية كقول ابن سهل^(٢) يشير إلى الحديث المشهور : " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار " .

أيام متطفلا في الشعر يبدو على وجناته طفل المساء
إذا الضليل يوم الحشر وافي فليست بداخل تحت اللواء

ويضمن ابن ياسمين حديثاً آخر فيقول في هجائه لشاطبة :^(٣)

شاطبة قرية ضنينة ليست لمن أمها معينة
تهتضم الطيب اهتضاماً وتأنف الدهر أن تعينه
والخبث المحض تصطفيه ضداً لما جاء في المدينة^(٤)

استلهام التراث :

التفت شعراء الهجاء الأندلسيين إلى تراث القدماء ينهلون منه ، وتمثل ذلك في تضمينهم أو استعارتهم بعض المعاني الذائعة الصيت فالأبيض يلوح إلى معنى جرير المشهور في هجاء الأخطل فيقول في هجائه لشخص يدعى ابن حمدين :^(٥)

يريد ابن حمدين أن يعتفى وجدواه أنأى من الكوكب
إذا ذكر الجود حك استه لبشت دعواه في ثغلب^(٦)

البيان المغرب ص ١١٠ .

ديوانه ص ٦٥

^(٢) زاد المسافر ص ١٢٧ .

إشارة إلى الحديث المائل (المدينة بفي حثها كما يفي الكير خبثه) .

سند ١٢٨ / ٢

حك اسد ويمثل الأمثالا

والمعلى إذا نحيح للقرى

خير على قول جرير .

ويضمن الأعمى المخزومي بيتاً شهيراً فيقول : ^(١)

حجج بها سوق الفسوق تقوم	لابن القصير مع ابته وصغيره
فبدأ يعاتبه لهذا ويلوم	ألقاه يوماً تحت أسود حالك
بيت على مر الزمان قديم	فأجابته متعجباً وجوابه
عار عليك إذا فعلت عظيم	لأنه عن خلق وتأتى مثله

ويرد ابن الأبار أحد معاني النابغة المشهورة فيقول : ^(٢)

غيرى يجاريك الهجاء فجار	قل لابن شلبون مقال تنزه
فحملت برة واحتملت فجار	إننا اقتسمنا خطيتنا بيننا

ويتمثل استلهام التراث أيضاً فى تضمين الأمثال العربية القديمة كقول أبى

حريز محفوظ بن مرعى الشريف فى هجاء مرج الكحل : ^(٣)

أشام من ناقة البسوس	مالى أرى شعر مرج كحل
---------------------	----------------------

الاحتفاء باللفظة :

واحتفى بعض الشعراء بلغتهم وتأنقوا فيها مظهرين بذلك مهارتهم

وتفوقهم اللغوى ، واتخذ هذا الاحتفاء صوراً عديدة كان يعمد بعض الشعراء إلى

طريقة التلاعب اللفظى نحو قول ابن خفاجة الذى مر بنا من قبل : ^(٤)

من نيل ممتدح ورمح جواد	ما إن درى ذاك الدميم وقد شكا
بالسين أم فى صرة بالصاد	هل يشتكى وجعاً به فى سره

وكلف بعض الشعراء بتصحييف الألفاظ لتوليد معان جديدة كقول

الحضرمى فى هجاء شريش : ^(٥)

^(١) زاد المسافر ص ١١٨ .

^(٢) نفح العليب ٢ / ٥٩٣ .

^(٣) زاد المسافر ص ١٢٤ .

^(٤) ديونه ص ٢٣٥ .

^(٥) المغرب ١ / ٣٠٦ .

شـرـيـش مـا أنـت إـلا تـصـحـيف شـرـيـسـين

ويتلاعب ابن الخطيب بكلمة (فتح) فيقول : ^(١)

يا ابن أبى الفتح نسبت عكست فلا بفتح أنت ولا ظفر

وبرع بعض الشعراء فى انتقاء الألفاظ المعبرة عن المعنى مثل كلمة (فسكل) التى تعنى الفرس الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل والتى استخدمها إبراهيم بن خلف فقال : ^(٢)

فجاء فسكل من لاقيت متنداً أخا عنان عن الأحرار مصروف

وقد يعمد شاعر إلى حرف معين يديره فى أغلب ألفاظ البيت أو القصيدة مثل تكرار (القاف) فى قول الأبيض : ^(٣)

وصده عن قراع الدارعين بها قـرـع القـواقـير أفـواه الأـباريق

وقد وظف ابن العطار القرطبي اللغة لموضوعه توظيفاً جيداً فى القصيدة التى عرضناها من قبل ويقول فى مطلعها : ^(٤)

أجل يا نافث السحر الحلال أنانى منك نظم كالآلى

ويعرض فيها بما أصاب شاعر آخر من داء الجرب ، ويستغل مادة (جرب) المعجمية على اختلاف معانيها ودلالاتها ، ويصوغ منها ألفاظاً ومعانى كثيرة تتردد فى كل بيت بل قد تتردد فى البيت الواحد غير مرة ، ويصبح حرف الجيم هو مفتاح القصيدة والمهيمن على كل أبياتها .

واعتمد بعض الشعراء على عنصر (التورية) فى هجائهم ، كقول ابن رضوان المالقي يورى بكلمة (مالك) :

^(١) نفح الطيب ٥ / ١٤٠ .

^(٢) دمية القصر ١ / ١٥٥ .

^(٣) زاد المسافر ص ١١٢ .

^(٤) نفح العيب ٤ / ١٧ .

لا تعرج على الجنان بسكنى ولتكن ساكناً بمخزن مالك
ويورى بكلمة (العود) التى من معانيها (البعير) فى هجاء رجل يلقب
بهذا اللقب فيقول :

لئن عدت نادونى بعيراً كمثلها فقلت له لا تخش فالعود أحمد
ولا بن خفاجة بعض مقطعات فى الهجاء نلمح فيها أثر الصنعة اللفظية ،
كاستخدام المحسنات ، والتزام مالا يلزم مثل قوله .^(١)

أنى تطاوتلنى ودونى بسطنا	جد يساعدنى وجد يسعد
هاقد حللت وللتقلقل غاية	فى حيث يشرف بى ويشرف مقعد
طلت السماء فهل سمعت بحلية	ترقى بها نحو السماء وتصعد
إلزم ثراك وغض طرفك ذلة	فمكانتى أنأى عليك وأبعد
ولئن طربت وقد عرّتنى وعكة	والليث يورد والمهند يرعد
فقد استطلت على الكلام بمقول	بك من ذلاقتك المقيم المقعد

وتبدو هذه الصنعة أيضاً فى قوله فى هجاء أسود حسود :^(٢)

يا جامعاً بمساويه وطلعت	بين السوادين من ظلم ومن ظلم
أمثله حسداً فى مثله جسداً	لقد تألف بين النار والفحم

ومن مظاهر هذه الصنعة كلف بعض الشعراء بتجنيس القوافى لتوليد معان
جديدة وإثراء شعرهم بالموسيقى كقول أحدهم :^(٣)

هم البرابر لا ترجو نوالهم	وسل من الله تعجيل النوى لهم
---------------------------	-----------------------------

^(١) ديوانه ص ١٤٥ .

^(٢) ص ٧٧ .

^(٣) أدب الفقهاء ص ١٧٣ .

الفصل الثانى

صور الهجاء الأندلسى

- القائر بالبيئة
- الثقافات الجديدة
- التراث الدينى
- الموروث القديم

صور الهجاء الأندلسي :

شاعر الهجاء فنان ذو طبيعة خاصة ، فهو يشبه الممثل الذى يقف على خشبة المسرح ليضحك الناس ، والإضحاك - ولا شك - مهمة شاقة ، وموهبة لا تتأتى لكل إنسان ، وكذلك الهجاء ، فهو فن عسير ، ليس بمقدور أى شاعر أن يطرقه إلا إذا رزق قدرة خاصة ، وعيناً لاقطة ، وخيالاً نافذاً ، فالهجاء ليس وصفاً ينقل العالم الخارجى فى مهارة وإتقان ، أو مصوراً يحمل فى يده آلة تصوير تلتقط الصور بدقة وبلا إضافات ، ولكن الهجاء فنان ذو خيال خلاق مبدع تذوب المشاهد أمامه وتتلاشى وتتحطم لكى تخلق من جديد ، فهو لا ينقل الصورة كما هى ولكنه يضوعها لموهبته ، ويحتال عليها بوسائل كثيرة ، فيعمد إلى تكبيرها أو تحويرها ، أو تشخيصها ، أو قلبها ونقضها ، أو إضافة زوايا جديدة إليها ، فتصير أقرب إلى الصورة الهزلية الساخرة التى تبعث على الضحك ، ولكنها فى الوقت نفسه تثير الاشمئزاز والغفور ، ولا مجال فى هذه الصور لإعمال الفكر أو قدح الذهن أو الإسراف فى الخيال ، لأن الهجاء " يعتمد فى تأثيره على الوضوح الخلاب الذى يضحك القارئ أول ما يقرأه ، فهو كالنكتة ، إذا لم تفهم إلا بعد تفكير فترت وبردت وذهب بريقها .. ولذلك كان أصحاب الصنعة من الشعراء أقل الناس توفيقاً وإصابة فى هذا الفن " .^(١)

وإذا كانت الصورة من العناصر الهامة التى تقوم عليها القصيدة ، فإنها تعتبر أهم العناصر التى تقوم عليها قصيدة الهجاء ، ويمكن أن نجمل أهم خصائص صور الهجاء الأندلسي فى النقاط التالية :

التأثر بالبيئة :

استوحى الهجاءون كثيراً من صورهم من البيئة التى عاشوا فيها على اختلاف مظاهرها وتنوع مشاهداتها ، فأثر البيئة المسيحية يتضح فى هذه الصورة

^(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ٣٤ .

التي يرسمها أبو إسحاق الإلبيري لأحد الثرثارين ، وفيها يشبه لسانه بجرس
أو بناقوس يرن في إحدى البيع .^(١)

ولقد عجبت لمؤمن في شذقه جرس كناقوس ببيعة كافر
ويبدو أثر البيئة الحربية واضحاً في قول الغزال يهجو امرأة فيشبه
صلعتها ببوضة المحارب التي تلمع بين صلال السيوف :^(٢)

كانها بيضة الشاري إذا برقت بالمازق الضنك بين المشرفيات
ويبدو هذا الأثر في قول ابن صارة في هجاء شخص قبيح الغم والثنايا
فيشبه أسنانه بحد السيف :^(٣)

يبدو لطرفك منها حين تبصرها سن كمثّل مسن الصيقل الفرد
ويستوحى المنفعل صورة البيئة الأندلسية بما فيها من صقيع وزمهرير
فيقول في هجائه لابن ميمون الفراء :^(٤)

لابن ميمون قريض زمهرير البرد فيه
فإذا بيست بيتاً نفقت سوق أبيه

واستوحى الشعراء صورهم من واقع حياتهم ومما تحفل به معيشتهم من
مظاهر وعادات وتقاليد ، فابن هذيل يشبه تهدل أنف ابن قزمان بالقدوم
فيقول :^(٥)

يقرب وجهاً منك في خلق قربة كأن انهдал الأنف منه قدوم

^(١) ديوان الإلبيري ص ٨٠ .

^(٢) يحيى بن الحكم الغزال ، تأليف صالح البنداق ص ١٨٥ .

^(٣) الدخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٤٥ .

^(٤) نفسه ١ / ٢ / ٧٦٠ .

التشبيهات ص ٢٤٩ .

ويشبه ابن وهيب أنف أحد الأشخاص يعود المستراح كما يشبه وجهه في
قبحه وشؤمه بإقبال الرزايا : ^(١)

ووجهه مثل إقبال الرزايا وأنف مثل عود المستراح

ويستمد جعفر بن إبراهيم اللورقي إحدى صورته من عادة انتشرت بين
الناس وهي جدُّ فتيل الذبال ليصبح أكثر توهجاً وإضاءة ، فيقول في أحد
أصدقائه : ^(٢)

هو السم الزعاف لشاربيه وإن أبدى لك الأرى المشورا
ويوسعني أذى فازيد حلماً كما جد الذبال فزاد نورا

ويسترفد ابن خفاجة إحدى صورته من أحد الأمراض الشائعة في عصره
وهو مرض (الفالج) فيقول في ذم خط واستبراد شعر : ^(٣)

لحي الله ألباناً بعثت ذميمة فلو كن أعضاء لكن مخارجا
معوجة أسطارها وحروفاها كأن بها من برد لفظك فالجا

ويلتفت الغزال في هجائه لأحد البخلاء إلى عادة نزع الضرس التي
يمارسها الحجام فيقول : ^(٤)

فلم يعطني من ماله غير درهم تكلفه بعد انقطاع رجائي
كما اقتلع الحجام ضرساً صحيحة إذا استخرجت من شدة بكاء

ويستحضر محمد بن شخيص صورة النفخ في (البوق) أو الضغط في
أنبوب الكير فيقول في هجائه لقوم جبلوا على البخل : ^(٥)

كلما جنتهم لأنشد شعري طمعاً من نوالهم باليسير

^(١) التشبيهات ص ٢٤٩ .

^(٢) خريدة القصر ٢ / ١٤٥ .

^(٣) ديوانه ص ٣٥٣ .

^(٤) التشبيهات ص ٤٠ .

^(٥) التشبيهات ص ٢٤٢ .

فكأنى وضعت فلكة بوق فى فمى أو ضغطت أنبوب كير
ويهجو أحمد بن نعيم امرأة فيشبه انتفاخ وجهها بإحدى آلات النفخ
الموسيقية فيقول : ^(١)

كأن كلنا صفحتى وجهها ركبنا من كوبتى نافخ
ويلتفت أبو عبد الله بن القزاز إلى صورة غطاء الرأس فيقول فى هجائه
لأحد الأشخاص : ^(٢)

تبدلت شرطياً بصاحب شرطة كريم نجار النفس ممتنع الجار
فأصبحت كالطرطور كان لسيد فأخلق حتى صار فى رأس عيار
وبستوحى شاعر آخر عادة الصيد فى إحدى صورته فيقول فى هجاء
قينة : ^(٣)

وصيدها الأعزاد فى خلوة ينسبك من صيد السنانير
ويشبه عبيد الله المفجع أحد أصحابه الثقلاء بنهار الصيف فى طوله وما
يحدثه فى النفوس من ضيق وخمول فيقول : ^(٤)

لنا صديق مليح الوجه مقتبل وليس فى وده نفع ولا بركة
شبهته بنهار الصيف يوسعنا طولا ويمنع عنا النوم والحركة
وحين يسخر العتبي من بغلة الرصافى التى تسير ببطء ومشقة يستحضر
صورة العروس حين يحملها أحد أقربائها إلى زوجها ويسير بها سيراً هادئاً
متريثاً : ^(٥)

يمشى بها الجهد رويداً كما يهذى عروس الحى مهديها

^(١) التشبيهات ص ٢٤٢ . والكوبة : الطبل الصغير . أو آلة موسيقية تنفخ بالفم .

^(٢) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٠٤ .

^(٣) التشبيهات ص ٢٤٦ .

^(٤) جدوة المقتبس ص ٣٠٤ .

التشبيهات ص ٢٦٢ .

ويهجو عبد الله بن فرح طفيليا فيشبهه اهتداه إلى موضع الطعام بحاسة
الشم القوية عنده ، بشخص يسير ليلاً مهتدياً بنجوم السماء : ^(١)

يقتاده شم القطار بأنفه مثل اقتياد النجم للحيران
ويسترفد ابن فرح صورة الخيل الصائمة تأهباً ليوم الرهان في هجائه
لطايفة من الطفيليين يلقبون بالإماميين : ^(٢)

فترى الإماميين حول خيامه كالخيل صائمة ليوم رهان
وحين يهجو أحد الشعراء أميراً ظالماً يتظاهر بالتقوى ويكثر من التسبيح
يشبهه بالجزار الذي يردد اسم الله وهو يتأهب للذبح : ^(٣)

قد يلينا بأمير ظلم الناس وسبج
فهو كالجزار فيهم يدكر الله ويدبج

وعمد الهجاءون إلى استيحاء صورهم من أجواء الحيوانات فقارنوا بينها
وبين مهجوبيهم في الشكل والهيئة والطبع للتقليل من شأنهم والإزراء بهم ،
ولإظهارهم في شكل هزل يذعو إلى الضحك ، وبرعوا في هذا الجانب براعة
كبيرة ، فالمخزومي الأعمى يشبه عيني شخص أحول بعنزتين تنتطحان : ^(٤)

وتزور إحدى مقلتيه لأختها كأنهما عنزان تنتطحان

وهيئة أحد الثقلاء تذكر أبا الفرج الرشاش بصورة الفيل : ^(٥)

ما إن جلست إلى جليس مرة إلا كأن عليه منك الفيل

^(١) التشبيهات ص ٢٤٥ .

^(٢) نفسه ص ٢٤٥ .

^(٣) نفع الطيب ٢٦٣ / ٦ .

^(٤) خريدة القصر ٢٥٦ / ٢ .

^(٥) التشبيهات ص ٢٤٧ .

وتتعدد صورة (الفحل) و (التيس) في قصائد الهجاء على نحو ما يبدو
في قول ابن الجدي هجاء ملوك الطوائف .^(١١)

تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه له خوار ولكن حشوه خور
ويقول أبو الفرج الرشاش في هجاء أحد الأشخاص :^(١٢)

إنك لا تعرف الجميل ولا تفرق بين القبيح والحسن
إن الذي يرتجى نذاك لكالحا لب تيساً من شهوة اللبن

ويشبه ابن الخطيب ابن أبي الفتح ببغل يدير الطاحونة وهو مغمض
العينين :^(١٣)

يا بغل طاحونة يدور بها مجتهد السير مغمض البصر
ويهجو إسماعيل بن بدر مغنية قبيحة الصوت ، فيتخيل أن كلاباً
تهارشت في حلقومها ، ويشبه صوتها بنقيق الضفادع :^(١٤)

فوالله ما أدري كلاباً تهارشت بحلقومها أم نقنقت بي ضفادع

ويستحضر الرشاش صورة القرد بما توحى به من دمامة وما ترمز إليه من
إحياءات جنسية ، فيقول في هجائه لأحد الأشخاص :^(١٥)

ووجهه يحكى لنا القرد في صورته قبحاً وفي نعته

^(١١) أعمال الأعلام ص ٢٤١ .

^(١٢) التشبيهات ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

^(١٣) نفع الطيب ١٤١ / ٥ .

^(١٤) التشبيهات ص ٢٤٥ .

^(١٥) نفع ص ٢٥١ .

التأثر بالثقافات الجديدة :

تسللت أنماط الثقافات والعلوم الجديدة إلى صور الهجاء ، كقول أحدهم
في هجاء مغنية : ^(١)

كأنها والعود فى حجرها حاسبة تنبى بمجدور
ويسخر ابن عبد ربه من مائدة أحد البخلاء فيشبهها بالنقطة التى يلتف
حولها المدعوون فى دائرة : ^(٢)

ومائدة جسمها لطفه يدل على صفقة خاسرة
فتلك لنا قد غدت نقطة ونحن عليها نرى دائرة

التراث الدينى :

واتكأ الهجاءون على التراث الدينى ، فاسترفدوا منه كثيراً من صورهم ،
فمن ذلك قول أحد الشعراء فى هجاء امرأة قبيحة الوجه : ^(٣)

تبدو بوجهه ما رآه امرؤ إلا تمنى النفخ فى الصور
ويستحضر ابن الخطيب صورة أصحاب الرقيم فى هجائه لأهل عصره
فيقول : ^(٤)

أدور فلا أرى إلا نسياما كأنى بسين أصحاب الرقيم
ويشبه المنفقل صاحب لبلة فى عنقه وقسوته بخدام جهنم : ^(٥)
إن ابن يحيى ضحكة فتوسم واذكر به خدام نار جهنم

^(١) التشبيهات ص ٢٤٦ .

^(٢) نفسه .

^(٣) التشبيهات ص ٢٤٦ .

^(٤) نفسه ص ٦١٨ .

^(٥) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٧٦١ .

وأكثر الشعراء من اقتباس الصور المستمدة من القصص الديني كقول ابن خفاجة في غلام وجهه في حاجة فأبطأ فيها : ^(١)

أبطأ في سعيه فحاكى في حالتيه غراب نوح

ويسخر سعيد بن العاص من شخص أدخله ثوبه فيقول ^(٢)

وثوبه في سالف الزمان خلعة فرعون على هامان

ويقتبس ابن صارة إحدى صورته من قصة سليمان فيقول في هجاء شخص قبيح الفم : ^(٣)

كان جن سليمان بنوا فمه بنيان تدمر بالصفاح العمد

ويسترفد السمسير من قصة إبراهيم في هجائه لأحد البخلاء : ^(٤)

جاد عن بخل على تلك في العالم ندرة
فهى كالنار اعترتها عصر إبراهيم قره

ويشير إلى تفجر المياه من الصخر في قصة موسى فيقول : ^(٥)

جاد نزرأ فقبلنا درهم الساقط بـدره
عجب الناس وقالوا كيف نيلت منه ذرة
هل رايتم بعد موسى أحداً فجسر صخره

ويسترفد إبراهيم بن أغلب الخولاني صورته مما ورد في سورة (المسد) فيقول : ^(٦)

^(١) ديوانه ص ٣٧٤ .

^(٢) التشبيهات ص ٢٥٢ .

^(٣) الذخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٤٥ .

^(٤) خريدة القصر ٢ / ١٦٨ .

^(٥) نفسه ٢ / ١٦٨ - ١٦٩ .

خريدة القصر ٢ / ١٦٨ .

سائل بقفصة هل كان الشقى لها بعلا فكانت له حمالة الحطب
تبست بدا كافر بالله ألهبها فكان كالكاfer الأشقى أبى لهب
لما زنت وهى تحت الأرض محصنة رجتموها اتباع الشرع بالحصب

الموروث القديم :

واستوحى بعض الهجائيين صورهم من التراث القديم . كصورة الطلل
والرسوم التى استحضرها سليمان بن عبد الله البردى فى قوله

كان مرجيه المؤمل واقف على طلل من ساكنى الحى باند
يسائل منه صامتاً غير ناطق كمستخبر جهلاً رسوم المعاهد

وتتردد صورة الرسم القديم أيضاً عند ابن الخطيب .^(١)

عفت أعلام آدابى وعلمى بهم فبقيت كالرسم القديم
وأكثر بعض الشعراء من : ديد الصور والتشبيهات القديمة كقول ابن
حربون :^(٢)

فمزقتم شملهم فى البلاد كأنهم جمل أجرب
ويشبه الغزال كاهل امرأة بسلام العيس الذى أصابه الهزال من كثرة السفر
والترحال -- وهى صورة قديمة - فيقول :^(٣)

وكاهل كسلام العيس جرده طول السفار والحاح القنودات
ويستعير أحمد بن نعيم إحدى صورته من البيئة الصحراوية القديمة فيقول
فى هجاء امرأة :^(٤)

لو كنت نبتاً كنت من حرمل أو أكلت كنت من الكامخ^(٥)

(١) التشبيهات ص ٦١٨ .

(٢) المن بالإمامة ص ٣٦١ .

(٣) يحيى بن الحكم الغزال للسنداق ص ١٨٥ .

(٤) التشبيهات ص ٢٤٠ .

(٥) الحرمل نبت كالسمسم يمتنع على الأكلة . وفى ذلك يقول طرفة : (هم حرمل أعيا على كل الأكل)
والكامخ : نوع من الأدام يتعينه الأعتراب .

الصور المقذعة والمنفرة :

مال كثير من الهجائيين فى شعرهم إلى الإقذاع ، ولم يتورعوا عن سياغة الصور التى تخذش الحياء ، وتثير الاشمئزاز والنفور ، وسنجتزئ، فى ذلك ببعض الأمثلة للدلالة على شيوع هذه الظاهرة ، فمن صورهم المقذعة قول ابن صارة :^(١)

له فم كحرفى شكل صورته " ترمى غوار به العبرين بالزبد "
ويقول الأعمى المخزومى فى رجل يطير لعابه إذا تكلم :^(٢)

لا شيء أشبه من خسيس طباعه إن حققت بطباع أسد الماء
يمتص أفواه بفقحة ويبثها فى أوجه الجلساء

ومن هذه الصور قول ابن شهيد فى أحد الكتاب :^(٣)

وذو عرق ليس ماء الحياء ولكنه رشح فضل الجنابه
جرى الماء فى سفله جرى لين فأحدث فى العلوم منه صلابه

ولم تسلم صور شاعر كابن خفاجة من صفة الإقذاع ، فحين كتب إليه ابن دراج النحوى شعراً يعرض فيه بسبه وقع ابن خفاجة على ظهر رقعتة بقوله :^(٤)

ومعرض لى بالهجاء وهجره جاوبته عن شعره فى ظهره
فلئن تكن بالأمس قد لطنابه فاليوم أشعارى تلوط بشعره

ومن الصور التى تثير التقرز والنفور قول السميسر فى هجاء المرية :^(٥)

كانها طست نبر ويبصق الدم فيه

(١) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

(٢) زاد المسافر ص ١١٧ .

(٣) ديوان ابن شهيد ص ٩٥ .

(٤) ديوانه ص ٣٥٢ .

(٥) نوح الغيب ٣ / ٣٩٠ .

ونقع على مثل هذه الصور المقرزة في قول ابن صارة :^(١)

فإذا شحافاه رأيت خفافاً يأوين من فيه إلى المرحاض

ونلمسها أيضاً في هجاء المنقتل للأفوه الجزار :^(٢)

تبدو على أضراسه صفرة كأنه من فمه قد خرى
حديثه أوحش من وجهه وشعره يشبه ذاك الطرى

الصور المعنوية :

واستمد بعض الشعراء صورهم من الأوصاف المعنوية ، ولهم في ذلك صور

جيدة كقول عبادة في رجل قصير القامة :^(٣)

وصاحب لي كأن قامته أقصر من يوم وصل معشوقى

وقول إدريس بن اليمان العبدري في لحية طويلة عريضة :^(٤)

لو أنهادون السماء سحابة لم تخرقها دعوة المظلوم

ونقع في هجاء الأندلسيين على كثير من الصور التي تتسم بالغرابة

والطرافة كقول ابن بليطة في ساق أحذب أسود اللون :^(٥)

وإذا سعى بالكأس تحسبه جعلاً يدحرج فص باقوته
وكأنه والكأس فى يده نجم رمى فى الجو غريته

وعلى هذا النحو تراوحت صور الهجاء الأندلسي بين الطرافة والإغراب

والميل إلى الإقذاع والتأثر بالبيئة والاتكاء على التراث الدينى والموروث القديم .

الدخيرة ٢ / ٢ / ٨٥٥ .

(١) نغم ١ / ٢ / ٧٦٠ .

(٢) التميميات ص ٢٤٨ .

(٣) المغرب ١ / ٤٠٠ .

الدخيرة ١ / ٣ / ٧٩٦ .

الخاتمة

الخاتمة

يمكن أن نجمل أهم نتائج هذه الدراسة فى النقاط التالية :

أولاً: أن سوق الهجاء الأندلسى كانت راجعة بخلاف ما توهم كثير من الباحثين فتنوعت موضوعاته وتعددت ، ولولا إعراض بعض نقاد الأندلس عن إثبات الهجاء فى مؤلفاتهم لظفرنا بقدر كبير من شعر الهجاء .

ثانياً: كان الهجاء السياسى أكثر اتجاهات الهجاء الأندلسى رواجاً وازدهاراً لارتباطه بدوافع سياسية فرضتها ظروف الأندلس وقد تنوعت موضوعات الهجاء السياسى فكان هناك هجاء الملوك والحكام والهجاء القبلى وهجاء اليهود وهجاء الفرنجة وهجاء البربر .

ثالثاً: اتسع مفهوم الهجاء الأندلسى وتطور تبعاً للتطور الحضارى ، فلم يعد الهجاء محدوداً بنزعة قبلية أو هجاء شخصى بل اتسع نطاقه فتوزع بين هجاء سياسى واجتماعى وملاحاة بين الشعراء وشمل هجاء المدن والمظاهر الحضارية والمغنين والعلماء ومال إلى الدعابة والتظرف تأثراً بروح الحضارة.

رابعاً: لم يعتمد الشعراء الأندلسيون فى هجائهم إلى السب المباشر بل اتجه كثير منهم إلى رسم الصور الكاريكاتورية الساخرة التى تقوم على التجسيم والتضخم والبراعة فى لمح الدقائق والعيوب التى تثير السخرية والإضحاك.

خامساً: لم يقتصر الهجاء الأندلسى على القصيدة الشعرية وحدها بل تجاوزها إلى النثر وإلى أشكال أدبية أخرى كالموشح والزجل .

سادساً: وجد شعراء أندلسيون قامت شهرتهم على الهجاء كالسيسير والأبيض وابن حزمون والمخزومى الأعمى وغيرهم .

سابعاً: لم ينفرد الشعراء وحدهم بفن الهجاء بل شاركهم فيه شواعر أندلسيات مثل نزهون ومنهجة وولادة وغيرهن .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع :

- ١- ابن الأبار - حياته وكتبه - تأليف عبد العزيز عبد المجيد ط.
تطوان ١٩٥٤ .
- ٢- الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق
محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ .
- ٣- اختصار القدر المعلى فى التاريخ المحلى ، ابن سعيد ، تحقيق
الإبيارى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٤- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكى ، دار
المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٥- أدب الفقهاء ، عبد الله كنون ، ط . دار الكتاب اللبنانى .
- ٦- أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، المقرئ ، تحقيق السقا
والإبيارى وشلبى ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٧- أساس البلاغة ، الزمخشري ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- ٨- أعمال الأعلام فىمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، لسان
الدين ابن الخطيب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- ٩- الأغانى (ج٢) ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- ١٠- ابن ريدون ، د. شوقى ضيف (سلسلة نوابغ الفكر العربى) ط. دار
المعارف بمصر . الطبعة الثانية .
- ١١- أبو البقاء الرندى شاعر رثاء الأندلس . د. محمد رضوان الداية ، ط.
مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٦

- ١٢- بدائع البدائ ، ابن ظافر ، ط. بولاق ، ١٢٧٨ هـ .
- ١٣- بغية الملتبس ، الضبى ، ط. مجريط ، ١٨٨٤
- ١٤- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الزاهن والهاجس ، ابن عبد البر القرطبى ، القسم الثانى ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، ط. دار الكاتب العربى بالقاهرة .
- ١٥- البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب . ابن عذارى :
- أ : القسم الثالث ، تحقيق هويس مرانده ، ط. تطوان ١٩٦٠ .
- ب : الجزء الثالث ، تحقيق ليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٣٠ .
- ١٦- تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ١٧- تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين - د. إحسان عباس ، بيروت .
- ١٨- تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ط. مجريط ، ١٨٦٨ .
- ١٩- تاريخ مسلمى أسبانيا (الحروب الأهلية) ، دوزى ، ترجمة د. حسن حبشى ، ط. دار المعارف ١٩٦٣ .
- ٢٠- تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ، د. محمد زغلول سلام ، ط. دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٢
- ٢١- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ابن الكتانى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الشروق . بيروت ١٩٨١

- ٢٢- التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، د. شوقى يف ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .
- ٢٣- التكملة لكتاب الصلة ، ابن الأبار . مجريط ، ١٨٨٦ .
- ٢٤- ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ٢٥- جذوة المقتبس ، الحميدى ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ٢٦- حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٢٧- الحلة السيرة ، ابن الأبار ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٢٨- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة .
- ٢٩- خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الأصفهاني (قسم شعراء المغرب) ، تحقيق محمد المرزوقى وآخرين ، ط. تونس ١٩٧١ - ١٩٧٣ .
- ٣٠- دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، د. الطاهر مكى . ط. دار المعارف ، القاهرة .
- ٣١- دراسات فى الأدب العربى ، العصر العباسى - د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

- ٣٢- درة الحجال فى أسماء الرجال ، ابن القاضى ، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور ، نشر دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٣٣- دمية القصر وعصرة أهل العصر ، الباخري ، تحقيق عبد الفتاح محمد: الحلو ، ط. دار الفكر العربى ، القاهرة .
- ٣٤- ديوان أبى إسحاق الإلبيرى ، تحقيق د. محمد رضوان الداية ، ط. بيروت ، ١٩٧٦ .
- ٣٥- ديوان ابن حمد يس ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. بيروت ١٩٦٠ .
- ٣٦- ديوان ابن خفاجة ، تحقيق د. السيد مصطفى غازى ، الإسكندرية ، ١٩٦٠ .
- ٣٧- ديوان ابن زيدون ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط. البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٣٨- ديوان ابن سهل ، ط. بيروت ١٩٦٧ .
- ٣٩- ديوان ابن شهيد ، تحقيق يعقوب زكى ، ط. دار الكاتب العربى ، القاهرة .
- ٤٠- ديوان المعانى ، لأبى هلال العسكري ، ط. مصر ١٣٥٢ هـ .
- ٤١- ديوان ابن هانى ، تحقيق كرم البستاني ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٢ .
- ٤٢- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنترينى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

- ٤٣- الذيل والتكملة لكتايب الوصول والصلة ، عبد الملك المراكشى ،
تحقيق د. إحسان عباس ، ط. بيروت ٦٤ / ١٩٦٥
- ٤٤- الرد على ابن النفريلة اليهودى ورسائل أخرى ، ابن حزم ، تحقيق
د. إحسان عباس ، القاهرة ١٩٦٠
- ٤٥- رسائل ابن حزم ، تحقيق د. إحسان عباس ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٤٦- روض القرطاس ، ابن أبى زرع ، فاس ، ١٣٠٣ هـ .
- ٤٧- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، صفوان بن إدريس ، تحقيق
عبد القادر محداد ، بيروت ١٩٧٠ .
- ٤٨- الشعر الأندلسى (بحث فى تطوره وخصائصه) ، غرسية غومس ،
ترجمة د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ٤٩- الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ، د. فوزى عيسى ، الهيئة
المصرية للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .
- ٥٠- الشعر العربى فى صقلية ، د. فوزى عيسى ، الهيئة المصرية
للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .
- ٥١- الشعر فى ظل بنى عباد ، محمد مجيد السعيد ، مطبعة النعمان ،
العراق ، ١٩٧٢ .
- ٥٢- الشعر فى القرن الثانى الهجرى ، د. محمد مصطفى هدار ، دار
المعارف .
- ٥٣- صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الرابع
عشر .

- ٥٤- طبقات الأمم ، القاضى صاعد ، ط. مصر .
- ٥٥- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحى ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة .
- ٥٦- طبقات النحويين واللغويين ، الزبيدى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٥٧- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ٥٢ - ١٩٦٥ .
- ٥٨- عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، النواجى ، مصورة عن مخطوطة الاسكوريال .
- ٥٩- النصوص اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، ابن سعيد ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ط. دار المعارف ، الطبعة الثالثة .
- ٦٠- فن الهجاء ، إيليا حاوى ، بيروت .
- ٦١- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د. شوقى ضيف ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٦٢- فهرسة ابن خير ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٣ .
- ٦٣- فى الأدب الأندلسى ، د. جودت الركابى ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٦٤- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، الخشنى ، ط. مصر ، ١٣٧٢ هـ .
- ٦٥- قلائد العقيان ، الفتح بن خاقان ، ط. مصر ١٢٨٣ هـ .

- ٦٦- لسان العرب ، ابن منظور ، ط. الدار القومية ، القاهرة .
- ٦٧- مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ، ١٩٨١ .
- ٦٨- محمد بن عمار الأندلسي ، د. صلاح خالص ، ط. بغداد ، ١٩٥٧ .
- ٦٩- مذكرات الأمير عبد الله (التبيان) ، تحقيق ليفي بروفسال ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ٧٠- مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، الفتح بن خاقان ، ط. الجوائب ، ١٩٠٢ .
- ٧١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، تحقيق العريان وآخرين ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٧٢- معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ط. مصر .
- ٧٣- معجم السفر . السلفي ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ .
- ٧٤- مع شعراء الأندلس والمتنبي (سير ودراسات) ، غرسية غومس ، تعريف ، د. الطاهر مكى ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ .
- ٧٥- المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد ، تحقيق د. شوقي ضيف ، ط. دار المعارف ، القاهرة .
- ٧٦- المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، ابن حيان ، تحقيق د. محمود مكى ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧١ .

- ٧٧- المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، ابن حيان ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجبى ، ط دار الثقافة . بيروت . ١٩٦٥
- ٧٨- المن بالإمامة على المستضعفين ، ابن صاحب الصلاة ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤
- ٧٩- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، المقرئ ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٨٠- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عيسى منون ، القاهرة.
- ٨١- نقد النثر ، تحقيق د. طه حسين والعبادى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٧ .
- ٨٢- نوارى المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ٨٣- الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ، د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، الطبعة الأولى .
- ٨٤- الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، الطبعة الأولى .
- ٨٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . ، ابن خلكان ، تحقيق محبى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ٨٦- يحيى بن الحكم الغزال ، محمد صالح البنداق ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٨٧- The Moors in Spain, Stanly Lane - Poole, London, 1920

الفهرس

المفهرس

الباب الأول

- ٩ (مراحل تطور الهجاء)
- ١١ الهجاء بمعناه اللغوى والأدبى
- ١٦ العوامل المؤثرة فى الهجاء الأندلسى
- ١٦ العوامل السياسية
- ١٧ العوامل الاجتماعية
- ١٨ أثر البيئة المتحضرة
- ١٨ التكسب بالهجاء
- ٢٠ نقاد الأندلس والهجاء

الباب الثانى

- ٢٧ (اتجاهات الهجاء الأندلسى)

الفصل الأول

- ٣١ الهجاء السياسى
- ٣٤ هجاء الملوك والحكام
- ٥٨ الهجاء القبلى
- ٦٢ هجاء البربر
- ٦٨ رسالة الشقندى فى الدفاع عن الأندلس

٧٢	هـاء الیهود
٨٠	هـاء الشعبیه
٨٤	رسالة ابن غرسية
٨٩	رد ابن الدودین البلسی علی رسالة ابن غرسية
٩٢	رد ابن من الله
٩٤	رد یحیی بن مسعدة
٩٧	هـاء الفرنجة

الفصل الثاني

١٠٣	هـاء أصحاب المناصب الرسمية
١٠٥	هـاء الوزراء
١٠٩	هـاء الولاة والعمال
١١٢	هـاء القضاة
١١٥	هـاء الفقهاء

الفصل الثالث

١١٩	هـاء العلماء وأصحاب المهن
١٢١	هـاء المعلمین والمؤدبین
١٢٢	هـاء النحاة
١٢٢	هـاء الفلاسفة
١٢٧	هـاء أصحاب العلوم الطبيعية

هجاء الكتاب ١٢٩

الفصل الرابع

الهجاء الاجتماعي ١٣٣

نقمة الفرد على المجتمع ١٣٥

الذائل الخلقية ١٣٨

التصدى لمظاهر الفساد ١٣٩

هجاء البخلاء ١٤١

هجاء الأهل والأقارب ١٤٣

هجاء المظاهر الحضارية ١٤٦

هجاء المغنين والمغنيات ١٤٨

هجاء المدن ١٤٩

الفصل الخامس

هجاء التنذر والسخرية ١٥٣

التنذر بالمؤدبين والقضاة والبخلاء ١٥٥

هجاء الذات ١٦٢

العيوب الخلقية ١٦٤

الرسالة الهزلية لابن زيدون ١٧١

الفصل السادس

المعارك الهجائية بين الشعراء ١٧٥

الباب الثالث

١٨٩ الجوانب الفنية لشعر الهجاء

الفصل الأول

١٩٣ لغة الهجاء

١٩٥ الميل إلى السهولة والبساطة

١٩٦ النزوع إلى الشعبية

١٩٨ التأثر بالثقافات الشائعة

١٩٩ استلهام التراث

٢٠٠ الاحتفاء باللغة

الفصل الثاني

٢٠٣ صور الهجاء الأندلسي

٢٠٥ التأثر بالبيئة

٢١١ التأثر بالثقافات الجديدة

٢١١ التراث الديني

٢١٣ المذروث القديم

٢١٧ خاتمة

٢٢١ المصادر والمراجع

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

تم بحمد الله

